


في التاريخ والعلوم الانسانية

مجلة الكترونية علمية متخصصة

أسست بمبادرة من مجموعة من الباحثين المغاربة

العدد الخامس - غشت وشتنبر 2016

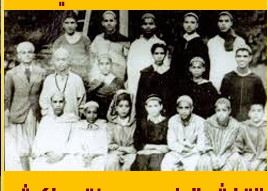


ضمن هذا العدد
- التنظيم الاجتماعي والديني لبلاد المغرب
- التاريخ بين الإيديولوجيا والذاتية نموذج: بول ريكور

السفر البحري بالمغرب إلى بداية ٢٠

البعثات الطلابية إلى بلاد الشام


تاريخ زاوية سيدي بوزكري

السياسة التعليمية الفرنسية في المغرب

التراث المادي بمدينة مراكش

تاريخ يهود أسفي

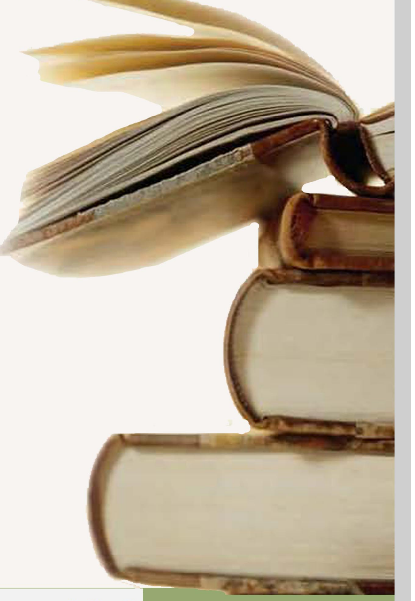

صورة العدد

القبض على الثائر الجيلاني الزرهوني - بوحمارة



المساهمون في هذا العدد:

- محمد أبيهي -رشيد اليملولي
- أحمد العثماني - سعيدة الأشهب
- عمر عمالكي - خالد أوعسو
- غانم بودن - خالد الصقلي
- نور الدين أغوثان - وليد موحن
- حفيان رشيد - عدي الراضي
- سفيان حمومي - محمد أقسقوس
- يونس كبزيز- سعيد البهالي
- محمد العزوزي- سمير مشوشة
- ابراهيم بن عبد المومن




www.maroc-histoire.net lixus@maroc-histoire.com

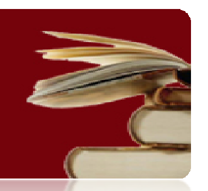
محاور العدد



- التاريخ:قضايا وإشكالات . التنظيم الاجتماعي والديني لبلاد المغرب-السياسة التعليمية الفرنسية في المغرب
- تاريخ الجزائر . التاريخ البحري . تاريخ المغرب الأقصى . مفهوم علم البيبليوغرافيا - تاريخ يهود أسفي
- تاريخ تاعرعارت المنسية -اللصوصية في ايالة الجزائر والمغرب الاقصى خلال القرنين ١٧/١٨م
الحماية القنصلية الفرنسية بمغرب القرن التاسع عشر -التراث المادي بمدينة مراكش

تنسيق وتصميم:محمد أبيهي





من ثمرات المطابع

العمارة العسكرية بفاس عبر التاريخ

إن ما يثير الانتباه من خلال تصفح المصادر التاريخية المكتوبة التي تحدثت عن مدينة فاس هو وجود أسماء لمنشآت عسكرية كثيرة لم تعد موجودة حاليا، والتي لا يعرف مكانها ولا تطورها التاريخي. أما ما هو موجود حاليا في الميدان فهو عبارة عن أسوار تمتد على مسافات كبيرة في فاس البالي وفاس الجديد وعدد كبير من الأبواب والأبراج والقصبات المتنوعة من حيث الأشكال وطرق البناء ومواده والتي تغري بالدراسة والتنقيب. فالهدف إذن من هذه الدراسة هو التعريف بمباني فاس العسكرية سواء المندرسة منها أو القائمة ومحاولة رسم خصائصها وتطورها وبالتالي المساهمة في كتابة تاريخ العمارة العسكرية المغربية التي لا زالت تعيش في مرحلة التأسيس على خلاف ما هو عليه الحال نسبيا بالنسبة للعمارتين الدينية والمدنية.

ويعتمد منهج هذا البحث على مواجهة المعطيات التي تقدمها المصادر التاريخية المكتوبة والدراسات الحديثة بالعمل الميداني. فهو بذلك جرد للمنشآت التي قامت بدور عسكري عبر تاريخ مدينة فاس منذ دولة الأدارسة حتى بداية القرن العشرين ودراستها ومحاولة تحديد الأماكن التي بنيت فيها خصوصا تلك التي لم يعد لها أثر اليوم وذلك بالاعتماد على علم الطوبونيميا وعلم الآثار.



د. منير أقصبي

من مواليد مدينة فاس.

حاصل على شهادة الدكتوراه في التاريخ والآثار الإسلامية بجامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس.

حاصل على ماجستير في تدبير التراث بجامعة سانت إيتيان بفرنسا.

يعمل مفتشا جهويا للمباني التاريخية والمواقع الأثرية بفاس

أستاذ زائر بشعبة التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز بفاس.

له مقالات متخصصة في التراث المعماري لمدينة فاس العريقة.

شارك في عدة ندوات ولقاءات علمية مرتبطة بالآثار والتراث داخل المغرب وخارجه.

المملكة المغربية
وزارة الثقافة
Royaume du Maroc
Ministère de la Culture

نشر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة

ISBN 9954-630-83-9





Fotifications militaire Fès

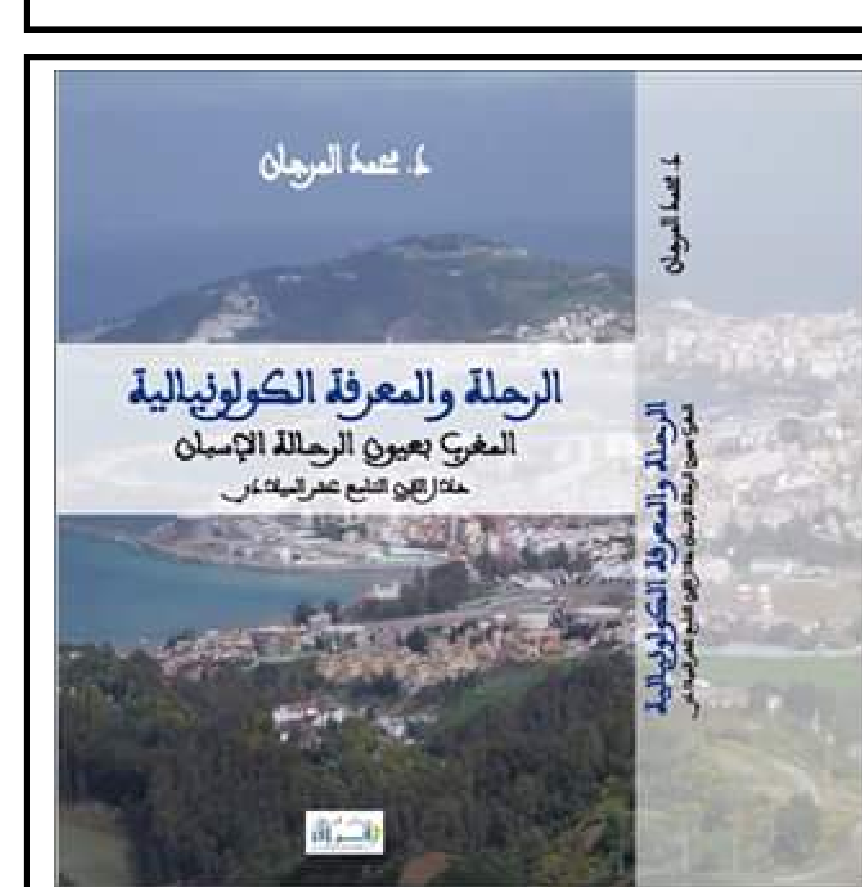
د. منير أقصبي

العمارة العسكرية بفاس عبر التاريخ

د. منير أقصبي

العمارة العسكرية بفاس عبر التاريخ

أفريقيا الشرق



د. محمد المرجان

يأتي هذا الكتاب في سياق المجهود الذي بذلناه من أجل قراءة سوسيولوجية في أدب الرحلة، وهي مغامرة فكرية لا تخلو من المخاطرات، خاصة وأن الأمر يتعلق بالكشف عن نصوص قديمة، ومكتوبة باللغة الإسبانية، مع التنبيه إلى قلة الدراسات السوسيولوجية المتخصصة في هذا الميدان. لقد كان الهدف الأساسي من وراء هذا البحث، هو الكشف عن عناصر السيطرة الكامنة في الخطاب الرحلي وعلاقاتها المشكلة بالفكر الاستعماري – الإسباني على وجه الخصوص – ومؤسساته الإدارية والعسكرية والسياسية. ولذلك فاحتياره مثل هذا الاختيار المعرفي مر في الحقيقة عبر نوع من التكوين للسيطرة الثقافية التي يجسدها المستعمر من أجل إدراك الميكانزمات والآليات والهياكل الجوهرية والأساسية داخل المجتمع المحتل، بغرض تطويعها والسيطرة عليها بطبيعة الحال. وبصرف النظر عن مثل هذا الحكم العام الذي يورط الرحلة بالضرورة في المغامرة الاستعمارية، فقد حاولنا الإجابة عن التساؤل المهم في تقديرنا والنابع أصلا من طبيعة «التيارات» المتناولة من طرف الرحالة، كتعبير عن الاستقرار الاجتماعي المتعرف فيه كل مكونات المجتمع الاستعماري، والمفصل بمختلف الأشكال المواجهة المختلفة والخفية بين عوالم وحضارات وثقافات مختلفة.



فهرس محتويات المجلة

كلمة الافتتاح	4
رشيد اليملولي، المجتمع السياسي و نسق تداول السلطة ـ قراءة في الكتاب ـ	5
أحمد العثماني، التنظيم الاجتماعي والديني لبلاد المغرب قبيل الفتوحات العربية الإسلامية	13
سعيدة الأشهب، الكتاب المدرسي بين الماضي والحاضر- مقارنات وتوصيات	36
محمد العزوزي، كتاب "مؤرخو الشرفاء" لمؤلفه ليفي بروفنصال قراءة في محتوى الكتاب وقيمته العلمية	41
سعيد البهالي، هل كان اليهود المغاربة مواطنون من الدرجة الثانية ؟ يهود مدينة اسفي نموذجا	56
غانم بودن، السياسة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر بين ادعاءات الحضارة والممارسات الإجرامية مذبحة العوفية 1832	67
يونس كبزيز، السياسة التعليمية الفرنسية في المغرب " نحو فرنسة المجتمع المغربي	75
خالد الصقلي،وقفة علمية مع تلاميذ الشيخ ماء العينين بفاس	83
خالد أوعسو، التاريخ بين الإيديولوجيا والذاتيةنموذج: بول ريكور (الجزء الأول)	101
محمد أبيهي، تاريخ الزاوية البوسكراوية	111
نورالدين أغوثان، البعثات الطلابية المغربية إلى بلاد الشام خلال النصف الأول من القرن 20.	127
محمد أقسقوس، لمحات من التراث المادي بمدينة مراكش	138
سفيان حمومي، الحماية القنصلية الفرنسية بمغرب القرن التاسع عشر ـ دراسة إحصائية	154
عدي الراضي،أنوار ساطعة على أركان دامسة من تاريخ تاعرعارت المنسية.	180
بن عبد المومن إبراهيم،مدينة ترنانة في عيون الرحّالة والجغرافيين.	192
عمر عمالكي،السفر البحري بالمغرب إلى بداية القرن العشرين	214
وليد موحن،علم البيليوغرافيا وأهميته في حقل الدراسات التاريخية	236
حفيان رشيد، اللصوصية في ايالة الجزائر والمغرب الأقصى خلال القرنين18/17م قراءة في المصادر المحلية.	245
مشوشة سمير، أوجه من العلاقات الجزائرية –التونسية في بدايات التواجد العثماني	251

كلمة الافتتاح:

يسعد طاقم مجلة ليكسوس الالكترونية أن يضع بين يدي القارئ الكريم العدد الرابع من هذه المجلة الالكترونية الفتية، وأدرجت المجلة في هذا العدد ثلة من المواضيع المختلفة، وقد أسهم في اغناء محتوياتها باحثين من المغرب وخارجه،وهذا يعكس انفتاح مجلة ليكسوس على كل الباحثين بالمغرب وخارجه، وذلك لهدف تثمين التبادل المعرفي والعلمي بين الباحثين،وإيمانا من المجلة بضرورة ربط أواصر التعاون وتبادل الخبرات بين المهتمين في مختلف تخصصات العلوم الإنسانية، لتكون رافدا ومرجعا علميا للطلاب والباحثين بالمغرب وخارجه.

وأملنا جميعا أن تكون هذه المساهمات العلمية إضافة بيبلوغرافية نوعية للقارئ الكريم، لتسليط الضوء عن بعض القضايا التاريخية، وكلنا أمل أن تكبر مجلة ليكسوس الالكترونية بفضل تفاعلكم معنا قراء وكتابا، وذلك لنشر المعرفة التاريخية على نطاق واسع، وننتظر مساهماتكم ومقالاتكم لاغناء هذا المشروع التاريخي الالكتروني، لكي يكون منارة وقنطرة للباحثين والتعريف بانتاجاتهم التاريخية. وفي الختام نشكر كل من ساهم في إثراء العدد الرابع من مجلة ليكسوس، وموعدنا سيتجدد إن شاء الله في العدد الخامس من هذا المولود الالكتروني الجديد ، ليواصل إصداراته الالكترونية لتعم الفائدة جميع المهتمين بالمعرفة التاريخية داخل وخارج المغرب.

مجلة ليكسوس الالكترونية

تنسيق واعداد:محمد أبيهي

قراءة في كتاب





المجتمع السياسي و نسق تداول السلطة . قراءة في الكتاب .



رشيد اليملولي
دكتور باحث في تاريخ المغرب الوسيط

يشكل الكتاب الذي صدر عن منشورات الزمن في عددها التاسع و الأربعين في فبراير 2015 ، و المعنون بالمجتمع السياسي و نسق تداول السلطة بالمغرب ـــ الدولة المرابطية نموذجا ـــ ، للأستاذ عزالدين جسوس ، و المتكون من 156 صفحة من الحجم المتوسط ، مدخلا مهما لفهم التاريخ السياسي المرابطي و المفاهيم المجاورة له تأملا و نقدا ، و هو بخلاف المقاربة المعتادة ، يندرج في إطار المحاولات الجادة التي تتجاوز حجمه ، إذ هي محاولة واسعة المدى تعلو على الطابع التعليمي و البحثي ، و تضع نصب أعيننا مجالا واسعا من القضايا الإشكالية الجديرة بالاهتمام .

يتكون هذا المجهود من ثلاثة مباحث بالإضافة إلى مقدمة و فهرس ، و قد رافق هذا الترتيب مجموعة من الصور و بعض الخرائط و الآثار المرابطية القمينة بتقديم إشارات عن طبيعة السلطة السياسية و امتدادها المجالي .

درجت المقدمات عادة على الإفصاح عن المبتغى من الدراسة ، و كيفية تنظيم و تبويب الفصول و المباحث ، مذكرة بروافدها المرجعية و مفاهيمها المفتاحية ، ذلك ما أبان عنه الدارس في مقدمته ، بحيث جاءت المحاولة استجابة لمطمح إعادة الاعتبار للتاريخ السياسي ، بعد أن ظن أن عموم التاريخ الإسلامي قد عانى من طغيان الهاجس النظري من جهة ، و المقاربة السطحية من جهة ثانية ، مع ما ينضاف لذلك من انعدام دراسات تجمع شتات التاريخ السياسي و ما يرتبط بالسلطة الحاكمة ، هذا العطب يطال الدولة المرابطية التي اختارها مجالا للبحث و التتبع ، أملا في تقديم مجهود يتجاوز الهنات التي عبر عنها في هذه المقدمة ، ملمحا إلى أن العلم بالتاريخ شرط مسبق للذكاء السياسي تأسيا بمدرسة التاريخ الاجتماعي الجديد وممثلها " ناش جيري" ، فهل أفلح الأستاذ عز الدين جسوس فيما انتدب نفسه للدفاع عنه ؟ .

يتخذ المبحث الأول من سلطات الحاكم المرابطي موضوعا للرصد من خلال بسط ووصف المقومات و السمات المتعلقة بالشخصيات التاريخية المرابطية ، و خصائصها العسكرية و السياسية و الرمزية التي حازتها أثناء قيادتها لسدة الحكم ، و في سياق موازي البحث في الأصول الاجتماعية و العلاقة التي تجمع هذا المكون السياسي مع بقي القبائل المكونة للحلف الصنهاجي خاصة جدالة و مسوفة و لمطة (بيت ورتنطق) ، خص هذا التأطير مرحلة عبد الله بن ياسين و يحي بن عمر و أبي بكر بن عمر (المرحلة الصحراوية من التاريخ المرابطي) ، و هي التي شهدت سيادة " الفقه " و احتكار السلطات السياسية باسمه ، تماشت مع قيم البساطة و الطابع الاستشاري ، ووفق المنحى نفسه حاول رسم الصورة السياسية الخاصة بيوسف بن تاشفين و مختلف القيم الأخلاقية و السياسية التي انماز بها ، مراعيا وصف نظام الحكم الخاص بهذه المرحلة دينيا و سياسيا و عسكريا ، و يتضح أن العمل وفق في تحديد الإشكال المرجعي المتعلق بهذه المرحلة ؛ أي تناثر المعطيات و توفرها بهذا القدر و ضعفها بذاك ، هذا التباين في المقاربة ـــ حسب الدارس ـــ أرجعه إلى الحصيلة المصدرية المتاحة .

أما المبحث الثاني فهو بمثابة سدة هذا العمل ؛ إذ ركز فيه على كيفية تداول السلطة بين الأمراء المرابطين و الأسلوب الذي سار عليه النظام السياسي في بناء حكمه بدءا بعبد الله بن ياسين و مرورا بيوسف بن تاشفين ووصولا إلى تاشفين بن علي ، مع إرفاق ذلك بمقومات التداول و الانتقال السياسي من مرحلة إلى أخرى ، و لعل أبرزها الاختيار المحدد من طرف الفقيه عبد الله بن ياسين و التي يمكن أن نسميها نهاية مرحلة الفقه المرتبط بالسياسة إلى مرحلة السياسة المدعومة

فقهيا من خلال الطابع و الكيفية التي انتقل بها " النظام " السياسي (الطابع الملوكي) من أبي بكر بن عمر إلى يوسف بن تاشفين ، و الذي أرسى عهده نهاية المرحلة القبلية ، و حصرها فقط في البيت " التاشفيني" ، هذا الاختيار ؛ لا يمكن نعته ــ حسب الدارس ــ بالشورية أو الاستبدادية تبعا للظرفية التاريخية ، هذا الغياب في التحديد من وجهة نظرنا يطرح إشكالا أصليا يكمن في السلطة و إشكالية تداولها ، بدل نعتها أو وسمها بخاصية أو صفة محددة ، و هذا النزوع يقترب من الايديولوجيا ، و ينأى عن البحث الرصين .

و انصب الاهتمام في المبحث الثالث و المعنون بمراسيم البيعة على تحديد الترتيبات المرافقة لبيعة الأمراء المرابطين طيلة المسار السياسي لهذه الدولة ، مع الإشارة بين الفينة و الأخرى إلى ضعف المادة المصدرية ، ومدى قدرتها على تغطية القضايا و الإشكالات المزمع دراستها .

و حاول المبحث الرابع الخاص بأصحاب السلطة و المجتمع السياسي أن يرصد الأصول الاجتماعية و مكوناتها لدى الدولة ، و الوظائف التي حازها أفراد هذا المجتمع خاصة الفقهاء و القضاة و النساء ، مع الإشارة إلى أدوارهم الاجتماعية و السياسية ، و العلاقة التي تؤلف فيما بين أفراد هذا المجتمع ، و إن كنا نرجح أن يفتتح الأستاذ عمله هنا بالفصل الخاص بالأصول الاجتماعية مع إرفاقها بالتنظيمات السياسية ، و نظام الأحلاف الذي ساد قبل بداية الملحمة المرابطية ، فمن شأن هذا التأطير أن يسهم في فهم و تمثل طبيعة الامتداد في النظام السياسي و مضمون الإضافة التي قدمتها هذه التجربة لعموم التاريخ السياسي في الجناح الغربي من العالم الإسلامي .

نسعى من خلال هذه القراءة ــ بعد عرض مضامينها و أبوابها ــ أن نعبر عن بعض الشكوك المعرفية و المنهجية التي اعترت هذا العمل ، دون أن يخامرنا شك في ممارسة محاكمة هي نوع من الأمانة العلمية ضد شيطان الحجاج الوهمي .

إذا كانت القراءة العلمية تستمد مشروعيتها من تفكيك البنية الداخلية و تعرية فراغات و بياضات العمل ، فإنها لا تملك هذه الصفة إلا إذا تحررت من هيمنة الإسقاطات الذاتية المؤطرة ضمن مجال الينبغيات .

يلاحظ بداءة أن الدارس اعتمد حصيلة مصدرية مهمة ، تعامل معها وفق ما يقتضيه ترتيب العمل و تبويبه ، و يبدو أنه انحاز إلى عدم مسايرة هذه الروافد في الكثير من الأقوال ، واقفا عند نقدها بلغة تتناسب و البحث العلمي ، بمعنى تجاوز الحسم و اليقينية و الركون إلى النسبية و

الإشكال المفتوح (نماذج ذلك ص 12ــ 13ــ 14ــ 16ــ 39ــ 44) ، و في السياق ذاته يناقش آراء الدارسين إما للتعضيد أو التفنيد ، و إن كنا نلاحظ أنه يورد آراء الأستاذ ابراهيم القادري بوتشيش دون فحص أو نقد ، و الأمر يطال كذلك بعض المصادر التاريخية البعيدة عن التاريخ المرابطي ، و التي وظفها دون سند علمي ، و دون أن يعمل على تقدير المسافة النقدية خاصة مع ابن الأثير و ابن خلكان و النويري و ابن خاقان ، مهما كانت طبيعة المادة المقدمة للبحث .

و البين أن الحصيلة المصدرية المهمة التي اعتمدها الدارس من مخطوطات و حوليات تاريخية و تراجم و تصوف و أمثال و جغرافيا و شعر و نوازل و طب و آداب سلطانية ، قد تفاوتت في توظيفها حيث يحضر بيان ابن عذاري بشكل لافت ، و نرجح أن هذا التباين في التوظيف يعزى إلى غياب تصدير منهجي لطبيعة الحصيلة المصدرية ، حيث إن خلو الدراسة من قراءة نقدية مستقلة و تقييم إضافتها ، قد أسقط الدارس في العديد من الهنات و المعاطب ، إذ تعامل معها بما يخدم غرضه و تصوره للموضوع و بشكل بريء دون أن يساوره قلق إشكالي بشأنها ، فمن المعلوم أن غالبية التاريخ المرابطي قد كتب في العصر الموحدي و أكثر تحديدا في العصر المريني ، و هو منتوج لم يكتب التاريخ المرابطي و إنما أوله و أصبغ عليه هواجسه و ظرفيته التاريخية .

زاوجت الحصيلة المصدرية المعتمدة في هذه الدراسة بين المشرب الأبعد و الأقرب ، و هذا ما أنتج نصا هشا في بنيته و حجاجه و أفقه ، و جعله خطا لا يلتفت بقدر كبير إلى المنعرجات و القضايا السياسية العالقة ، بقدر ما كان نصا متصالحا مع المصادر يهفو إلى مسايرة منطقها و روحها ، فغدا النص بذلك " خاليا " من القضايا الشائكة ، الأمر نفسه يخص الدراسات العلمية (الأكاديمية) حيث كانت الحصيلة ضحلة ، إذ تم الاعتماد على ابراهيم القادري بوتشيش و محمود علي مكي و عصمت دندش و عمر بن حمادي ، تفسر هذه الضحالة بتغاضي الدارس عن دراسات مهمة كان بإمكان الاطلاع عليها أن يقدم إضاءة لبعض الجوانب المتعلقة بمسار البحث (عبد الجليل لحمنات ــ حليمة فرحات ــ بزاوي عبد الكبير ــ سعيد جرادة ــ محمد ناصح مثالا لا حصرا) ، و في تقديرنا ــ المتواضع ــ تتطلب قراءة التاريخ المرابطي تصويب رأي الدارسين بغرض تحقيق تراكم كفيل بتوسيع الرؤية في التاريخ السياسي ، برصد متونه رصدا أمينا لا انتقائيا يحتفل برؤى و تصورات محددة ، دون النفاذ إلى تنويع زوايا النظر ، لكل ذلك نحسب أن هذه

المحاولة تعد خطوة إلى الوراء في تقدير الحصيلة التاريخية و السياسية للتجربة المرابطية من خلال الأعمال التي راكمها الباحثون في هذا الشأن .

و على مستوى المدخل و أكثر تحديدا العنوان ؛ يبدو أن الحديث عن نسق يتطلب وجود نظام متكامل و منسجم الأوصال ، الحال أن هذه الخاصية تنتفي إذ إن انتقال السلطة لم يخضع لمنهجية نسقية يمكن أن نسم بها التجربة التاريخية للسلطة موضوع الدراسة ؛ فالتباين الحاصل بين عهدة عبد الله بن ياسين و أبي كبر بن عمر ، ليست هي خاصية النسق في انتقال الحكم من أبي بكر إلى يوسف بن تاشفين ، و حتى في ظل نظام ولاية العهد يصعب علينا الحديث عن نسق تداول السلطة ، و من ثم غياب أسس هذا النسق و خاصيته ، و إن كان الدارس يحسبه في تداول السلطة عن طريق الوراثة ، فحتى هذه الخاصية لا ترقى اختياراتها و مسلكياتها إلى نسق ، فالأمر منوط بطبيعة الظرفية التاريخية المواكبة لكل مرحلة ، لأن التنظيم الإداري و القانوني و الشرعي المؤسس للسلطة ، لم يكن واضحا في بما فيه الكفاية قدر وضوحه قبليا و عصبويا .

أما القضايا المعرفية و الظواهر التاريخية المبثوثة في هذا العمل ، فقد انطوت على بعض الثغرات التي حدت من أصالتها و جعلتها في أقصى الحالات قضايا لا تحمل جدة علمية ، و إنما استمرار لقضايا تراثية .

تخص أولى هذه الإشكالات المجال السياسي في أسسه الفكرية و أساليبه التنظيمية ، التي احتكمت إليها السلطة لبناء شرعيتها السياسية و مشروعيتها الاجتماعية ، و هذا ما كان يتطلب منهجيا إيراد مدخل و توطئة للجهاز " النظري " السياسي المرابطي ، و لو بالإشارة إلى " بضاعة " المرادي التي رام صاحبها تحقيق شيء ما عند المرابطين حسب الأستاذ علي أومليل في كتابه السلطة الثقافية و السلطة السياسية .

هذا المدخل قد يؤسس و ينير بعضا من وجوه السلطة و لو على مستوى طرح إشكالات جديدة ، نستطيع بوساطتها معرفة ملامح هذه السلطة و بنيتها الفكرية ــــ السياسية ، و ذلك على الرغم من الانتقاد الذي صدر به الدارس مؤلفه من أن البحث في التاريخ الإسلامي السياسي يغلب عليه الطابع النظري أو السطحي و غياب التاريخ الشمولي ، و نميل إلى الاعتقاد بأن الدارس لم يحد عما عاب عليه الدارسين الآخرين ، حيث افتقر العمل إلى موجه " نظري" يفيد في معرفة طبيعة هذه السلطة انسجاما مع المد السني ابتداء من منتصف القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، فحتى الحديث عن البيعة موضوع المبحث الثالث ، كان حديثا تقنيا يعنى بتحديد الخصائص

الشكلية للبيعة ، في وقت غيب منابر المساجد و الدعوة فيها ، دون الغوص في تحديد مضمون هذه البيعة و مدى استيفائها للشروط المتبعة في التجارب الإسلامية سواء بتجديدها أو تجددها .

وتطغى بالمقابل على العمل مسحة و صبغة أخلاقية و سياسية تتنافى مع الواقع التاريخي بحكم طبيعة الفعل البشري في المجال التاريخي ؛ فلا يعقل مثلا أن يشد عبد الله بن ياسين في العديد من الأحكام الدينية ، و أن يكون نكاحا للنساء و هي صفات اتشح عنها الدارس و غيب البحث فيها ، مع العلم أنها تغطي مرحلة مهمة من التاريخ المرابطي في شقه الصحراوي ، بل أجاد في تبريرها بدعوى أن يكون عبد الله بن ياسين قدوة داخل الجماعة ، و الأغرب أن لا يشير إلى الصفات السياسية الملازمة للفعل السياسي عند باقي الأمراء المرابطين و لو على سبيل الإشارة ، بقدر ما استكان إلى إلصاق النموذج السياسي بالتجربة المرابطية ، و ارتقى هذا النهج إلى السكوت عن تفسير معجزة و بركة يوسف بن تاشفين ، و هي للمصادفة المعجزة التي تنسب إلى جد الحكام المرينيين عبد الحق بن محيو ، و نحن نعلم الجدوى من توظيف مثل هذه الأقاويل في المجال السياسي ، صورة الاحتفال الأخلاقي تجد سندها الأرقى فيما قاله ص 147 : "...نجد أن أمير المسلمين يستشيرهم و يعاملهم بمودة و تقدير كبيرين ...كما أنه كان حليما معهم إلى أبعد الحدود و كان يغفر زلاتهم " .

و من الأمثلة التي تسترعي الاهتمام ، و التي وقف منها الدارس موقفا نكوصيا مسألة تحديد المصطلحات أثناء تفسيره لعملية انتقال السلطة من أبي بكر بن عمر إلى يوسف بن تاشفين ، حيث يتردد كثيرا ما بين التنازل و التسوية ، و إن كان يستعمل كثيرا مصطلح التنازل ، و هو ما لا نوافقه فيه الرأي ؛ إذ إن الأمر ذو طبيعة سياسية اقتضت من يوسف بن تاشفين التصرف في غياب ابن عمه في مهمة الصحراء باعتباره صاحب أمر و ليس نائبا ، و ما لجوءه إلى الهدية و الطقوس المرافقة لعملية " التسوية " إلا مؤشر دال على انتقال سياسي بمضمون ملكي ابتغى " الترغيب و الترهيب " في سبيل إسقاط حق ابن عمه أبا بكر ، و هو الأسلوب الذي نهجه مع ابراهيم بن أبي بكر بن عمر .

تبلغ صور الإغراق في المسحة الأخلاقية ذروتها فيما خلص إليه من أن النظام المرابطي كان يستشير و لا يستأثر بالرأي بعد أن استبعد مقولة ديمقراطية النظام (محمود علي مكي) ، و استبداد الدولة (ابراهيم القادري بوتشيش) ، و هي صفة عممها على أصحاب السلطة السياسية المرابطية ، فحتى الإشارات المقدمة باعتبارها قرائن دالة على صفة أو خاصية قد تكون انتقائية ، و

لا تكتسي طابعا نسقيا منظما ، احتكاما إلى النزعة القبلية و التي قد لا تعني بالضرورة مبدأ سياسيا قائم الذات ، بقدر ماهي استكمال لصورة " إذا عزمت فتوكل " .

و تتكرس صيغ الغموض العلمي و التاريخي في العديد من القضايا التي أثارها صاحب الكتاب دون أن يلامس فيها تخوم الحقيقة بالمعنى التاريخي ، بقدر ما كانت قضايا أعاقت الوضوح الذي ابتغاه و عبر عنه في المقدمة و من خلال النسق الذي رام بسط مقوماته منها مثلا التلكؤ في بيعة علي بن يوسف من طرف قرطبة و فاس ، هذا التلكؤ في مضمونه علامة على تكسير هيبته و تهاوي النسق الذي تحدث عنه الدارس و عنون به عمله ، بل إنه ـــ أي التلكؤ ـــ قد أفرغ النسق من محتواه من طرف عاصمتين رمزيتين و غذتا التشكيك في وجود هذا النسق أصلا ، لأن الأجواء التي رافقت تولية أولياء العهد (أبناء علي بن يوسف) قد تفت في وجود نسق لتداول السلطة ، لأنه غير محكوم بنسق تنظيمي و بنية سياسية ثابتة ، بل هو رهن ظرفيات تاريخية متباينة لها قوانينها الخاصة في ترجيح و تغليب طرف على آخر ، و يشي بوجود خلل ما في نظام الحكم طال حتى فترة قوة الدولة ؛ أي الانتقال من يوسف بن تاشفين إلى ابنه علي ، و مما قد يقلل من وجود بنية تنظيمية و سياسية يحتكم إليها في تدبير مسألة ولاية العهد ، كما أن عدم الاستفادة من ثلة المفكرين و الأطباء الذين عرج عليهم الدارس (ابن باجة في بلاط أبي بكر بن تفلويت و أسرة ابن زهر لدى الحكام المرابطين) ، حكم إيراد هذا المعطى بتسويق صورة " النظام " السياسي أكثر منه رغبة في إثارة التساؤل و القلق التاريخي الإشكالي ، أي توظيف القيمة العلمية في تكوين ثلة من العلماء و المفكرين ، و التقليل من صورة الفقه الموالي للسلطة ، و المكرس لفراغ محتوى السياسة المرابطية ، و تفسير تغاضي هذه السلطة عن الاستفادة من هذه المرجعية ـــ الطب و الفلسفة ـــ و رجحان كفة الفقه المالكي بالخصوص ، و التي وقف عندها الدارس و أكد أهمية الفقهاء في بناء الدولة ، مع الإشارة إلى بعض مظاهر الثراء من خلال حيازة هذه الفئة للأموال ، غير أنه لم يكلف نفسه تفسير دور هذه الفئة في توفير الغطاء الايديولوجي للدولة ، و في الوقت ذاته تحولهم إلى أداة لتعفن هذا الأساس ، الذي قامت عليه الدولة (الوقوف مثلا عند مسألة إحراق إحياء الغزالي و دور هذه العملية في زعزعة الكيان السياسي للدولة و تنمية أصوات المعارضة التي استثمرت بشكل جيد من طرف ابن تومرت) ، و لم تكن الصورة التاريخية المقدمة عن الفقهاء في هذا العمل إلا صورة " معاقة " حجبت جوانب مهمة من حقيقتها الوظيفية في المجال السياسي المرابطي .

نرجو أن تكون هذه القراءة حافزا لنا و لغيرنا لتعميق البحث العلمي، و تعميق الرأي في التراكم الذي حقق على مستوى البحث التاريخي المنظم ، و تسهم في إنارة الطريق للأجيال القادمة عسى أن تقدم أعمالا تكتسي الريادة و الجدة .

من تاريخ المغرب الوسيط







التنظيم الاجتماعي والديني لبلاد المغرب قبيل الفتوحات العربية الإسلامية.

أحمد العثماني
دكتور باحث في تاريخ المغرب الأقصى

بعد دخولهم إلى الإسكندرية سنة21 ه وجد الفاتحون العرب بقيادة عمرو بن العاص أنفسهم أمام مجال جغرافي ممتد، لم يسبق أن تعامل معه العرب سواء في الجاهلية أو في بدايات الإسلام ،ولم تكن لهم أدنى دراية بأوضاعه السياسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية...إنه بلاد المغرب الذي يمتد من غرب الإسكندرية إلى المحيط الأطلسي .

وهذا الجهل بالمنطقة هو الذي دفع الخليفة عمر بن الخطاب(13 ه -23 ه) إلى إرسال أمره إلى قائده عمرو بن العاص بإيقاف عملية الفتوحات هناك، إلى حين امتلاك المعلومات الكافية عن الأوضاع السياسية والاجتماعية و الدينية ببلاد المغرب، ثم بعد ذلك اتخاذ القرار الملائم بشأن استئناف عملية الفتوحات هناك، وهذا ما حدث لاحقا في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه(24 ه -35 ه) .

وسيكون هدف هذه الدراسة توضيح تلك المعطيات التي كانت مجهولة لدى الفاتحين، والمتعلقة بالتنظيم الاجتماعي والديني الذي كان سائدا في المنطقة قبيل الفتوحات، وهذا ما سيساعدنا في تحقيق فهم أكثر موضوعي للتعقيدات و الصعوبات التي واجهت عملية الفتح وجعلتها تتأخر سبعين سنة، وقبل ذلك كان لابد من الوقوف عند التطور التاريخي لمصطلح بلاد المغرب، كما وضحتها المصادر التاريخية والجغرافية العربية.

المبحث الأول :التطور التاريخي لمصطلح بلاد المغرب:

يحيل مصطلح المغرب إلى منطقة شمال إفريقيا وهي تضم حاليا ليبيا وتونس والجزائر و المغرب وموريتانيا، وهذا المصطلح ينتمي حصرا إلى مجال التداول العربي حيث ظهر إلى الوجود إبان الفتوحات العربية الإسلامية، و لم يكن معروفا قبل ذلك. لكن تاريخ اعتماد هذا المصطلح في مجال التداول العربي غير معروف و لم يسبق أن درسه الباحثون، على حسب ما أعلم ، وهذا ما سأحاول دراسته من خلال الإجابة عن سؤالين هما: متى تم اعتماد مصطلح بلاد المغرب في مجال التداول العربي؟ وكيف تطور تاريخيا؟

عرفت المنطقة في المصادر العربية التاريخية والجغرافية بلفظتين أساسيتين، هما إفريقية والمغرب.

أما إفريقية فلفظة موروثة عرفت بها المنطقة منذ القدم، «فقد أطلق الفينيقيون لفظ أفري (Aphri) على أهل البلاد الذين كانوا يسكنون حول مدينتهم "طاقة Utica" "المدينة القديمة" وعاصمتهم قرطاجنة "المدينة الحديثة"، وعنهم أخذه اليونان، فأطلقوه على أهل البلاد الأصليين الذين يسكنون المغرب من حدود مصر إلى المحيط، ومن ثم سميت هذه المنطقة أفريكا أي بلاد الأفري»[(1)].

وأخذ الرومان الاسم عن الفينيقيين فاستعملوه للدلالة على المنطقة؛ لكن أمام اتساع المجال الجغرافي المسيطر عليه، عمل الرومان على تقسيم المنطقة إلى عدة مقاطعات وبتسميات مختلفة، اختص لفظ إفريقية بمنطقة محددة هي إفريقيا البروفنصالية، إلى جانب نوميديا وموريطانيا القيصرية وموريطانيا الطنجية[(2)].

إلا أن اسم إفريقية ظل -رغم التقسيمات الإدارية- عاما يشمل المنطقة ككل «فكانت إفريقية البيزنطية تشمل كل ما دخل في طاعة الروم من هذه القارة، من برقة إلى طنجة»[3].

أما عند العرب فإن مصطلح إفريقية عرف تطورا تاريخيا، جمع ما بين الشمول والتحديد. ففي بداية تعرفهم عليها كان المصطلح يعبر عن المنطقة ككل، بمعنى أن المنطقة كانت معروفة لديهم تحت اسم إفريقية، وتورد المصادر أن عمرو بن العاص عندما أنهى فتح طرابلس بعث رسالة إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه (13هـ/23هـ) يخبره بقوله «أنا قد بلغنا اطرابلس، وبينها وبين إفريقية تسعة أيام فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا في غزوها فعل»[4].

وما يؤكد ما ذهبنا إليه من أن المقصود بإفريقية في النص السابق، المنطقة ككل، قول عبدالله بن الزبير نفسه، أثناء حديثه عن حملة عبدالله بن سعد: «أغزانا عثمان بن عفان إفريقية، وكان بها بطريقا سلطانه من اطرابلس إلى طنجة»[5].

وهو المعنى نفسه الذي ظل سائدا لفترة طويلة، حيث نجد مصادر تاريخية متعددة تستعمله مثل ابن حبيب[6] وابن خياط[7]...

وكما حدث مع الرومان، وأمام اتساع المجال المفتوح والذي وصل إلى جنوب أوربا، حدث نوع من التحديد والتخصيص للمصطلح، فلم يعد يعبر عن المنطقة ككل وإنما عن جزء منها «فاقتصر اسم إفريقية على ما يلي مصر غربا حتى بجاية، أي أنه ضم تونس ونصف مقاطعة قسنطينة الحالية»[8].

نتيجة لهذا التخصيص تم استحداث لفظة عربية خالصة، لم تكن متداولة في السابق، تحيل على المنطقة بشكل عام، فأطلق مصطلح المغرب على الجناح الغربي من دار الإسلام أو مغرب الشمس.

والسؤال المثار هنا، متى ظهر هذا المصطلح؟ وهل يمكن تحديد الفترة التاريخية التي ظهر فيها بشكل تقريبي؟

يجب أن نعترف أنه من الصعب الإجابة عن هذا الإشكال، خاصة أن هذا المصطلح ظهر مع بداية التدوين في التاريخ، حيث نجده عند ابن خياط وكذلك البلاذري، والطبري، وابن عبد الحكم[9]...

وبالرغم من ذلك يمكن تحديد هذه الفترة -وبشكل تقريبي- من خلال استقراء النصوص، خاصة تلك التي أوردت الرسائل والحوارات التي كانت تجري بين القادة والخلفاء.

يذكر ابن خياط أن الخليفة معاوية بن أبي سفيان(41ه-61ه) بعث إلى عامله بالمدينة مروان ابن الحكم قائلا: «أن ابعث عبدالملك بن مروان على بعث المدينة إلى بلاد المغرب»[10].

تعد هذه الرسالة أقدم مصدر يذكر فيه مصطلح المغرب على لسان الخليفة معاوية نفسه، غير أنه لا يمكن الاعتماد عليها لغياب ما يعضدها من رسائل أخرى، ولأن الفترة التي تحدثت عنها كانت فيها المنطقة غير خاضعة للخلافة العربية الإسلامية، وكانت محاولات الدخول إليها ما زالت في بداياتها، نضيف إلى ذلك أن معلومات العرب عن المنطقة كانت محدودة، نتيجة لغياب أي تواصل كبير بينهما في السابق، وأن أقصى ما عرفوه كونها تابعة للبيزنطيين، ومن ثمة فإن الاسم الذي كان رائجا لديهم هو الاسم نفسه الذي كان معتمدا لدى البيزنطيين وهو "إفريقية" كما رأينا سابقا.

بالإضافة إلى أن مصطلح المغرب جاء تعبيرا عربيا خالصا عن المجال الغربي لدار الإسلام، وهو الشيء الذي لم يتحقق في عهد معاوية، وبذلك نستنتج أن لفظة المغرب التي أوردها ابن خياط في هذه الرسالة من وضعه وليست من قول معاوية ابن أبي سفيان.

أما أهم إشارة يمكنها أن تساعدنا في الإجابة عن هذا الإشكال، فقد وردت عند كل من الرقيق القيرواني وابن عذاري، أثناء حديثهما عن ولاة المغرب في الفترة الأموية.

فالرقيق القيرواني أثناء حديثه عن الوالي عبيد الله بن الحبحاب، وعن ما واجهه من ثورات الخوارج، يورد لنا نص الحوار الذي دار بين هشام بن عبدالملك (105هـ/125هـ) وحاشيته، مستفسرا عن الأحداث، فيقول «.. واختلفت الأمور على عبيدالله بن الحبحاب واجتمع الناس وعزلوه عن أنفسهم وبلغ ذلك هشام بن عبدالملك وقال: «أقتل أولئك الرجال الذين كانوا يفدون علينا من المغرب أصحاب الغنائم قيل نعم يا أمير المؤمنين»(11).

أما ابن عذاري فيورد لنا نصا فيه إشارة إلى المغرب متقدما زمنيا عن إشارة الرقيق القيرواني، فيذكر أن الخليفة سليمان بن عبد الملك (96-99هـ) عندما أراد تعيين وال على المغرب، قام باستشارة "رجاء بن حيوة"، فأشار عليه بمحمد بن يزيد، مولى قريش، فقام باستدعائه وتكليفه ناصحا إياه قائلا: «يا محمد بن يزيد! اتق الله وحده لا شريك له! وقم فيما وليتك بالحق والعدل! وقد وليتك إفريقية والمغرب كله»(12).

يمكن أن نؤكد من خلال النصين السابقين أن مصطلح المغرب أصبح متداولا مباشرة بعد انتهاء عملية الفتح؛ فالنص يذكر لنا فترة الخليفة سليمان، وقد جاء إلى الخلافة مباشرة بعد وفاة أخيه الوليد، الذي في عهده تم الفتح الكامل الشامل للمغرب والأندلس، فكان لابد من استحداث مصطلح يعبر عن هذا الوضع الجديد.

وبذلك نخلص إلى القول إنه بدأ تداول مصطلح المغرب في أواخر القرن الأول الهجري باعتباره الجناح الغربي لدار الإسلام، آخذا في الانتشار إلى أن حل محل مصطلح "إفريقية"، الذي أصبح يعبر عن جزء من بلاد المغرب فقط.

المبحث الثاني: في أصل السكان و تنظيمهم الاجتماعي .

أولا- في أصل السكان:

يمكن تصنيف السكان الذين كانوا يقطنون المنطقة أثناء الفتح، إلى ثلاثة أصناف:

أ.البيزنطيون:

كانت لهم الغلبة السياسية في المنطقة، وهم امتداد طبيعي للرومان، واستوطن عدد منهم المنطقة، وخاصة في المناطق الساحلية والمدن الإدارية، وكانوا أول من تواجه معهم العرب.

ب.الأفارقة:

كانوا بدورهم يقطنون في المراكز الساحلية، وهم في الغالب أخلاط من الروم وبقايا الفنيقيين والبربر ممن تزاوجوا، وإن كان جوتييه يرى أنهم فينيقيون بالأساس، حافظوا على هويتهم الخاصة بالرغم من الأحداث المؤسفة التي تعرضوا لها، وبالأخص اللغة الفينيقية، التي استمرت في الوجود بشكل كبير حتى في أيام أوغسطين الذي سجل ذلك في رسائله وكتاباته[(13)]، وأكد بروكوب كذلك أن «أهالي المنطقة لا زالوا يتكلمون البونيقية»[(14)].

ومن المحتمل استمرار هذه اللغة في الوجود حتى زمن الإسلام حيث نجد البكري عند حديثه عن مدينة سرت، يذكر لغة أهل المدينة بأنها "ليست بعربي ولا عجمي ولا بربري ولا يعرفه غيرهم»[(15)]، فلم لا تكون اللغة المقصودة هنا هي الفنيقية؟ ويبقى هذا مجرد تساؤل مفتوح إلى أن تظهر دلائل جديدة تنفي أو تثبت ذلك.

ج.البربر:

هم السكان الأصليون للمنطقة، عرفوا بعدة أسماء منها: الليبيون والموريون، والملاحظ أن هذه الأسماء كلها خارجية أطلقها عليهم قوم آخرون، ولم يعرفوا باسم خاص أطلقوه على أنفسهم، وإنما اكتفوا بالتعيين القبلي، أي الانتساب إلى القبيلة، دون تجاوز ذلك إلى اسم علم جامع لشعب له خصائص مشتركة.

ولم تكن لفظة البربر معروفة عند العرب، قبل اتصالهم بالمغرب، فهي لفظة يونانية Berbaroi [(16)]، ومنها انتقلت إلى الرومان حيث استعملوها لتعيين كل خارج عن الحضارة الرومانية، وخاصة سكان شمال إفريقيا[(17)] وبقي هذا اللفظ مستعملا أيام البيزنطيين، فيبدو أن العرب قد وجدوا هذا اللفظ يطلق بصفة عامة على سكان المنطقة، وأمام اتساع استعماله حاول الكتاب

إعطاء تفسير لهذه اللفظة من خلال المعجم العربي، مبتعدين كل البعد عن المعنى الاصطلاحي التحقيري، الذي كان سائدا في المعجم اليوناني اللاتيني.

هناك روايتان أساسيتان حاولتا تفسير مصطلح "البربر":

- الأولى: اعتمدت على النسب، حيث افترضت وجود جد أعلى تنحدر منه جميع قبائل البربر، ومنه اشتق الاسم الجامع وهو بر بن قيس بن عيلان[18].

- الثانية: بمعنى اللغة الغامضة وغير المفهومة، وتنسبها المصادر إلى شخصية تاريخية اسمه افريقش من اليمن، دخل إلى المغرب غازيا، فلما التقى ببعض سكانه «وسمع رطانتهم ووعى اختلافها وتنوعها تعجب من ذلك، وقال ما أكثر بربرتكم فسموا بالبربر»[19].

أما ليون الإفريقي فيورد تفسيرا آخر لمعنى البربر، ودائما من خلال حكاية إفريقش، فعندما «انهزم هذا الأخير أمام الأشوريين أو الأتيوسيين هرب إلى مصر ولما وجد نفسه مطاردا عاجزا عن مقاومة العدو، استشار قومه أي سبيل يسلكونه للنجاة، فأجابوه صارخين البربر أي إلى الصحراء»[20].

هكذا فسرت معظم المصادر العربية لفظة البربر مبتعدة عن المعنى التحقيري المقترن بها منذ الإغريق والرومان[21]، وعرف سكان المغرب بهذه اللفظة ، والذين،كما قلت سابقا، لم يسموا أنفسهم بهذه التسمية أو بأخرى، إنما اكتفوا بأسماء قبائلهم، بمعنى أن هذه التسمية خارجية أطلقها عليهم أناس آخرون لتمييزهم عن بقية الشعوب.

أما عن أصل البربر فقد اختلف الدارسون حول أصلهم ، و لم يتم الاتفاق حول رأي واحد في أغلب فترات دراسته إذ لازال الجدل قائما، محط أخذ ورد بين المدارس الفكرية المعاصرة..

الرأي الأول: يعد هيرودوت أول من أشار إلى ساكنة المغرب حيث أكد أن المنطقة كان يقطنها الليبيون، الذين ينقسمون بدورهم إلى فرقتين،فرقة "بدوية" وفرقة "حضرية"[22].

أما عن أصلهم «فلا يتردد في نسبتهم إلى الطروادبين الذين طردوا من طروادة بعد أن حطمها التحالف الإغريقي، ما بين القرنين 11 و12 ق م»[23].

أما الرأي الثاني: فقد جاء به المؤرخ الروماني سالوست "salluste"، الذي أكد فيه على أن الليبيين والجيتوليين أول من سكن المنطقة، فاختلط بهم فيما بعد الميديون والأرمنيون والفرس، الذين كانوا جندا في جيش القائد هيركول "Hercul" عندما دخل إسبانيا، فجاء أولئك إلى المغرب فاختلطوا مع ساكنته الأوائل، فاختلط الميديون والأرمنيون بالليبيين أما الفرس فقد اختلطوا بالجيتوليين(24).

الرأي الثالث: أتى به المؤرخ بروكوب "Procope" الذي عاش في الفترة البيزنطية، حيث كان مرافقا للقائد "بيليزار"Belisair"، الذي هزم الونداليين وأعاد المغرب إلى السيطرة البيزنطية، وقد أكد فيه على الأصل الكنعاني الفلسطيني للبربر، فبعد أن احتل العبرانيون فلسطين هرب هؤلاء إلى مصر، غير أنهم سرعان ما تركوها لكونها آهلة بالسكان، ثم اتجهوا إلى المغرب وانتشروا فيه إلى حدود جبل طارق(25).

أما في المصادر العربية التي عالجت هذه الإشكالية، فنجد رأيين أساسيين:

الرأي الأول: تتحدث عن الأصل الكنعاني الفلسطيني، حيث هاجر الكنعانيون إلى المغرب بعد هزيمتهم أمام العبرانيين. فنجد ابن عبدالحكم يؤكد على أن أصل البربر من فلسطين حيث يقول: «وكان ملكهم جالوت فلما قتله داود عليه السلام خرج البربر متوجهين إلى المغرب حتى انتهوا إلى لوبية ومراقية، وهما كورتان من كور مصر الغربية، فتفرقوا هناك، فتقدمت زناتة ومغيلة إلى المغرب وسكنوا الجبال، وتقدمت لواتة فسكنت أرض انطابلس وهي برقة، وتفرقت في هذا المغرب وانتشروا فيه حتى بلغوا السوس»(26).

وتذهب في هذا الاتجاه أغلب الروايات التي تحدثت عن هذا الأصل، فالبكري يذكر «أن ديار البربر كانت فلسطين من بلاد الشام، وكان ملكهم جالوت، وهذا الاسم سمة لسائر ملوكهم، إلى أن قتل داود جالوت، فساروا إلى بلاد المغرب»(27). ويرى ياقوت الحموي، «أنهم

من الجبارين الذين قاتلهم داود وطالوت، وكانت منازلهم على الدهر ناحية فلسطين، وهم أهل عمود، فلما أخرجوا من أرض فلسطين أتوا المغرب فتناسلوا به وأقاموا في جباله»[28].

أما ابن خلدون -الذي يعد أهم من درس هذه الإشكالية في تلك الفترة- فبعد أن درس جميع الآراء التي ناقشت هذا الموضوع، خلص إلى القول إنهم «من ولد كنعان بن حام.. وأن اسم أبيهم مازيغ وإخوتهم أركيش وفلسطين إخوانهم بنو كسلوحيم بن مصراييم بن حام، وملكهم جالوت سمة معروفة له، وكانت بين فلسطين هؤلاء وبين بني إسرائيل بالشام حروب مذكورة، وكان بنو كنعان وواكريكيش شيعا لفلسطين، فلا يقعن في وهمك غير هذا، فهو الصحيح الذي لايعدل عنه»[29].

تكمن أهمية الرأي الأخير في اتفاقه مع ما أورده بروكوب Procope، حيث يطرح السؤال هل قرأ هؤلاء رأي Procope؟ أم ظهر و انتشر عند سكان المغرب وعنهم أخذ المؤرخون العرب هذه الرواية؟

ليس لدينا دليل حول اطلاع العرب على بروكوب Procope، وليس هناك إشارة تفيد ذلك في ما هو معروف من مصادر، مما يجعلنا نستبعد ذلك، والأرجح أن هذا الرأي كان معروفا ومنتشرا لدى سكان المنطقة بشكل كبير، ونقله عنهم بروكوب Procope والمؤرخون العرب.

والمهم في كل ذلك، أن هذا الاتفاق يجب أن يؤخذ بالاعتبار، وأن يدرس جيدا بدل دمغه "بالأسطورة"، خصوصا أن الفينيقيين قد جاؤوا إلى المنطقة قادمين إليها من فلسطين، مما يجعلنا نتساءل أ لم يكن الفنيقيون على علم مسبق بالمنطقة، وأنهم كانوا على اتصال بها قبل مجيئهم إليها؟ ومن ثمة أ لم تعرف المنطقة هجرات قادمة من فلسطين قبل الفينيقيين؟

الرأي الثاني: ترى أن أصل البربر من اليمن هاجروا إلى المغرب في الأزمنة الغابرة، و قد كان هذا الرأي منتشرا بشكل كبير في المنطقة، إذ ذكر ابن حزم أن طوائف من البربر «ادعت إلى اليمن، إلى حمير، وبعضهم إلى بر بن قيس عيلان»[30].

أما البكري فقد فصل في الأمر وأورد لنا في نصه، الذي عالج فيه هذا الإشكال، رأي البربر حول أصلهم، حيث «زعموا أنهم من أوزاع من اليمن تفرقوا عندما كان من سيل العرم ما كان،

وقيل إن أبرهة ذا المنار تخلفهم بالمغرب، ومنهم من رأى أنهم من قيس عيلان.. قال الكندي: إنهم من ولد بر بن قيس بن عيلان»(31).

و يذهب هانئ بن بكور الضريسي الاتجاه نفسه، وكذا سابق بن سليمان المطماطي، وكهلان بن أبي لؤي، وأيوب بن أبي يزيد، وغيرهم من نسابة البربر حيث يعتبرون البربر فرقتين وهما البرانس والبتر، "فالبتر من ولد بر بن قيس بن عيلان والبرانس بنو برنس بن سفجو بن أبزج بن جناح بن واليل بن شراط بن تام بن دويم بن دام بن مازيغ بن كنعان بن حام وهذا هو الذي يعتمده نسابة البربر»(32).

ولا يخرج ابن أبي زرع عن هذا الرأي، حيث خص به قبائل زناتة، التي تعتبر فرعا من البتر، كما بين ذلك ابن خلدون.فقبل أن يبدأ بالحديث عن قيام دولة بني مرين بدأ بإشكالية نسبهم، فذكر أن بني مرين فخد من زناتة وجدهم الأعلى هو «مادغيس الأبتر، بن بر بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان فهم عرب الأصل»(33).

وقد كان هذا الرأي معروفا لدى الزناتيين والعرب مبكرا، حسب ابن أبي زرع ، أي منذ اللقاء بين الطرفين، خاصة مع حسان بن النعمان، الذي كان أول من ذكر بعروبة قبائل زناتة، أثناء محاولته إقناعهم بالإسلام، فلجأ إلى التذكير بوحدة الأصل، وأنه لا يجوز التقاتل بين الإخوان، قائلا لهم في صيغة تساؤل استنكاري، «يا معشر زناتة أنتم إخواننا في النسب، فلم تخالفونا وتعينون علينا أعداءنا؟ أليس أبوكم بر ابن قيس بن عيلان؟ قالوا بلى! ولكنكم معشر العرب تنكرون لنا ذلك وتدفعوننا عنه»(34)، ولتجاوز ذلك كتب لهم حسان بن النعمان إقرارا شهد فيه شيوخ العرب وشيوخ زناتة، على أنهم إخوانهم في النسب، أبناء بر ابن قيس(35).

وقد انفرد ابن أبي زرع بهذا النص، بحيث لم نعثر على مثيل له في المصادر السابقة، ولكن أهميته تكمن في مدى الإحساس الذي كان منتشرا في صفوف قبائل زناتة بأنهم فرع من القبائل العربية هاجرت إلى المغرب منذ زمن مبكر، ولا يخفى الدور السياسي الذي أداه هذا الرأي في تكوين الدول ببلاد المغرب.

وقد تعرض هذا الرأي إلى النقد والتفنيد، من قبل مجموعة من النسابين والمؤرخين، فاعتبروها مجرد أوهام ليس لها سند تاريخي، وإنما هي من وضع الوضاعين. فابن حزم، الذي يعد من أوائل من بحث في هذا الإشكال، نفى أن يكون البربر من حمير أو ينحدرون من بر بن قيس، «فما علم النسابون لقيس عيلان ابن اسمه بر أصلا، ولا كان لحمير طريق إلى بلاد البربر إلا في تكاذيب مؤرخي اليمن»[36].

وهذا ما يتبناه ياقوت الحموي الذي ينفي بشدة، عن طريق عبدالله بن صالح، أن يكون لقيس بن عيلان ولد اسمه بر مؤكدا أنهم من الجبارين الذين قاتلهم داود وطالوت[37].

كما نجد ابن خلدون يتبنى بدوره هذا الرأي، فقد تتبع كل الآراء ليخلص إلى نفي ذلك ويؤكد كل ما قاله ابن حزم، إلا أنه يستثني قبيلتي كتامة وصنهاجة حيث يرجع أصولهما إلى اليمن دون شك[38].

أما مالك بن المرحل فقد حاول التوفيق بين هذه الآراء فانتهى إلى أن البربر «قبائل شتى من حمير ومضر والعمالقة وكنعان وقريش»[39].

ابتداء من القرن 19، عرف هذا الموضوع نقلة نوعية مع المستشرقين الأوربيين، حيث نجد مجموعة مهمة منهم تحاول الإجابة عن أصل البربر، معتمدة هذه المرة على نتائج الأبحاث الأثرية والأنثربولوجية لتدعيم هذا الرأي أو ذاك.

ويمكن تصنيف هذه الآراء إلى ثلاث مقالات:

المقالة الأولى: تؤكد على الأصل الشرقي للبربر، ودافعت المدرسة الألمانية عن هذا الرأي بقوة، والتي عملت على تدعيم الروايات التاريخية التي رأيناها سابقا بنتائج الأبحاث الأثرية. فهذا موفر Movers يؤكد أن البربر كنعانيون قدموا من فلسطين وهو ما ذهب إليه ديفيتا A.Divitta، وأسفرت أبحاث كالتيمنرKaltbmner وريترRitter عن هندية أصلهم معتمدين على أسماء أماكن تنتشر عبر الهند وشرق إفريقيا ومصر،وقد افترضا أن البربر هم الذين أعطوها اسمهم عند مرورهم منها، أما الدكتور برثولون Bertholon فقد دافع بصرامة على الأصل الإغريقي الإيجي[40].

المقالة الثانية: أكدت على الأصل الأوربي وخاصة الفرنسي للبربر، وتعد المدرسة الفرنسية أهم معبر عن هذا الرأي. فقد استغلت جميع الوسائل الممكنة للتدليل على ذلك، وعلى رأسها نتائج الأبحاث الأثرية، فما أن تعثر على أثر في بلاد المغرب يشبه ما عثر عليه في إحدى البلدان الأوربية، حتى تسرع في تأويل ذلك وإرجاعه إلى الأصل المشترك بينهما.

فعندما اكتشف "الدولمن" Dolmen في بلاد المغرب، سارع الباحثون إلى ربط علاقة مع قرينه المكتشف في إسبانيا وفرنسا.. فهناك علاقة أخوية تربط بينهما لا يمكن إغفالها(41)، وإذا تم إثارة سؤال كيف وصل هذا النصب إلى المغرب؟ يكون الجواب جاهزا، هو هجرة الإنسان الأوربي إلى شمال إفريقيا منذ زمن مبكر وتوطين الحضارة الميغاليتية هناك(42).

فعلى هذه الطريقة الإلحاقية سارت جميع الأبحاث التي تعتمد نتائج حفريات ما قبل التاريخ، فكل ما اكتشف إلا له أصل سلتي وبالتالي فرنسي(43).

المقالة الثالثة: اعتمدت نتائج الأبحاث الأنثربولوجية والأركيولوجية لتحديد موقفها، بعيدا عن الآراء المسبقة والضلالات الإيديولوجية، فحاولت استنطاق المكتشفات لتقرر أن بلاد المغرب عرف استقرار الإنسان منذ حوالي 30 ألف سنة قبل الميلاد(44). حيث عثر على بقايا الإنسان العاقل Homo sapien في كهوف قرب مدينة وهران والرباط، في دار السلطان، ويرجع زمنيا إلى العصر الحجري القديم، وقد أطلق عليه اسم "الإنسان العثيري" وهو مزامن لإنسان Gro-Magnon الذي عثر عليه في عدة مواقع بأوربا، ويعتقد باحثون كثر أن له علاقة ما بإنسان "مشتى العربي" الذي ظهر متأخرا زمنيا عن السابق(45)، وقد اكتشفت بقايا إنسان "مشتى العربي" في عدة مناطق من بلاد المغرب، "وفي قسنطينة ،وفي مغارة "أفالو بورمال" على بعد 30 كلم شرقي بجاية، وكذلك في الواجهة الأطلسية من المغرب الأقصى، وخاصة في مغارة دار السلطان بالقرب من الرباط»(46).

وقد اختلف العلماء في تحديد أصل هذا الإنسان، فمنهم من قال إنه قدم من أوربا، مارا بإسبانيا وجبل طارق ليستوطن في المغرب وجزر الكناري، أما الآخرون فيؤكدون أنه جاء من المشرق. بيد أن كلا الطرفين لا يقدمان لنا دلائل كافية تؤكد مقولاتهما، فيبقى لنا الأصل المحلي الأكثر إقناعا في غياب أي دليل يشير إلى قدومهما من خارج المنطقة[47].

ويبدو أن هذا الإنسان لم يعرف تطورا كبيرا، إذ إنه سيختفي من المنطقة بشكل كبير دون أن ينقرض، مما حدا بكامبس إلى نفي كونه الجد الأعلى أو أصل الإنسان البربري[48].

وتزامن هذا الاختفاء مع ظهور إنسان جديد في المنطقة هو إنسان ما قبل متوسطي أو الإنسان القفصي، الذي عرف تطورا كبيرا، تدل على ذلك بقاياه وآثاره المنتشرة في المنطقة. وتجمع الأبحاث أن لا علاقة له بإنسان مشتى العربي الذي كان منتشرا في الجهة الغربية من شمال إفريقيا، في حين إن الإنسان القفصي ظهر في الجهة الشرقية. وهذا ما دفع الانثربولوجيين إلى تتبع آثاره لمعرفة الجهة التي قدم منها، وبعد بحث طويل اتفق أغلب هؤلاء الباحثين أن هذا الإنسان قدم من المشرق العربي[49]، وأنه يشكل أصل الإنسان البربري وأساسه، وأنهم أوائل البربر حسب تعبير كامبسCamps[50].

إذا كان الإنسان القفصي حسب الباحثين الانثروبولوجيين قد عرف تطورا وانتشارا كبيرين في بلاد المغرب، فإن إنسان مشتى العربي لم ينقرض نهائيا بل ظل موجودا ومستمرا بشكل من الأشكال خاصة في الجهة الغربية والجنوبية من شمال إفريقيا، وإن لم يستطع أن يجاري الإنسان القفصي في تطوره وانتشاره، وهذا ما دفع أحد الباحثين إلى القول إن «أصل الإنسان البربري خليط من إنسان محلي تطور في المنطقة، وإنسان طارئ قدم من الشرق الأدنى، ومكنت الهجرة من اندماجهما واختلاطهما فأنتجا الإنسان البربري»[51].

وهذا ما يرفضه كامبسCamps مؤكدا على أنهما لم يمتزجا في كتلة واحدة، رغم وجودهما في فترة تاريخية واحدة، حيث ظل إنسان مشتى العربي متميزا إلى اليوم عن الإنسان القفصي،

ويذهب إلى القول إن إنسان "مشتى العربي" لا يمثل سوى نسبة ضئيلة من سكان المغرب[52]، لذلك نفى أن يكون هذا الإنسان هو أصل البربر، وإنما يربطهم في الغالب الأعم بالإنسان القفصي أو ما يعرف بالإنسان المتوسطي الأول[53].

ثانيا: التنظيم الاجتماعي للسكان.

قام النسابة والمؤرخون العرب عند دراستهم للقبائل المغربية بتصنيف البربر إلى مجموعتين كبيرتين هما البتر والبرانس تنحدران من جد أعلى هو بر بن قيس، فولد بر مادغس وبرنس[54]، فمادغس المعروف بالأبتر هو جد البتر، أما برنس فهو جد البرانس، إلا أن هذا الرأي غير مجمع عليه فهناك من رأى أن البتر وحدهم أحفاد بر ابن قيس أما البرانس فمن كنعان[55].

إن هذا التقسيم ناتج عن التشابه الكبير لنمط حياة القبائل البربرية مع نمط حياة القبائل العربية، لذلك لم يجد النسابة أدنى صعوبة في تقسيم قبائل البربر إلى جذمين عظيمين كما هو حاصل عندهم[56].

وقد ظهرت آراء حاولت إعطاء تفسير جديد لأصل هذا التقسيم، فنجد مثلا جوتييه يربط هذا التقسيم بنمط عيش هذه المجموعات، فيجعل البرانس السكان الأكثر تحضرا، لأنهم اعتمدوا على الاستقرار في نمط عيشهم، أما البتر فهم البدو الرحل الذين اعتمدوا في نمط عيشهم على الترحال[57].

وقد ذهب جوتييه بعيدا في التحليل عندما جعل العلاقة الصدامية بين الطرفين المدخل الأساس والمحرك الأول لتاريخ المغرب. و يتبنى حسين مؤنس هذا الرأي مع اختلاف طفيف في التفاصيل، فهو يرى «أن البربر ينقسمون إلى طائفتين متباينتين وهما طائفة الحضر الذين يسكنون النواحي الخصبة الشمالية والسفوح المزروعة، وطائفة البربر الرحل الذين يعمرون الصحاري والواحات التي تلي ذلك جنوبا وشرقا»[58]، فبالرغم من مشاطرته لجوتييه الرأي في هذا التقسيم إلا أنه يرفض

جعل كل البتر بدوا وكل البرانس حضرا، كما يرفض جعل الاختلاف في نمط عيشهم مدخلا أساسيا لفهم تاريخ بلاد المغرب.

أما ويليام مرسييه فيفسر تسمية البرانس والبتر تبعا لنوع من اللباس كان منتشرا في المغرب. فالعرب عندما دخلوا المغرب لاحظوا اختلافا في زي قبائل البربر: فمنهم من كانوا يرتدون البرنس الطويل أو البرنس الذي له غطاء الرأس، وهؤلاء أطلق عليهم اسم البرانس (جمع برنس)، ومنهم من كانوا يلبسون هذا الرداء دون غطاء للرأس، وهؤلاء أطلق عليهم العرب البتر (جمع أبتر، بمعنى الناقص أو المقطوع) [59].

إن هذا الرأي الذي تبناه مرسييه ليس له أي سند أو دليل تاريخي يدعمه، وإنما اعتمد في تأويله على مشاهدته العينية، مما يضعف موقفه هذا، على عكس جوتييه الذي يمكن أخذ موقفه بعين الاعتبار، حيث نجده معتمدا على ابن خلدون الذي كان أول من أشار إلى إشكالية البداوة والحضارة وتأثيرها في تاريخ المغرب وإن لم يذهب إلى حد اعتبارها المحرك الأساسي له.

ويبقى أن التفسير القائم على النسب هو الراجح، بحكم أن العرب كلما اختلطوا بشعب إلا وحاولوا البحث عن نسبه وأصله وإرجاعه إلى جد أعلى، كما هو حاصل عندهم، ونظرا للتقارب الشديد القائم بين مجتمعهم القبلي والمجتمع القبلي البربري، فإنهم لم يجدوا أدنى صعوبة في مماهاة التصنيف العام للبربر مع ما كان حاصلا لديهم منذ وقت مبكر.

وفي الأخير نشير إلى أن ابن خلدون قد قام بتصنيف جميع القبائل التي تنضوي تحت هذين الجذمين العظيمين، فقسم البرانس إلى سبع قبائل: أوربة وصنهاجة وكتامة ومصمودة وعجيسة وأوريغة وازداجة، وزاد سابق المطماطي وغيره ثلاث قبائل أخرى وهي لمطة وهسكورة وجزولة.

وأما البتر فينقسم شعبهم إلى أربع قبائل وهم: ضريسة (تنحدر منها قبائل زناتة) ونفوسة وأداسة وبنو لوى وهم لواتة[60].

وقد تناوب على حكم المغرب قبائل من كلا الجذمين، فنجد المرابطين من صنهاجة والموحدين من المصامدة وكلاهما من البرانس، ثم المرينيين وقبلهم المغراويين وهؤلاء من البتر.

المبحث الثالث :التنظيم الديني لبلاد المغرب.

إن الحديث عن الديانات في بلاد المغرب قبل الفتوحات العربية الاسلامية يحيلنا تلقائيا إلى المسيحية، ليس لأن المنطقة لم تعرف غيرها، ولكن بحكم أنها أكثر الديانات التي عرفت انتشارا مهما فيها[61]، ولمساهمتها بشكل كبير في التطور التاريخي للمنطقة، إلى جانب المكانة الرمزية التي كانت تحتلها في تاريخ الديانة المسيحية، إذ أنجبت قساوسة كثر لهم مكانة مقدسة في العالم المسيحي، ويكفي أن نذكر أغسطين الذي يعد أهم رجل دين نافح عن الديانة المسيحية في وجه الملاحدة والمنشقين وكذا أتباع الديانات الأخرى[62]، وكذلك القديس ترتوليان والقديس سبير الذين كانت كنائسهم مزارا للمسيحيين[63].

فقد دخلت المسيحية إلى شمال إفريقيا في القرن الثاني الميلادي، حيث بدأ المبشرون بالدعوة إلى هذا الدين الجديد، ووجدت لها أتباعا منذ البداية. بيد أن القمع سرعان ما لاحقهم، حيث استشهد العديد منهم تحت التعذيب أو الإعدام المباشر، وقد ساهم هذا التنكيل في زيادة المتعاطفين والمؤيدين لهذه الديانة، وهذا ما يؤكده أغسطين عند حديثه حول هذه الفترة قائلا «إن أرض إفريقية مملوءة بأحباء القديسين الشهداء»[64].

فالمكانة الاعتبارية التي تحتلها المسيحية في شمال إفريقيا جاءت من هنا، حيث كان سكان شمال إفريقيا من أوائل من اعتنقوا هذه الديانة ودفعوا من أجلها ثمنا غاليا.

لكن هذا التنكيل سيزول لاحقا مع اعتناق الإمبراطورية الرومانية للمسيحية، حيث ستعمل على توفير جميع الإمكانيات لأتباعها من أجل العمل على نشرها والتمكين لها في الإمبراطورية، إلى أن أصبحت محسوبة كليا على الخط الجغرافي الذي تهيمن فيه المسيحية.

إن هذا التجانس الذي حصل بين الإمبراطورية والمسيحية خدم الطرفين كثيرا، إلا أنه ما لبث أن انعكس سلبا عليهما، ذلك أن هذه الديانة ما لبثت أن عرفت انشقاقات وخلافات عقدية كان يزيد من حدتها اعتناق الأباطرة هذا المذهب أو ذاك، ومحاولة فرضه بالقوة، وتحولت هذه

الانشقاقات في بعض الأحيان إلى ثورات اجتماعية وسياسية(65)، هددت وحدة الإمبراطورية وأدخلتها في صراعات عنيفة ساهمت بشكل كبير في إضعافها وانهيارها أمام الزحف الوندالي، الذي فرض سيطرته على شمال إفريقيا وأدخل معه مذهبه الديني الأريوسي إلى المنطقة، مما زاد في حدة الانقسامات حيث عمل الحكام على نشره بالقوة وفي الوقت نفسه اضطهاد وملاحقة أتباع الكنيسة الكاثوليكية ومصادرة ممتلكاتها(66).

وعندما أعاد الروم البيزنطيون شمال إفريقيا إلى سيطرتهم، قاموا بعملية مضادة، حيث رسموا المذهب الكاثوليكي، وأعادوا فتح الكنائس التي أغلقها الوندال وأرجعوا لها جميع ممتلكاتها(67).

ورافق هذه العملية اضطهاد شامل لأتباع المذهب الأريوسي(68)، وامتد إلى المشركين والدوناتيين وحتى اليهود، الذين اضطروا إلى اللجوء إلى القبائل بعدما فصلوا عن جميع الوظائف العمومية سنة 535م(69).

ومن الغريب أن هذا الانتعاش الكنسي لم تستفد منه السلطة البيزنطية كثيرا، ذلك أن مسيحيي المنطقة كانت عيونهم وقلوبهم معلقة بالبابوية في روما، وليس إلى الكنيسة الشرقية التي كانت مهيمنة في القسطنطينية، ويعود الفضل في ذلك للبابا جريجوري الأكبر، الذي عرفت في عهده الكنيسة الغربية انتعاشا كبيرا، فقد عمل جاهدا على دعم الكنيسة في شمال إفريقيا والتغلغل في أوساط القبائل البربرية، «ففي الوقت الذي كانت فيه الحكومة البيزنطية قد أخذت تنسحب رويدا من المواقع الداخلية، فقد كان القساوسة يحلون محل الحكام، حتى أصبحوا -على مر الأيام- حماة الضعفاء والمظلومين فلم يعد هؤلاء يتوجهون إلى القسطنطينية لبث ظلاماتهم، وإنما إلى بابا روما فهو أقرب إليهم»(70)، فدخل المغرب بذلك في ما يشبه ازدواجية السلط، السلطة السياسية في القسطنطينية والسلطة الروحية في روما.

وقد زاد من تفاقم هذا الوضع تدخل الأباطرة في الصراعات العقدية، كان آخرها مناصرة الإمبراطورة "مارتينيه" -التي كانت وصية على ابنها هرقل الصغير[71] للمذهب المونوثيلي، وما تبع ذلك من اضطهاد لباقي المذاهب الأخرى.

وقد عارض الناس في شمال إفريقيا هذا المذهب، وذلك بزعامة الراهب مكسيم[72] الذي كان يحظى باحترام كبير من قبل مسيحيي تلك الفترة، وما لبث أن أعلنها مدوية بأن «الله لن يرضى عن الإمبراطورية الرومانية مادام هرقل وآله على عرشها"[73]، ووجد في حركته هاته مساندة قوية من قبل البابوية، التي كان يكن لها الاحترام الشديد، وكذا من قبل حاكم إفريقية جريجوريوس، فقد ساهم هذا الأخير بدور كبير في تقوية هاته الحركة، التي ستشكل القاعدة الصلبة لحركته الانفصالية عن السلطة المركزية، وقد «حدث ذلك عندما اعتلى قسطانس الثاني (Caustant) العرش سنة 645 وكان متهما بالقول بالإرادة الواحدة، حيث لم يجد مكسيموس صعوبة في دفع أغلبية الأهالي والقبائل البربرية إلى الثورة ضد الإمبراطور، لفائدة جريجوريوس خاصة وأنها كانت على استعداد دائم لمناهضة السلطة المركزية"[74]. فكان هذا الانفصال محصلة التراكم التاريخي للصراع والشقاق داخل المسيحية، استفاد منه في النهاية حاكم المنطقة.

في الأخير تجب الإشارة إلى أن التركيز على المسيحية ليس لأنها كانت مهيمنة كلية على المنطقة، وإنما للدور الذي أدته في مسار الحضارة الرومانية. فالثابت لدى المؤرخين أن المسيحية في عز قوتها لم تستطع أن تكتسح كل المغرب حيث ظلت بعض الديانات منتشرة، مثل اليهودية التي دخلت إلى المغرب مع "الفينيقيين"، واعتنقتها بعض القبائل مثل «جراوة قبيلة الكاهنة القوية، وكذلك فعلت جماعات من نفوسة في طرابلس حيث ظلت هذه المجتمعات باقية في العهود الإسلامية بعد الفتح»[75]، وقد تعرض اليهود للتعذيب والمضايقات الكثيرة إبان الفترة الرومانية والوندالية والبيزنطية، لإجبارهم على التنصر[76]، وعلى العموم ظلت اليهودية دينا على الهامش،

حيث لم تستطع أن تستقطب شريحة مهمة من سكان شمال إفريقيا، فظلت معزولة في إطار مجموعات متفرقة ومنعزلة.

أما الوثنية فقد عرفها سكان المغرب الأقدمون، حيث كانوا يقدمون القرابين للآلهة، نذكر منها:"الإله ماكورنا، ويوتا، وماكورفوس، وماتيلا، وقد اهتم الفينيقيون ببناء المعابد للإله تاميت، كما كانت عبادة الشمس والقمر وغيرهما من الظواهر الطبيعية منتشرة في أوساط واسعة، إضافة إلى عبادة الأشجار والحيوانات وتقديس الملوك ورؤساء القبائل»(77).

ونجد البكري يذكر عدة نماذج لعبادات وثنية كانت منتشرة في المنطقة، من قبيل صنم من الحجارة كانت بعض القبائل المنتشرة في منطقة طرابلس تقدم له «القرابين ويستشفون به من أدوائهم ويتبركون به في أموالهم»(78).

خلاصة القول إن المنطقة عرفت ديانات متعددة يمكن تصنيفها إلى صنفين: وثنية وتوحيدية، بيد أنها عرفت أساسا بالديانة المسيحية، التي أدت دورا مهما وخطيرا في مرحلة ما قبل الإسلام.

خلاصات :

- ظهور مصطلح المغرب بديلا عن مصطلح إفريقية، التي أصبحت لا تمثل إلا جزءا من المنطقة وهي تونس، وهو تعبير عربي خالص لم يكن متداولا من قبل، وقد ظهر إلى الوجود بعد قبول المنطقة بسيادة الخلافة الإسلامية.
- اختلاف المصادر التاريخية والأبحاث المعاصرة، وخاصة الأنثربولوجية منها، حول أصل البربر، ولكنها تتفق على أن هذه المنطقة استوطنت منذ التاريخ القديم، كما عرفت في نفس الفترة عدة أشكال من الهجرات البشرية خاصة من فلسطين.
- انتشارديانات متعددة بالمنطقة و خاصة المسيحية التي لعبت دورا مهما في التطور الحضاري للمنطقة.

الهوامش

(1) حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ص: 1.

(2) شارل جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ج1، الدار التونسية للنشر 1978، ص: 198.

(3) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص: 2.

(4) البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق عبدالله أنيس الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت 1987م-1407هـ، ص: 316.
ابن عبدالحكم، فتوح مصر والمغرب، تحقيق د. علي محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1425هـ، 2004م، ص: 199.

(5) البلاذري، المصدر السابق، ص: 317.

(6) عبدالملك ابن حبيب، كتاب التاريخ، تحقيق خورخي أغوادي، مدريد 1991، ص: 111.

(7) أبو عمر خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق د. مصطفى فواز، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1415هـ/1995م، ص: 92.

(8) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص: 2.

(9) مثلا نجده عند ابن خياط في قوله «وكتب معاوية بن أبي سفيان إلى مروان بن الحكم، وهو عامله على المدينة أن ابعث عبدالملك بن مروان على بعث المدينة إلى بلاد المغرب»، تاريخ ابن خياط، ص: 129.
وعند الطبري: «وفيها -أي سنة خمس وعشرين- توجيه عبدالله بن سعد بن أبي سرح الخيل إلى المغرب» تاريخ الأمم والملوك، مجلد 2، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 1426هـ/2005م، ص: 594.
أما عند البلاذري فنجد: «لما ولي عبدالله بن سعد بن أبي سرح مصر والمغرب بعث المسلمين في جرائد»،فتوح البلدان، ص: 317.
ابن عبدالحكم: «وأراد عمرو أن يتوجه إلى المغرب، فكتب إلى عمر بن الخطاب» فتوح مصر و المغرب، ص: 199.

(10) ابن خياط، المصدر السابق، ص: 129.

(11) الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق عبدالله الزيدان وعزالدين موسى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1990، ص: 75.

(12) ابن عذاري، البيان المغرب، م1، تحقيق ليفي بروفنصال، دار الثقافة، بيروت، ص:47.

(13) E.F. Gautier : les siècles obscurs du Maghreb, Payot Paris, première tirage, 1927, p. 103-104.

(14) Ibid, p.114.
يدافع جوتييه بشدة عن بقاء التأثير الفينيقي على المنطقة حتى فترة الإسلام، ويؤكد أن استحضار هذا البعد ضروري جدا لتفسير انتشار الإسلام والعربية في المنطقة واندحار المسيحية منها كلية.
Gautier, Op. Cit, p.98, 104,122

(15) البكري، المصدر السابق، ص: 178.

(16) Jean servier, les Berberes, 4e édition, Paris 2007, p. 7.

(17) Bel Alfred, la religion Musulmane en Berbérie, T1, p. 65.

(18) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبدالسلام هارون، دار المعارف، ط6 1999، ص: 495.

(19) ابن خلدون، كتاب العبر،م6، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية 2003، 1424، ص: 104، الناصري، كتاب الاستقصا، ج1، منشورات وزارة الثقافة المغربية، 2001، ص:68.

(20) الحسن الوزان المعروف بليون الإفريقي، وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، طبعة ثانية، 1983، ص: 27.

يجب التذكير هنا أن أصل الكتاب مفقود والمعتمد هنا فقط ترجمات الكتاب التي بقيت منتشرة، ومنها ترجمت إلى العربية، وسيكون العثور على الأصل ذا أهمية قصوى لدى الباحثين.

(21) Encyclopédie de l'Islam, Tome I, 3ème édition, G .P Maisonneuve, 1991, p.1208.

(22) G. Camps, Les berbères : mémoire et identité, seconde édition, 1987, p. 15.

(23) محمد حقي، البربر في الأندلس، طبعة أولى، 1422هـ/2001م، الدار البيضاء، ص: 16.

(24) Jean servier, les berbères, quatrième édition 2007, p. 11.

(25) Camps, les berbères, p. 13, Camps et autre, Islam société et communauté, sous la direction de Ernest Gellnes, Edition du centre nationale de la recherche scientifique, Paris, 1981, p. 9.

Et Ernest mercier, Histoire de l'Afrique septentrionale, Tome Premier, 1888, pXXII

(26) ابن عبدالحكم، فتوح مصر والمغرب، ص:197. ولابن القاضي رواية مشابهة مع اختلاف طفيف فيذكر أن «سبب نزول البربر في أرض فاس والمغرب وإتيانهم من أرض فلسطين من أرض الشام أن ملكها جالوت لما قتله نبي الله داود ومَلَكَ البربر أمر بإخراجهم من بلاد كنعان وفلسطين وأمر بجلائهم إلى جزيرة المغرب فساروا نحو إفريقية ونحو الزاب حتى ضاقت بهم تلك البلاد وامتلأت منهم الجبال والكهوف والرمال، وكانوا على أديان مختلفة وانتهوا إلى البحر الأندلسي، وكانت البلاد قبل البربر للروم فلما دخلها البربر فر الروم أمامهم إلى صقلية.. ثم رجع الروم إلى مدائنهم على صلح من البربر إذ كرهت البربر نزول المدائن فترلوا الجبال والرمال لكونهم أصحاب إبل وبقر وسكان بيوت أدم وشعر، فعادت المدن رومية والجبال والصحاري بربرية»، أحمد بن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور، الرباط 1973، ص:11.

(27) البكري، المسالك والممالك، المجلد الأول، ص: 249.

(28) ياقوت الحموي، معجم البلدان، المجلد الأول، دار صادر، بيروت، 1977، ص: 368.

(29) ابن خلدون، كتاب العبر ،م6، ص: 113.

(30) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، الطبعة الرابعة، 1999، ص: 495.

(31) البكري، المصدر السابق، ص: 249.وفي هذا الإطار يورد صاحب كتاب مفاخر البربر قصيدة ليزيد بن خالد الطنبي يمدح البربر و ينسبهم إلى قيس فيقول:

أيها السائل عن أصولنا — قيس غيلان بني العز الأول
نحن ما نحن بني بر الندى — طراد الأزمان نحار الإبل
وبنو بُر بن غيلان الذي عرف — المجد وفي المجد وجل
وارتدى سيف المجد هلا — وبرودا واكتسى منها حلل
وابتنى المجد وأورى زنده — وكفى كل ذي خطب جلل
إن قيس تعتزي برها — وببر تعتري قيس أجل
ولنا الفخر بقيس أنه — جدنا الأبتر فكاك الإبل
إن قيسا قيس غيلان هم — معدن الحق على الخير دلل
حسبك البربر قومي أنهم — ملكوا الأرض بأطراف الأسل
وبيض تحمل السهام بها — بأيدي من كان على الحق نكل
أبلغوا البربر عني مدحا — حيك من جوهر شعر منتحل

أبي علي صالح بن عبدالحليم الإيلاني،مفاخر البربر، دراسة وتحقيق عبدالقادر بوباية، دار أبي رقراق، ط2، 2008، ص: 197.

(32) ابن خلدون، المصدر السابق، ص: 110.

(33) ابن أبي زرع، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور، الرباط، 1972م، ص: 14.

(34) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص: 17

(35) أما نص الكتاب فهو" باسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما شهد به أنجاد قيس عيلان لإخوانهم زناتة بن بر بن قيس عيلان أنا أقررنا لكم وشهدنا على أنفسنا وعلى آبائنا وأجدادنا أنكم معشر زناتة من ولد بر بن قيس ابن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، فأنتم والحمد لله إخواننا نسبا وأصلا، ترثوننا ونرثكم، نجتمع في جد واحد، وهو قيس عيلان، فلكم ما لنا، وعليكم ما علينا، لم نزل نعرف ذلك ونتوارث علمه وصحته عن آبائنا ومشايخنا وأهل العلم بالتاريخ والمعرفة بالأنساب منا، يأخذه كابر عن كابر، وعادل عن عادل فليعرفوا ذلك ويلزموا أنفسهم وأموالهم معرفته امتثالا لقوله تعالى ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام﴾ واقتدوا بقوله (ص)«واتقوا الله وصلوا الأرحام»، وقد قال (ص)، حين خطب في حجة الوداع: أيها الناس اتقوا الله وصلوا أرحامكم، واحفظوا أنسابكم، والله على ما نقول وكيل». ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص:17

(36) ابن حزم، المصدر السابق، ص: 495.

(37) ياقوت الحموي، معجم البلدان، م1، ص: 368.

(38) ابن خلدون، المصدر السابق، ص: 113.

(39) نفسه، ص: 109.

(40) محمد حقي، البربر في الأندلس، ص: 19.

et Camps, Les Berbères, p. 21.

(41) Ernest Mercier, Histoire de l'Afrique septentrionale, tome premier, Paris, 1888, p. 23.

(42) Camps, Les berbères, p. 22.

(43) Camps, l'origine des berbères, in « Islam société et communauté », édition du centre national de la recherche scientifique, Paris, 1981, p. 9.

(44) محمد حقي، البربر في الأندلس، ص: 20.

(45) Camps, L'origine des berbères, p. 21.

(46) شارل جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ج1، ص: 47،

Charles andré Julien, histoire de l'Afrique blanche, Presse Universitaires de France, Paris 1966, p.11.

(47) Camps, Les berbères, p. 26.

(48) Ibid. p. 28.

(49) Camps, op.cit, p. 29.

(50) Camps, l'origine des berbères, p. 25.

(51) محمد حقي، المرجع السابق، ص: 21.

(52) Camps, Les berbères, p. 29.

(53) عبدالله العروي، مجمل تاريخ المغرب، ج1، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط6، 2000، ص: 43.

(54) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص: 495.

(55) خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج1، ص: 71.

(56) محمود شيت الخطاب، سكان المغرب العربي، مجلة الفكر الإسلامي، عدد 2، 1392هـ/1972م، بيروت، ص: 41.

(57) Gautier : les siècles obscurs, p. 216.

(58) حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص: 6.

(59) نقلا عن سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي، ج1، منشأة المعارف بالإسكندرية، مصر 1995، ص: 90.

(60) ابن خلدون، كتاب العبر، م6، ص. 105.

(61) Georges Marçais, la berbèrie musulmane, édition Afrique orient 1991, p. 35.

(62) شارل جوليان، المرجع السابق، ص: 304. كذلك

J.J.E. Roy, histoire de l’Algérie, troisième édition, p. 76.

(63) سير توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص: 143.

(64) شارل جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ج1، ص: 255.

(65) شارل جوليان، المرجع السابق، ص: 296.

وتعد الحركة الدوناتية أهم معبر عن هذه الظاهرة، فكانت بدايتها خلافا حول انتخاب كاسيليانوس كبير الأساقفة في قرطاج، حيث رفض ذلك مجموعة من القساوسة على رأسهم دوناتوس الأكبر، بيد أن الأمور تطورت بعد أن ساند الإمبراطور قسطنطين، القس الجديد، وإعلانه خروج دوناتوس وأتباعه عن القانون، وباشرت أجهزة السلطة عملية قمع ممنهجة ضد الدوناتيين ما نتج عنه التفاف الغاضبين حول الحركة وإعلانهم التمرد على الدولة، وتصادف ذلك ظهور حركة الدوارين فوقع نوع من التحالف مؤقت بينهما وأصبحت هذه الحركة معبرة عن جميع الساخطين على الدولة. شارل جوليان، ص: 298. سعد زغلول، فتح المغرب العربي، ص: 118، محمد المبكر، شمال إفريقيا القديم منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ط1، 2001، ص: 203.

(66) François Decret, le christianisme en Afrique du nord ancienne, édition du seuil, Paris, 1996, p. 255.

(67) François Decret, op.cit, p. 259.

(68) سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي، ج1، الإسكندرية، 1993، ص: 123.

(69) شارل جوليان، المرجع السابق،ص:372، جان كلود شينيه، تاريخ بيزنطية، ترجمة جورج زناتي، سلسلة نصوص، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، ط1، 2008، ص: 30.

(70) حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص: 37.

(71) حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص: 45.

(72) نفسه ، ص: 46.

(73) شارل جوليان، المرجع السابق، ص: 381.

(74) نفسه، ص: 382.

(75) د. عبدالواحد ذنون طه، الفتح والاستقرار العربي في شمال إفريقيا والأندلس، الطبعة الأولى، 2002، دار المدار الإسلامي، بيروت، ص: 48.

(76) J.T. aieb, encyclopédie berbère V16, Edisud, France, p. 3947.

(77) ناطق صالح مطلوب، تاريخ المغرب العربي، المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2004، ص: 28.

(78) البكري، المسالك والممالك، مجلد2، ص: 184.

علوم تربية







الكتاب المدرسي بين الماضي والحاضر(مقارنات وتوصيات)[1]

سعيدة الأشهب
باحثة في التاريخ الديني
بالجديدة

عرف الكتاب المدرسي المغربي،عدة تطورات وتجديدات،محاولة من الوزارة الوصية أن تجعله رافدا من روافد النجاح،معتقدة أن الخلل هو في الكتاب المدرسي، وصرفت أموال طائلة في هذا الموضوع،وتمت الاستعانة بمجموعة كبيرة من الخبراء عند كل محاولة،لأحمد بوكماخ نجاحا باهرا،وتميز جيل"إقرا"بمستواهم العالي وتفوقهم،رغم وجوده كمورد وحيد للمعرفة ، بحيث لم يكن للتلميذ بديلا عن هذا الكتاب،و لم يكن للاستاذ أيضا بديلا عنه، بخلاف تلميذ المدرسة الحالية له عدة اختيارات،وهناك عوامل أخرى وروافد أخرى للمعرفة،كالقصص والمجلات والتلفاز والانترنيت،ورغم كل هذه الامكانيات يبق مستوى تلاميذ الاجيال الأخيرة أقل من جيل"إقرأ"،فما هي مواطن قوة هذا الكتاب؟وما هي أمكانيات الاستفادة منه حاليا لتصحيح ما آل إليه الكتاب المدرسي من منافسة شرسة،وسوق سوداء أثناء إنجازه ونشره وتوزيعه،بل واختيار هذا الكتاب أو

ذاك رغم حرص الكل على ما جاء في دفتر التحملات،ولكن تبق هناك هفوات في الكتاب الجديد يمكن تجاوزها لا حقا مع الاستعانة بما جاء به بوكماخ سابقا . من هنا ستعمل على القيام بدراسة مقارنة بين كتاب أحمد بوكماخ والمؤلفات الحديثة، مع اقتراح حلول عملية للرفع من مستوى المتعلمين المعرفي واللغوي والثقافي.

لهذا سنستقي الإجابي من كلا الكتابين،الحالي و"إقرأ"خاصة بالنسبة للمستوى الأول والمستوى النهائي .كما سنقترح بعض عوامل النجاح في العملية التعليمية التعلمية التي يجب أن تضاف إلى الاعتبار بالإضافة إلى الكتاب المدرسي.

أما بالنسبة للنصوص التي لا ينساها كل من درسها والتي بصمت شخصية كل من درس من خلال كتاب "اقرأ" .و يرددها الكل الآن وبكل سهولة. وهي نصوص مشهورة يتذكرها كل من قرأ ب"إقرأ".و لا نجد مثيلا لها في الكتب التي جاءت بعدها ،بحث نعتبر نحن هذه النصوص موحدة لنا في كل بقاع المغرب،وان لم اقرا الجزائر والبلدان الاخرى التي درست فإن قلت:أكلة البطاطس، أو أحمد والعفريت، أوالمرضة ، أولعبة الغميضة، أوهيا هيا ...ستتذكروها لا محالة. أما الأجيال الموالية فنادرا ما تتذكر نصا من النصوص .وهذه عينات من النصوص المشهورة من المستوى الاول.

كما امتاز كتاب اقرأ بصفحته الشهيرة التي تضمن حروف الهجاء والتي كان كل من التلميذ والمعلم يجد فيها ملاذه بحيث تكرر باستمرار،أما المعجم الذي توفر عليه الكتاب ،فقد كان قيمة مضافة له ميزته عن غيره. وقربت مفهوم المعجم للمتعلم واسرته التي لم تكن تملك معجما أو منجدا في بيتها. لينتهي المقرر بصور توحي بالعطلة واللعب والمتعة لكل من الذكر والانثى،أما بالنسبة الكتاب الحديث الخاص بالمستوى الأول فقد اعتمد فيه على نظرية تربوية تروم الانطلاق من الكل إلى الجزء .أي من الكلمة إلى الحرف عكسما نهجه بوكماخ حيث انطلق من الحرف إلى الكلمة .

أما بالنسبة للمضمون فقد تميز الكتاب الاول ببساطته وسهولة التعامل معه مع ابتعاد عن الكم والاهتمام بالكيف فمثل درس اللغة في "إقرأ" بالنسبة للمستوى النهائي أو ما يسمى بالشهادة الابتدائية ، يمتد على مساحة ثلاث صفحات من الحجم الصغير، يتضمن نصا قرائيا صفحتين ، ودائما النصوص هي لأعلام عربية أو مسلمة أو عالمية ،والصفحة الأخيرة بها :

1-شرح الكلمات، مع استعمال الالوان، اللون الأحمر الخفيف ، واستعمال لعلامات الترقيم بالألوان .

2- لنفهم النص ، يتضمن أربع أو خمس أسئلة

3-موضوع النص :يوضحه الكاتب باختصار

4- مؤلف النص: يقدم تعريفا مختصرا بصاحب النص ومؤلفاته

5-أسئلة شفهية ، سؤال فكري ،ولغوي، ونحوي، وتصرفي، ثم إملاء يطلب فيه تعليل كتاب كلمة ما.

6-تمارين كتابية :

*أسر الكلمات ، يعطي نموذجا ويطلب الإتيان بمثله .

* كلمات للتمييز: تعطي كلمات وجمل بها فراغ يملأ بهذه الكلمات

* قواعد في عبارات، يترك فراغ في جمل يملأها المتعلم بما يناسب مع الحرص على السلامة اللغوية.

* خطوة في الانشاء: يطلب فيها النسج على منوال فقرة من الفقرات مع تغيير الموضوع .

* خط : يطلب منه كتابة عنوان النص مثلا بخط النسخ خمس مرات .

أما بالنسبة للمقررالنهائي الحالي ، فدرس اللغة يمتد على مساحة ست أو سبع صفحات من الحجم الكبير حسب الاسابيع :تستهل بنوع من أنواع القراءات(الشيء الذي لم يكن سابقا يجزئ بهذا الشكل)فلم يكن التلميذ يعرف سوى قراءة واحدة،والآن قراءة وظيفية،وقراءة مسترسلة،قراءة شعرية...

أما الفهارس فقد عرفت بدورها تباينا كبيرا بين الكتابين. فإذا كانت فهرسة بوكماخ واضحة وخفيفة المضون والمظهر. فإن فهرسة الكتاب الحديث مشحونة شحنا .

مرحلة ما بعد المنار والمفيد :بعد "منار اللغة العربية و المفيد في اللغة العربية "،عمدت الوزارة إلى انفاق أموال طائلة،من أجل الخروج من المشكلة،وتحسين مستوى التعليم في المغرب ، ومن أبرز هذه المحاولات :

Iتجربة استعمال المعلوميات في التعليم :Genie

عملت الدولة على تحديث القطاع، وأنفقت الشيء الكثير في التكوينات والمعدات، وقامت بمجهودات جبارة جد ، وصرفت ميزانيات خيالية من أجل إنجاح العملية ، وقامت

بتزويد المؤسسات التعليمية بكل الوسائل المعلوماتية، وقامت بتكوينات سريعة واستعجالية ، للاستفادة مما وفرته. ولكن من دون طائل يرجى . لأن الوسائل لم تستغل والبرامج لم تحين وفق ما يقتضيه استغلال هذا المجال، والعقليات مازالت رافضة لكن تغيير، وهناك من تعامل مع هذه الوسائل ككتر أو ذخيرة حربية يجب الحرص عليها وإحكام إغلاق الأبواب عليها.

مما جعلها تتعطل عن العمل ،(محاولة مني ومن بعض تلامذتي المتفوقين في المعلوميات لاصلاح حواسيب المؤسسة في اطار نشاط نادي الرواد للبيئة والتنمية المستدامة الذي أشرف عليه بالثانوية التأهيلية بئر انزران بالجديدة) وقد شعرنا بفرحة عارمة حين أصلحنا بعضها كما توضح الصورة 2011

II تجربة الادماج :

هذه التجربة أسالت حولها المداد وكثرت حولها الموائد ، وكثرت الاطماع ، والتلاعبات بالارقام،والتكوينات الواقعية والوهمية و"بالبين بين"كما يقال،ولكن من عمل بها سماها"إخماج وليس إدماج"، وهذا يوضح سخطهم على هذه التجربة، لأنه لم يتم إقناع العنصر البشري بالمشروع، بل أنزل إنزالا ،وفرض فرضا عليهم، و لم يشرك المدرس من أجل الاقتناع بأهمية هذا العمل،في حين أرهق بالوثائق التي يجب التعامل معها،وهي تجربة لها حسناتها ولكن يجب ان يقتنع بها من سيشتغل بها،وليس من سطرها على الأوراق.

لهذا لاحقا يجب الانتباه إلى إقناع الشركاء وليس أمرهم من فوق.

III مرحلة ما بعد هتين التجربتين أو "مرحلة الوفا "

أول ما قام به وزير التربية محمد الوفا،هو إلغاء الادماج،فوضع نفسه ووزارته في ورطة ، وهو الآن في محاولة المزج بين التجربتين الاخيرتين "المترلة بين المزلتين"، وهنا من خلال تجربتي المتواضعة أخبره أنه ما لم يقنع العنصر البشري بجدوى العملية ،وما لم يحفزه ،ويحسسه بأنه هو الذي سينجح العملية فلن تنجح هذه التجربة أيضا أو غيرها.

وعليه أن يسند الأمور لأصحابها فليس هناك مجال الآن لمزيد تضييع لمال الدولة،وتلاعب بمستقبل أبناء المغرب.و(من لا يستعمل الحاسوب في التدريس ، وفي حياته اليومية يعفى من مثل هذه الانشطة).

التوصيات:

الجانب الوطني: ضرورة تمرير نصوص ذات حس وطني في المقررات،لا أن نكتفي ببداية المقرر بصورة لتلاميذ يرددون النشيد الوطني.

الجانب البيئي:ضرورة تمرير نصوص ذات حس بيئي من أجل تربية الناشئة على الاهتمام بالبيئة مع القيام بأنشطة تطبيقية ميدانية،لأنها تحقق نتائج هامة جدا.

مقاربة النوع: ضرورة تمرير نصوص تربي الجيل على المساواة بين الذكر والانثى في الحقوق والواجبات،مع احترام خصوصية كل جنس، في انتظار استيعاب ما سطره الدستور المغربي من حديث عن المناصفة.

حقوق الانسان: تمرير نصوص تلح على ضرورة احترام حقوق الانسان ، مع احترام كل الاجناس والشعوب ، وثقافاتهم وتقاليدهم وغيرها.

الجانب الديني: تمرير نصوص تلح على ضرورة احترام الاديان عامة وديننا السمح خاصة والدفاع عنه .

قراءة في كتاب





كتاب "مؤرخو الشرفاء" لمؤلفه ليفي بروفنصال
قراءة في محتوى الكتاب وقيمته العلمية



محمد العزوزي
ماستر المغرب والمحيط
الدولي، سايس- فاس

تقديم: الكتاب ومؤلفه

جاءت فكرة تعريفنا بكتاب "مؤرخو الشرفاء" في اطار ما لمسنه فيه -أثناء قراءتنا المتأنية- من معلومات قيمة – بغض النظر عن بعض الملاحظات- لمختلف الدراسات التاريخية والمناقبية المغربية التي تغطي فترة زمنية مديدة من تاريخ المغرب. وقد حاولنا في هذه الدراسة اتباع سبيل الاختصار في المعلومات التي أوردها الكاتب دون الاخلال .بمضمون الكتاب، وفي نفس الوقت توثيق مختلف الأفكار التي أوردها المُؤلف في دراسته لتسهيل عملية الرجوع اليها.

فالكتاب الذي نحن بصدد التعريف به، عبارة عن دراسة تحليلية نقدية لمختلف الكتابات التاريخية والمناقبية التي أنتجها المغاربة منذ العهد السعدي وإلى أواخر القرن التاسع عشر، تناول فيها ليفي بروفنصال مناهج الكتابة التاريخية عند المغاربة، وأشار إلى كونها لا تخرج عن مناهج الكتابة



في الشرق، وصنف الأعمال التي اشتغل عليها إلى كتابات ذات الميول التاريخي المحض، وأخرى تخرج عن هذا الاطار، لكنها تضم معلومات قيمة عن المجتمع المغربي وهي كتب التراجم والمناقب.

إن الكتاب موضوع الدراسة نشر في الأصل سنة 1922م باللغة الفرنسية[79]، وتفضّل الأستاذ **عبد القادر الخلادي** سنة 1977 م بتعريبه في حوالي 319 صفحة، مقسمة إلى تقديم وخمسة فصول وخاتمة، وذيّل الكاتب عمله بملحق هام بأهم المصادر التي اعتمد عليها بعض المؤلفين المغاربة في كتابة مصنفاتهم. والكتاب المعتمد من **منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر بالرباط، سلسلة التاريخ عدد 5، تاريخ النشر 1397هـ/1977م.**

أما صاحب الكتاب " إيفارست ليفي بروفنسال"، فهو باختصار من مواليد سنة 1894 بالجزائر، تلقى تعليمه الثانوي بمدينة قسنطينة، والتحق بعدها بكلية الآداب بالعاصمة الجزائرية التي تعرّف فيها إلى الأستاذ **"جيروم كَرْكُوبينو"** الذي حبّب إليه علم التاريخ ودراسة الآثار والنقوش، والأستاذ **"روني باصي"** الذي شجعه على التعمق في دراسة اللغة العربية والاعتناء بالببليوغرافية العربية وبخاصة المخطوطات، نال شهادة الليسانس سنة 1913 م.

شغل ليفي بروفنصال عدة وظائف خلال مسار حياته؛ انتدبه المارشال ليوطي سنة 1919 للعمل في **معهد الدراسات العليا المغربية** فاشتغل فيه أستاذا ثم مديرا في ما بين 1925-1935. كما كلف قبل ذلك (1923) بوضع قائمة لمخطوطات مكتبة الإسكوريال الاسبانية، وانتدب كذلك في سنة 1927 للعمل أستاذا لتاريخ العرب والحضارة الإسلامية بكلية الآداب الجزائرية ، فقسم وقته بين الرباط والجزائر، ثم بينها وبين معهد الدراسات الإسلامية في السوربون بفرنسا حيث كان يدرّس تاريخ العرب وكتاباتهم.

استُعفي ليفي بروفنصال سنة 1935 م من مهمته الإدارية بالرباط فتفرّغ للتدريس والتأليف. وخلال الحرب العالمية الثانية قدّم ليفي بروفنصال الخدمة العسكرية حيث جُنِّد في القيادة العليا لشمالي افريقيا، لكن سرعان ما أحالته حكومة فيشي على المعاش. وفور انتهاء الحرب ألحقه وزير التربية الفرنسية بديوانه. كما عيّن في سنة 1945م أستاذاً للعربية والحضارة الإسلامية بجامعة باريس، ووكيلاً لمعهد الدراسات السامية في الجامعة نفسها، مع العلم أنه كان حتى عام

79- اعتمدنا في هذه الدراسة على الترجمة العربية للكتاب.

1939 م مديراً للمطبعة الفرنسية لدائرة المعارف الإسلامية، وفي اطار انشغالاته العلمية أنشأ ليفي بروفنصال **"مجلة أرابيكا"** للدراسات العربية سنة 1945 م.

كانت وفاة ليفي بروفنصال في غشت 1956، مخلفا وراءه العديد من الدراسات التي تراوحت بيت التأليف والتحقيق للمخطوطات العربية عامة والمغربية خاصة نذكر من أعماله على سبيل المثال لا الحصر:

-الحضارة العربية في اسبانيا

-مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية

-نخب تأريخية جامعة لأخبار المغرب الاقصى

محتوى الكتاب :

يتضمن كتاب "مؤرخو الشرفاء" خمسة فصول غير متساوية من حيث عدد صفحاتها[80]، إلا أن ذلك لم يمنع من تقسمنا للكتاب إلى محاور متلازمة تسهيلا للتعريف به، وفهم محتوه المعرفي دون الإخلال بمضمونه.

I. منهج الكتابة التاريخية عند المغاربة خلال الفترة الحديثة:

يرى ليفي بروفنصال أن العلماء المغاربة كانوا لا يعيرون اهتماما كبيرا لدراسة تاريخ بلادهم، بل يصرفون كامل سنوات تحصيلهم العلمي في دراسة المظان المتعلقة بالنحو وقواعد اللغة وتعاليم الدين الاسلامي التي دأب سلفهم على الاشتغال بها، واستظهارها عن ظهر قلب، وكان هؤلاء العلماء المتضلعين في العلم يعتبرون الاهتمام بالتاريخ من الاهتمامات الدنيوية وربما المتجاوزة. وبذلك ذهب ليفي بروفنصال إلى اعتبار الفئات ذات الميول إلى الاهتمام بالتاريخ، بمثابة فئة ثائرة على البرامج التعليمية المعتمدة في التحصيل العلمي. حيث يعبر عن ذلك بقوله : " إن المؤرخين القلائل الذي عاصروا أولائك العلماء الجامدين كانوا بدون شك من الثائرين على الأقل، من الأدباء المشكوك في صلاحهم وخيارهم، وذلك لإعراضهم عن المجالات التعليمية المقررة، وإقبالهم ولو لمدة قصيرة على المواضيع التاريخية "[81].

وقد عمل العلماء المهتمون بالتاريخ للفت الأنظار إلى أهمية هذا العلم، وتبرئ ذمتهم من مجموع الانتقادات التي تشكك في صلاح عقيدتهم بتوظيف مجموعة من الحجج في مصنفاتهم

[80]- أنظر الرسم المبياني لعدد صفحات الكتاب، ضمن محور قراءة " كرافيكية " للكتاب.
[81]- ص، 39.

التاريخية قصد تبيان فوائد علم التاريخ وبحثا له عن حيز من الوقت ضمن حصص العلوم الاسلامية، ومن بين الحجج التي استندوا عليها نذكر:

-أن القران الكريم والسنة النبوية يتضمنان أخبار ووقائع الأمم القديمة وأحوالهم الدينية والدنيوية.

-استدلالهم بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ضمن مصنفاتهم لتبيان ما في التاريخ من فوائد جليلة.

-الاستدلال بوقائع تاريخية مشهورة كانت لها أهميتها التاريخية بالنسبة للعالم الاسلامي.

-حجج عاطفية متعلقة بأن حب التاريخ هو في نفس الآن حب للوطن.

ويرى بروفنصال أنه رغم اشتغال بعض الإخباريين المغاربة (أكنسوس، ابن عسكر، الافراني، الزياني...) بفن التاريخ وتأليفهم لمصنفات ذات فائدة تُذكر، إلا أنهم لم يجتهدوا في اعطاء مفهوم للتاريخ، بل إن محاولة بعضهم اقتصرت على نقل ما تفضل به ابن خلدون في الفصل الأول من مقدمته للتعريف بالتاريخ. وظل هؤلاء الإخباريين عاجزين كذلك عن الخروج بالتاريخ من مناهج دراسة العلوم الاسلامية، والرقي به إلى علم مستقل بذاته. ولا يتورع ليفي برفنصال في ارجع علت هذا التوجه إلى تشدد المغاربة في "المحافظة على التقاليد والنواميس السلوكية "[82].

1) الفنون التاريخية

أ- تاريخ الدول والسلالات المالكة:

ب- يقسم ليفي بروفنصال العلماء الذين أهوتهم كتابة التاريخ المغربي إلى نوعين :

ت- **النوع الأول:** هم المؤرخون الذي عملوا على تمجيد الحكام والأمراء وازدهار الدولة في عهدهم فاتصفت كتابتهم بالتحيز ومجانبة الصواب، حيث كان المخزن يجزل لهم الصلات والعطايا ويتتبع مصنفاتهم ويعجب بها لكونها تستعرض تاريخ حياتهم ومنجزاتهم وسلالاتهم الحاكمة، وفي هذا الاطار يدعون بروفنصال لأخذ الحطة والحذر في التعامل مع هذه المظان. لكن رغم هذه الكتابات يرى ليفي أن السلاطين السعديين والعلويين لم يكن لهم ضمن موظفيهم مؤرخون رسميون، باستثناء احمد المنصور السعدي.

---

[82]- ص، 47.

ث- **النوع الثاني:** وهم المؤرخون الذين تعرضوا لهفوات السلاطين والحكام وانتقدوا سياستهم في الحكم، لكن يرى أنه من الصعوبة العثور على مصنفاتهم لكونها أتلفت، أو ظل النزغ القليل منها؛ يذكر هنا كتاب للأمير المولى الحسن بن السلطان سيدي محمد بن عبد الله (1757-1789) الذي لم يتورع في تأليف كتاب " مملوء بالنقد واللوم المرير و لم يجد حرجا في تسجيل جميع ما شاهد من نقائص الأسرة الحاكمة التي ينتمي إليها ومنها أخطاء حكومة والده (السلطان سيدي محمد بن عبد الله)"[83]، كما قدم مثالا آخر لهذا النوع من المؤلفين وهو الضعيف الرباطي الذي "أرخى العنان لقلمه".

ج- في ختام هذه المحطة يدعونا ليفي بروفنصال إلى أ ن " تدوين التاريخ السياسي يتطلب من المشتغلين به قسطا وافرا من الحذر والحيطة لتحاشي المزالق وتجنب المعاطب "[84]، ويرى بأن كتابة التاريخ على هذه الشاكلة يتميز بطابعه السياسي، ويؤرخ إلى أهل البلاط والسلالات الحاكمة، وبالتالي يغفل تاريخ البلاد الداخلي الشعبي الذي يدور حول زوايا المرابطين والطرق الدينية التي خصصت لها كتب التراجم حيزا كبيرا من صفحاتها.

ح- كتب التراجم

تشكل كتب التراجم حسب ليفي بروفنصال مكانة سامية في آداب العا لم الاسلامي، لكونها تتصف بقدر من التحقيق، ولكونها أيضا كتبت للتعريف بعلماء وصلحاء المغرب، والأكثر من ذلك توفر لنا معلومات تتعلق بأحوال المجتمع المغربي ومجالاته الطبيعية، وتفيدنا كذلك في التعريف ببعض الأسر العلمية المترجم لها التي كان لها دور لا يستهان به في تاريخ المغرب. هنا يأبى ليفي بروفنصال إلا أن يستدل بالعائلة الفاسية التي " كانت ركنا من أركان الطريقة الشاذلية بالمغرب ومنبتا خصبا لعلماء اشتهروا بالتقوى والمعرفة"، كما ينوّه ليفي بالأهمية العلمية كذلك لكتب الفهارس التي وضعت خصيصا من طرف "أكابر العلماء ليعرّفوا بشيوخهم وبالكتب التي قرؤوها أو فسروها وعلقوا عليها منذ شبابهم"[85]، كما يذّكر كذلك بأهمية كتب الرحالات والنوازل والحوليات وغيرها من المصادر الدفينة، إلا أن ليفي رغم اعجابه بقيمة هذه المصادر يدعو الباحث في الأخير إلى التعامل مع هذه المصنفات بالنقد والتبصر.

83- ص، 51.
84- ص، 53.
85- ص، 56.



2المناهج التاريخية

يرى ليفي بروفنصال أنه في الوقت التي قطعت فيه دول أروبا أشواطا كبيرة في تطور مناهج الكتابة التاريخية ظل المؤلفين المغاربة " يقتفون أثار أجدادهم في كافة المجالات الأدبية "، إذا يذهب ليفي إلى أن " طريقة الكتابة لدى المؤرخين المغاربة بقيت هي نفس الطريقة التي عرفت في القرون الوسطى، بالشرق والغرب والتي وضعها أسلافهم "(86). فما يغلب على كتابات هؤلاء المؤرخين "التقليديين" حسب ليفي " هي أنها تنحصر في نطاق الحدود المغربية المعروفة، بحيث يمكن القول أن دورهم التحريري كان مجرد إجابات عن أسئلة تقليدية ذات صبغة اسلامية قوية "(87). من هذا المنطلق يرى بروفنصال أن كتابات هؤلاء المؤلفين تضم عدة هفوات نظرا لسوء تعاملهم مع المصنفات التي استقوا منها معلوماتهم، ومن بين هذه الهفوات يذكر:

- إذا كان من الممكن الوثوق بالمعلومات التي حملتها كتابات المؤرخين المغاربة خلال الأربع قرون السالفة، فإنه يصعب الوثوق باطلاعهم على كل المصنفات المثبتة في مؤلفاتهم.
- بالنظر إلى تأخر ظهور المطبعة العصرية بالمغرب(88) فإنه كان يصعب على المؤرخين إثبات المصادر والمراجع المعتمد عليها بطريقة علمية صحيحة، الأمر الذي كان يقف عائقا أمام رغبة الباحث في الوصول إلى هذه المصنفات بعينها.
- إن امتلاك بعض الأسر لمصنفات أدبية أو تاريخية يجعل الباحث أمام صعوبة كبيرة في الحصول عليها. ولعل هذه العلة راجعة حسب صاحب مؤرخو الشرفاء إلى عدم صيانة الكتب والمحافظة عليها؛ " إننا لا نكاد نعرف في هذا الوطن، من يشمل الكتب المستعارة بالحظ والرعاية، حتى يرجعها إلى أصحابها بدون بتر و لا مسخ "(89).

إذا كان ليفي بروفنصال يقدم انتقادات إلى هذا الصنف من الكتابات، فما هي الطريقة التي اثارت انتباهه لدى المؤلفين المغاربة ؟

في هذا الصدد يقدم ليفي بروفنصال طريقتين أساسيتين اعتمد عليها الكتاب المغاربة في مؤلفاتهم، **أولها:** أنهم كانوا يسجلون في كتبهم جميع المعلومات غير المتناقضة دون إشارة إلى

---

[86]- ص، 57.
[87]- ص، 57.
[88]- هناك اختلاف بين الباحثين حول تاريخ ظهور المطبعة بالمغرب، إلا أن جرمان عياش يرجع تاريخ دخولها إلى المغرب الى سنة 1865، أنظر:
جرمان عياش، **دراسات في تاريخ المغرب**، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، الدار البيضاء، ط، 1،1986، ص:132.
[89]- ص، 59.

مصدرها، **وثانيها:** كونهم يثبتون النصوص المتعلقة بحادثة أو قضية ما حسب ترتيبها الزماني مع ابداء أحيانا بعض الملاحظات الذاتية حولها، الأمر الذي يجعل معلومات الكتاب تظهر في صورة رواية تاريخية (قال فلان...وأقول...).

يتساءل أليس هذه الطريقة هي نفسها كانت متبعة في الكتابات الأوربية ؟ يُبرّر ليفي جوابه من جهة أخرى بأن " الرواية التاريخية الاوربية لا تتسم بنفس الرتابة، وقلما تعتمد على نصوص طويلة أو على استشهادات مكررة"[90]، بل لاحظ أن المصنفات المغربية تفتقر إلى الآراء الشخصية للمؤلف في ما يقدّمه من معلومات، وفي هذا الصدد يدعم ليفي ملاحظاته بما أشار اليه الأستاذ **"كارا ذو فو"** في الجزء الأول من كتابه **"مفكرو الاسلام"** حيث يقول : " إن المؤرخين العرب يجمعون الأثار مروية ويسجلونها الواحد تلو الاخرى، ويتركون للقارئ حق الفصل في قيمتها، فعلى هؤلاء (القراء) أن ينتقدوا إن حلا لهم ذلك، أما المؤرخ فليس إلا من القائمين بالإعلام"[91].

يشير ليفي بروفنصال إلى ظاهرة أخرى اتسمت بها مصنفات الكتاب المغاربة وهي تشبه في شكلها الطريقة الكلاسيكية في الكتابة الأدبية والتي كانت تعرف بـــ"الاستدراك" أو "الرجوع عن الحكم"، فبعدما أن يكون المؤلف قد انتهى من كتابة مؤلفه، وأصبح في متناول القارئ، قد يعثر صدفة أو يتوصل إلى كتاب كان يصعب الحصول عليه من قبل، وبعد مطالعته قد يتبين له أنه من المفيد الاشارة إلى نقاط أغفل ذكرها فيستدرك تلك الهفوات بالإشارة إلى تلك المعلومات المستقاة في هامش الكتاب.

أهم ما يسجله ليفي بروفنصال في حديثه عن المناهج التاريخية عند المغاربة، هو أنه بعكس مصنفات الإخباريين، نجد أن كتابات اصحاب التراجم تتسم بنوع من الدقة والضبط فيما يخص نقل المعلومات المستقاة من المصادر المعتمد عليها. بل إن ليفي لا يتردد في دعوة الباحثين إلى الرجوع إلى كتب التراجم كلما خامرهم شك في صحة ما يورد في مصنفات الإخباريين.

II. الرجال ومصنفاتهم

1) مؤرخو الدولة السعدية :

من أهم مؤرخي الدولة السعدية الذين أشار إليهم ليفي برفنصال نذكر ما يلي:

---

[90]- صص، 60-61.
[91]- ص، 61.

1- **أبو العباس أحمد المنجور (926-995 هــ):** من كبار علماء فاس درس في الحاضرة الادريسية على يد مشاهير علمائها، وتفقه على يده مجموعة من العلماء نذكر منهم المؤرخ ابن القاضي، وصاحب نيل الابتهاج أحمد بابا التنبكتي، والسلطان ابو العباس احمد المنصور السعدي.

2- **عبد العزيز الفشتالي (1549-1621 م):** تفيد كتب التاريخ والتراجم حسب ليفي أن أحمد المنصور كلف كاتبه عبد العزيز الفشتالي " بتدوين حوليات يضمنها كل أمر ذي شأن مما قد يقع في المغرب طيلة عهده"[92]، إلا أننا لا نعرف الشيء الكثير عن كتابات الفشتالي باستثناء "مناهل الصفا في أخبار ملوك الشرفاء" الذي ضاعت بعض مجلداته، حيث ذكر المقري أنه يقع في ثمانية مجلدات وقد استعمله صاحب نزهة الحادي "وذكر ابن القاضي أنه يشتمل على تاريخ دولة الأشراف السعديين منذ نشأتها حتى عهد المنصور"[93].

3- **أبو عبد الله محمد الفشتالي وأبو الحسن علي التمكروتي :** عُرفت الشخصية الأولى باهتماماتها بالتاريخ والشعر حيث خلفت أرجوزة تاريخية عنوانها، "الوفيات"، ورافقت الشخصية الثانية في سفارتها إلى الخليفة العثماني سنة (1594-1595م). وقد خلف علي التمكروتي سفير احمد المنصور إلى القسطنطينية، كتابا عن رحلته اسماه " النفحة المسكية في السفارة التركية".

4- **شهاب الدين أبو العباس أحمد المعروف بابن القاضي (1552-1616م):** تلقى ابن القاضي العلم عن والده وعن جملة من مشايخ المغرب والمشرق، وتقلد بعد ذلك خطة القضاء بسلا، إلا إنه سرعان ما عُزل عنها واشتغل بالتدريس. خلّف ابن القاضي أربعة عشر كتابا؛ أربعة منها تراجم أدبية، وثلاثة مصنفات تاريخية. هي المنتقى، ودرة السلوك، وشرحها.

✓ كتاب **"المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور":** يحتوي على ثمانية عشر فصلا للتأريخ للدولة السعدية، بل خصيصا لشخصية أحمد المنصور السعدي اذ ما لبث ابن القاضي أن عرض في كتابه مناقبه وخصاله وصفاته الخلقية اعترافا بجميله، ومعلومات تاريخية اخرى تمس جانبا من الفترة المؤرخ لها، حيث تحدث ابن القاضي عن ميلاد احمد المنصور بفاس وعن ظرفية

92- ص، 80.
93- ص، 81.



تقليده الحكم بعد معركة وادي المخازن في 4 غشت 1578، وما أعقبها من فتوحات تمت على يد جيش المنصور إلى السودان وتوات وتيكورارين ...

- ✓ **درة السلوك فيمن حوى من الملوك:** وهي عبارة عن أرجوزة تاريخية تقع في أربعمائة بيت، خصها لتاريخ الدول الإسلامية، وخاصة الأسر الحاكمة بالمغرب إلى فترة زمانه.

5- **محمد الصغير الافراني (1670-1738 م):** يعتبر الإفراني من مواليد مدينة مراكش درس بها في بداية عهده ثم التحق بجامع القرويين حيث تلقى العلم على جملة من مشايخها، وقد خلف الافراني مجموعة من الكتب القيّمة من بينها كتابه " **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي"** الذي يعتبره ليفي بروفنصال "أكمل تاريخ للدولة السعدية بعد مناهل الصفا للفشتالي".[94] وقد جعل الافراني كتابه نزهة الحادي في واحد وثمانين فصلا بدأها بنشأة الأسرة السعدية وتعرض في أخرها لبداية الأسرة العلوية إلى عهد المولى اسماعيل، وبذلك يكون الكتاب يغطي فترة قرنين من الزمان، وإن كان عنوانه يوحي على اقتصاره على قرن واحد (القرن الحادي عشر). واعتمد محمد الصغير الافراني في كتابه على ثلاثة واربعين مصدرا، بعضها يتصل بالتاريخ العام والبعض الأخر بتاريخ الأسرة السعدية، كمناهل الفشتالي والمنتقى المقصور ودرة الحجال وغيرها لابن القاضي.

يخلص صاحب "مؤرخو الشرفاء" في تحليله لنزهة الافراني إلى القول أن صاحبها يعتبر " المؤرخ المغربي الوحيد في عصره الذي ترك لنا خلاصة عن حكم السلاطين الثلاثة الأولين من الأسرة العلوية، فكتابه النزهة يتسم بالجدية وجدير بأن يعتبر وصلا لروض القرطاس ولكتاب العبر"[95].

6- **مؤلف مجهول كاتبه:** يرجح ليفي انطلاقا من سرد المؤلف المجهول في كتابه "تاريخ الدولة السعدية التاكمادرتية"[96] للأحداث التي شهدتها هذه الاخيرة، أن مؤلفه هو فاسي النشأة إلا أنه يصعب الحديث عن تاريخ تدوينه للكتاب، وعن سببه في غض الطرف عن محاسن الدولة والاطناب في ذكر مساوئها، لهذا لاحظ ليفي أن صاحب نزهة الحادي الذي استقى من الكتاب بعض معلوماته يتعامل مع مضمونه بحذر كبير. أما الفترة الزمنية التي يغطيها كتاب تاريخ الدولة السعدية التاكمادرتية فيمكن تلخيص خطوطها العريضة في ما أشار إليه ليفي بقوله أن الكتاب :

94- ص، 93.

95- ص، 96.

96- حقق هذا المخطوط وقدّمه الاستاذ عبد الرحيم بنحادة، **تاريخ الدولة السعدية التاكمادرتية**، دار تينمل للطباعة والنشر، ط، 1، 1994.

"عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات من الثورات والمؤمرات والاغتيالات والمحاصرات والغزوات التي توالت بالمغرب خلال القرن 16م، استهله (الكاتب) بذكر أخبار السلطان مولاي محمد الشيخ الملقب بالأصغر، وهو يشتمل على معلومات دقيقة عن اغتيال العا لم عبد الواحد الونشريسي وعن حصار محمد الشيخ لمدينة فاس وانتصاره على أحمد الوطاسي، وعن فرار عم هذا الأخير الأمير ابي حسون إلى الاندلس ثم إلى الجزائر ورجوعه إلى فاس صحبة فصائل من الجيش التركي، وأخر الأمر عن موت ابي حسون وعن استيلاء مولاي محمد الشيخ على حاضرة فاس وقتله للعالم ابي محمد الزقاق "[97]، ويرى ليفي أن صاحب الكتاب حاول أن يفرد كتابه لمولاي محمد الشيخ السعدي اذ لم يخصص لخلفائه إلا نتفا ضئيلة من الأخبار.

2) مؤرخو الدولة العلوية حتى حكم مولاي الحسن

يرى ليفي بروفنصال أن مؤرخي الدولة العلوية لا يتعدى عددهم من أرخ لتاريخ الأشراف السعديين، وأن عدد الكتب حول تاريخ الاسرة العلوية "لا يتجاوز عدد أصابع اليد"[98]، ففي ما بين أوائل القرن 18 وأواخر القرن 19 لا يوجد سوى بعض المؤرخين القلائل يبقى أهمهم مؤرخين اثنين عاصروا القسم الأكبر من الأحداث التي تكلما عنها، وهما أبو القاسم الزياني ومحمد أكنسوس.

1) **أبو القاسم الزياني:** كثيرا ما يصفه ليفي بـــ "مؤرخنا"، فهل هو من المعجبين بأفكاره إذ خصص له صفحات طوال أم بقيمة مؤلفاته العلمية ؟

يقدم ليفي بروفنصال في البداية ترجمة وفيّة لحياة أبي القاسم الزياني، وبعدها يشير انطلاقا من سياقه للأحداث إلى أن الزياني تقلب - بعد أن أتم دراسته خاصة بفاس وأدائه لفريضة الحج رفقة والديه- في العديد من الوظائف المخزنية منذ عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله (1757-1790)، كانت حياته خلالها متقلبة بين الرضى والاستياء، فمن ولاية على القبائل البربرية وقيادة الجيوش، اختير الزياني لرحلة سفارية إلى الاستانة سنة 1786 التي قاضى بها في رحاب سلطة الخليفة عبد الحميد بن أحمد العثماني (1774-1789) حوالي مائة يوم. وقف خلالها على مختلف الأجهزة الادارية للدولة العلية، وقد تحدث الزياني حسب ليفي عن هذه الرحلة بإسهاب في كتابه " الترجمانة في أخبار المعمور برا وبحرا " وقد خلف الزياني حسب ليفي اثنتا عشر مؤلفا من

97- ص، 98.
98- ص، 101.

أهمها: البستان الظريف، والترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب، الذي كما يستنتج من عنونه جعله تاريخا عاما "من بدء الخليقة إلى القرن 13هـ/19م" .

لا يخفي ليفي بروفنصال إعجابه بمؤلفات الزياني خاصة الترجمان والبستان الظريف لما رأى فيهم من التحيز الكبير لصاحبهم، بعيدا عن كل ألوان التزلف والتملق على الحكام.

2) محمد أكنسوس: (1796-1877): ينتمي اكنسوس إلى أصول سوسية، درس بالقرويين وتاقت همته بعد التحصيل العلمي إلى الوظائف المخزنية، فمن كاتب في الإدارة المركزية إلى وزير في العهد السليماني. عايش اكنسوس ثلاثة سلاطين مغاربة ابان القرن 19 ؛ كان أخرهم هو سيدي محمد بن عبد الرحمان، وقد كان أكنسوس أديبا شاعرا أكثر منه كاتبا مؤرخا، إلا أن ميله إلى الجانب الأول لم يمنعه من وضع كتاب في التاريخ أسماه: " الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولاي علي السجلماسي" وقد أعطى ليفي لهذا المؤلف تقسيما يسهّل عملية هضمه على مستوى هيكل الموضوع، حيث قسمه إلى قسمين: **الأول** من بداية اشراف سجلماسة إلى فترة المولى سليمان، هنا اعتبر ليفي بروفنصال أن أكنسوس انتحل الشيء الكثير من نزهة الافراني ومن المؤرخ الزياني، بل نقل منهما فصولا بأكملها وأحيانا دون الاحالة الى أصحابها. أما **القسم الثاني:** فيبدو أنه ذو أهمية، فمؤرخنا كان معاصرا للأحداث التي كتب عنها وربما أحيانا مشاركا في بعضها.

أما بخصوص القيمة العلمية للكتاب، فلا شك أن مؤلفه أصبح عرضة لوبيل من النقد خاصة من علماء أهل بفاس، لما أبدى فيه " من الحقد على فاس عاصمة الشمال المغربي، لحزازات شخصية بقي أثارها في نفسه منذ أن حبس فيها "[99] في عهد المولى سليمان، كما أن عرضه للأحداث حسب ليفي تتسم بكثير من التحيز والتملق والتزلف لسلطة الحاكمة.

3) محمد الضعيف الرباطي (1752-1818): يبدو أن ليفي بروفنصال لم يتسنى له الاطلاع الكامل على مؤلف الضعيف الرباطي، اذ لم يخصص له إلى صفحتين وبعض الأسطر، واكتفى في الحديث عنه بإشارة مستقاة من لدن الأدباء المغاربة، ومن جملة ما ساقه في هذا المضمار أن تاريخ الضعيف ليس إلا نسخة موسعة شيئا ما، لكتاب لم ينتهي من تأليفه أحد الكتاب الرباطيين الأندلسي الأصل وهو الحاج محمد المسناوي مورينو المتوفى في أواخر

[99]- ص، 144.

1792م. واكتفى أيضا بالإشارة إلى أن تاريخ الضعيف يغطي الفترة الممتدة من بداية الأسرة العلوية إلى غاية العهد السليماني.

وتجدر الإشارة إلى أن كتاب الضعيف تم تحقيقه من طرف الأستاذ أحمد العماري، ونشر سنة 1986 في نسخة أنيقة في حدود 401 صفحة.

4) كتاب مجهول مؤلفه: عنوان الكتاب هو:" الدر المنضد الفاخر فيما لأبناء علي الشريف من المحاسن والمفاخر"، ويرجح ليفي أن الكتاب ألف فيما بين (1833-1866)، وأن مؤلفه هو أبو عبد الله محمد بن عبد القادر ابن أحمد الكلالي المعروف بالكردودي الادريسي المتوفي في 29 يونيو 1852م. وأن هذا الكتاب لا يضم إلا معلومات مماثلة في الغالب لتلك التي في نزهة الحادي وفي نشر المثاني.

إننا لا نتفق مع ليفي برفنصال في الافتراض الذي قدمه حول تاريخ كتابة المؤلف، انطلاقا من كون مؤلفه أورد في أخر مصادر كتابه كتاب الزياني و لم يُشر قط إلى كتاب اكنسوس، وان الفترة التي ألف فيها ما بين: (1833-1866)، في حين ليفي يشير الى ان المؤلف توفي سنة 1852، أي قبل أربعة عشر سنة من الفترة التي حددها (1866)، كما أن أبو القاسم الزياني توفي خلال السنوات الاوائل من حكم عبد الرحمان ابن هشام، وأن محمد أكنسوس استمر حتى سنة 1877م، أي أنه كان لازال على قيد الحياة فيما بين:(1833-1866). وبالتالي لا يمكن الترجيح انطلاقا من الجزئيات المشار إليها أعلاه، أن الكتاب ألف ربما بعد وفاة الزياني بقليل، لكونه لم يشير إلى أكنسوس، لأن هذا الأخير ربما لم يكن أنهى كتابه في الفترة التي صدر فيها كتاب "الدر المنضد" وربما يكون صاحبه لم يتمكن من الحصول على نسخة من كتاب أكنسوس.

III. أصحاب التراجم: كتب المناقب وتراجم الأسر الشريفة ورجال العلم

فيما يتعلق بكتب التراجم يشير ليفي إلى أن " الاعتناء بهذا اللون من الأدب بدأ يتجلى منذ أن تربع سلاطين الدولة العلوية الأولون على العرش المغربي"[(100)]، لذلك أخذ ليفي على عاتقه عملية دراسة هذه المظان وفق ترتيب زمني لإصدارها. حيث أعطى نظرة عامة عن كتب المناقب المؤلفة قبل القرن 16 والتي اهتمت بالترجمة لصلحاء وعلماء المشرق والمغرب، ومن هذه الكتب كتاب **"التصوف إلى رجال التصوف"** للتادلي المعروف بالزيات، وابتداء من القرن المذكور اعتبر

[100] - ص، 150.

ليفي أن **"دوحة الناشر"** لابن عسكر كانت قفزة نوعية في مجال كتب التراجم (ترجمة لأتباع الطريقة الجزولية)، كما يتحدث عن مصنفات أخرى ألفت خلال الفترة الوسيطية ك**"الروض الهتون"** لابن غازي، الذي اعتبره رغم صغر حجمه من الكتب القيمة حول تاريخ مدينة مكناس وصلحائها.

كما تناول ليفي بالدرس والتحليل كتب المناقب المصنفة خلال أواخر القرن 16 وبداية القرن 17م، ومن بين الكتاب الذين اشتهروا خلال هذه الفترة وأشار إليهم ليفي نذكر أوائل الأسرة الفاسية كأبي المحاسن يوسف وابنه احمد الفاسي وابنه الثاني أبو حامد محمد العربي الفاسي. ومن جملة ما أشار إليه من كتب التراجم خلال أواخر القرن 17 و 18 م، نجد محمد المهدي الفاسي في كتابه، **"ممتع الأسماع في أخبار الجزولي والتباع ومن لهما من الأتباع"**، ثم أيضا أسرة القادريين مثل محمد العربي القادري وعبد السلام القادري الذي خلف كتابات في تراجم الشرفاء نذكر على سبيل المثال، **"الدر السني في بعض ما بفاس من أهل النسب الحسني"**. أما في القرن 19 فنجد من بين من اهتم بالتراجم، أبو عبد الله محمد ابن سودة وأبو الربيع سليمان الملقب بالحوات.

IV. المؤرخون والمترجمون المعاصرون

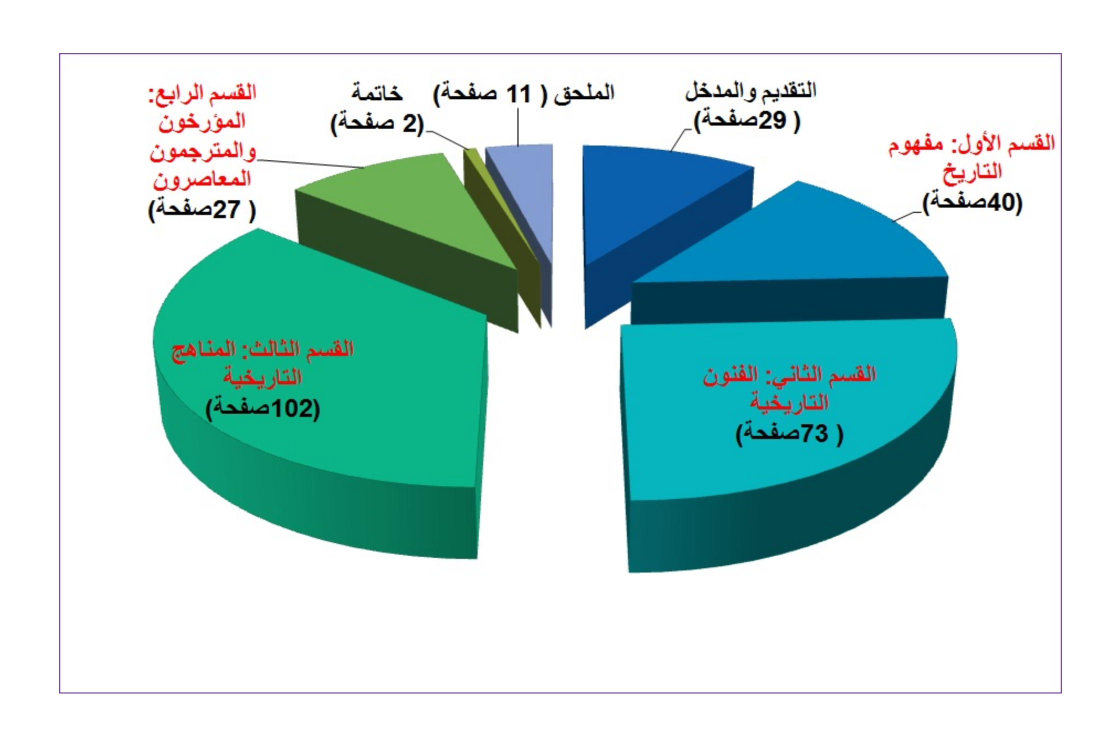
يشير ليفي إلى أن الكتابات خلال الفترة المعاصرة ضئيلة باستثناء فترة المولى الحسن الأول الذي ظهرت فيها نهضة فكرية جديدة، نظرا لسيادة الهدوء والأمن، والتفكير في اصلاح الدواليب الحكومية والمنشئات الادارية والاجتماعية ولظهور الطباعة.

ويستهّل ليفي حديثه عن بعض هذه الكتابات بأحمد بن خالد الناصري، ويفصل الحديث أكثر عن كتابه **"الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى"** الذي جعله صاحبه تاريخ عاما بدأه من الفتح الاسلامي للمغرب حتى أواخر القرن التاسع عشر، ويشير ليفي إلى المظان التي اعتمدها الناصري في كتابه، وأن الناصري لما انتهى من تأليفه للكتاب في 15 ماي 1881، لم يحظى باهتمام العلماء المغاربة، بل وحتى أيضا من السلطان المولى الحسن الذي توصل بنسخة من الكتاب، الأمر الذي جعل الناصري يتم كتابة تاريخه بعد وفاة المولى الحسن. كما يشير كذلك إلى أن أحمد ابن الحاج الفاسي الذي تولى تدريس الأمير الحسن الأول بمراكش في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان، كلفه تلميذه الحسن الاول بعد توليه عرش المغرب بمهمة التأريخ

لفترة حكمه حيث خلف كتابا اسماه **"الدر المنتخب المستحسن في بعض مأثر أمير المؤمنين مولانا الحسن"**، ويعلّق ليفي على هذا الكتاب بكونه "كتاب سياسة بتصميم فكر مغربي "[101].

بالإضافة إلى ذلك أشار ليفي بروفنصال خلال هذه الفترة للكتابات التي اهتمت بإثبات الشرف لبعض الأسر أو نفيّه عنها، مثل كتاب ادريس الفضيلي **"الدرر البهية والجواهر النبوية في الفروع الحسنية والحسينية"**. ويشير ليفي إلى أنه في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ظهرت عدة كتب أرخت للطرق الصوفية وأتباعها المنتشرة بالمغرب وقتئذ، مثل الطريقة التيجانية والطريقة الكتانية و الناصرية وغيرها.

V. قراءة "كرافيكيّة" للكتاب :



انطلاقا من المبيان أعلاه، نُسجل غياب التوازن بين فصول الكتاب، حيث يشغل الفصل الثالث الحصة الأكبر من حيث عدد الصفحات(102)، وهو الفصل الذي خصصه ليفي بروفنصال للحديث عن مسألة المنهج في الكتابة التاريخية عند المغاربة خلال الفترة الحديثة وأشار إلى كون المؤرخين المغاربة خلال هذه الفترة لم يخرجوا قط عن اقتفاء أثار أجدادهم في كتابة التاريخ، وأن كتابتهم لا تختلف عن الكتابة المشرقية، عكس الاوربيين -كما يقول ليفي- الذي قطعوا أشواطا كبيرة في مناهج الكتابة. ويلي هذا الفصل من حيث عدد صفحات الكتاب الفصل

[101]- ص، 264.

الثاني (73) الذي عنونه الكاتب ب "الفنون التاريخية" حيث تحدث فيه عن نوعيين من الكتاب الذين أهوتهم كتابة التاريخ، كما تناول فيه أهمية كتب التراجم وأشاد بقيمتها العلمية. وفي أخر الترتيب نجد "الخاتمة" التي خصصها لاهم استنتاجاته في صفحتين مركزتين.

خاتمة:

إجمالا يمكن القول أنه رغم حسنات هذا العمل الذي قدم من خلاله ليفي بروفنصال دراسة مستفيضة لمختلف الكتابات التاريخية والمناقبية المغربية -التي غطت تاريخ الدولة السعدية إلى أواخر القرن التاسع عشر- نظرا لما تقدّمه للباحث من معلومات قيمة لمجموعة من الكتابات التي لا محيد من الرجوع اليها لدراسة تاريخ المغرب الحديث على وجه الخصوص، كما يدفع ليفي بروفنصال القارئ من خلال هذا العمل إلى تبني منهج النقد في دراسة مختلف المظان التي يطلع عليها وضرورة استخدامه "لمنهج الشك" في كل المعلومات التي تجود بها الكتابات التاريخية المغربية.

لكن رغم قيمة العمل فإن ذلك لا يعفي الكتاب من بعض النواقص التي يمكن إبدائها عبر النقط التالية :

- غياب مناهج جديدة للكتابة التاريخية عند المغاربة، راجع بالأساس حسب ليفي إلى الإفراط في دراسة العلوم الدينية دون غيرها.
- اعتباره أن العلماء المغاربة لا يهتمون بتاريخ بلادهم، وفي نفس الوقت يورد العديد من المصنفات التاريخية ويتناولها بالدرس والتحليل.
- تقليله من قيمة بعض الكتابات التاريخية، حيث اعتبر أن العثور على كتاب "الترجمان" لأبي القاسم الزياني قد يفقد كتاب الاستقصا قيمته العلمية التي حظي بها.
- السقوط في تناقضات صريحة، حيث لا يتورع مثلا في اتهام الناصري أحيانا بالانتحال وغياب منهج في تحريره للاستقصا، وفي نفس الآن يستحسن كتابه ويعتبره ظاهرة جديدة في حركة التأليف التاريخي بالمغرب.

تاريخ يهود المغرب







هل كان اليهود المغاربة مواطنون من الدرجة الثانية ؟ يهود مدينة اسفي نموذجا

سعيد البهالي
باحث

هـذا المقـال كتـب في الأصـل ردا علـى حـوار لشـمعون ليفـي مـدير المتحـف اليهودي بالبيضاء نشـر علـى صـفحات جريـدة المسـاء العـدد 467 الصـادر بتـاريخ 2008/3/20 والـذي زعـم في بعـض مضـامينه ان اليهـود المغاربـة عاشـوا حيـاتهم كـذميين أي مـواطنين مـن الدرجـة الثانيـة !!، ولان الكـثير مـن الأفكـار الـواردة في هـذا المقـال /الـرد مـا تـزال صـالحة للنشـر ، وبمـا أن التـاريخ لا يمكـن إلا أن يكون علما تحت الحراسـة ، وجـب أن نميـز بـين الحقـائق والمسـلمات التاريخيـة مـن جهـة ، والآراء الشخصـية مـن جهـة ثانيـة ، فهـل عـاش اليهـود المغاربـة عمومـا ويهود مدينة اسفي خصوصا وضعية المواطن من الدرجة الثانية ؟

سنحاول في هذا المقال تسليط الضوء على بعض الجوانب من حياة ومعيش الطائفة اليهودية باسفي من خلال رصد ثلاث مستويات : العيش المشترك و مساهمتهم في بناء وتطور مدينة اسفي و تبوؤهم لأعلى المناصب والمراتب في المجتمع.

بداية نؤكد على وضعية أهل الذمة قوامها وأساسها في الفقه الاسلامي الحماية وعدم الاعتداء والتعامل في المعروف واستقلالية اليهود في عقيدتهم وقضاياهم الدينية والقضائية وأحوالهم الشخصية ، وأهل الذمة هم أهل العهد والميثاق ، وأهل الأمان الذين تجب حمايتهم وصون حقوقهم والدفاع عنهم داخل المجتمع المسلم ،ومصطلح أهل الذمة ليس مفهوما تنقيصيا كما قد يعتقد البعض بل هو مفهوم تكريم واحترام ، فذمة الرجل عهده وميثاقه، وهذا المفهوم ذو طبيعة تاريخية صرفة حل محله مفهوم المواطنة .

تجمع كل الدراسات تقريبا التي تناولت حياة ووجود اليهود على ان الفترة التي عاشوها بين المسلمين سواء في المغرب أو الأندلس أو باقي البلدان الإسلامية كانت من أزهى وأجمل فترات الحياة اليهودية بكل تجلياتها وأبعادها الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والدينية ... ولعل هذا ما شهد به المفكرون والكتاب اليهود أنفسهم (حاييم الزعفراني ، بن عامي أستار ...) وما يقال عن عموم المغرب يقال عن مدينة اسفي التي اخترناها نموذجا ، فروح التسامح والتعايش كانت هي الغالبة والسائدة والشاذ لا حكم له ، وقد كان بعض المجرمين من يهود مدينة اسفي يحضون بالعفو الذي يصدره السلطان ، ومن ذلك العفو الذي أصدره السلطان محمد بن عبد الله في حق يهوديين باسفي متورطين في مقتل العقيد الاسباني مانتيا Mantilla (قتل يوم 1863/7/30) ومما جاء في الرسالة المحررة بتاريخ 2 رمضان 1280 التي وجهها السلطان إلى عامله على تطوان :" خديمنا الارضى الحاج عبد القادر اشعاش وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبركاته ، وبعد فقد ورد على حضرتنا العالية بالله تعالى يهودي من الوندريز متشفعا في يهوديين كانا مسجونين باسفي في تهمة نصراني اصبنيولي مات ، ومستعطفا جانبنا العالي بالله في الإيصاء على اليهود فأجبناه

إلى ما طلب من تسريح اليهوديين حيث ابرأهما أصحاب دعواهما وإلى الإيصاء الذي طلب ، فنأمرك أن تستوصي خيرا بضعفاء اليهود ومساكينهم المعروفين بالسكينة المشتغلين بمعاشهم " (1) ، وقد عملت الدولة المغربية على إعطاء اليهود كامل حقوقهم بل إنها كانت تقتطع من أملاكها العامة أو أملاك الاحباس قطعا أرضية لصالح بناء مشاريع ومرافق لليهود ومن ذلك تفويت إدارة الاحباس باسفي بتاريخ 8 ماي 1934 لقطعة أرضية مساحتها 1038 مترا مربعا لصالح بناء مدرسة يهودية (أسستها الرابطة الإسرائيلية العالمية) ،والأراضي الملحقة بمقبرة أولاد بن جميرو فوتتها الدولة المغربية بتاريخ 3 شتنبر 1929 لصالح يهود اسفي وهي من الأملاك العامة (مساحتها 11000متر مربع)

وقد كانت للطائفة اليهودية باسفي أولياؤها ومواسمها ومقابرها (مقبرتين) ومدارسها وأعيادها وقضاتها وحزانوها وحرفها ومحاكمها وأحوالها الشخصية ومعابدها التي كانت منتشرة بدروب المدينة القديمة بدءا من درب المعصرة ودرب الصمعة ودرب الديوانة وشارع الرباط ودرب اليهودي ...دون أن تكون ملزمة بالاستقرار في حي خاص بها (ملاح) ،وقد كان بعضهم من صفوة القوم وعلية المجتمع حيث نبغ منهم الأطباء والمحامون والمحاسبون والتجار والصناع والأدباء والموسيقيون والدبلوماسيون .. وأحيلك أيها القارئ العزيز على مقالنا مهن يهود اسفي في الخمسينيات المنشور بجريدة لواء اسفي العدد 26 بتاريخ يناير فبراير 2015 ، ولا باس هنا ان نذكر بعض الأسماء التي كان لها صيتها بمدينة اسفي كأبراهام بن زميرو وإخوته إسماعيل وإسحاق (ق 16 في التجارة والدبلوماسية) ويعقوب روط (ق 16 في التجارة والدبلوماسية) ، صمويل سنبل (ق 18 في الدبلوماسية) وسالومون أمزلاغ المشهور بسامي المغربي (1922ـــــ2008) (الموسيقى) وإدمون عمران المليح (1917ــــ2010) (في السياسة و الأدب) ،إسحاق ليفي (العمل النقابي) ، جوداح مورسيانو (مزداد باسفي عام 1875) (الصناعة) ،أرمان بن سيمون كوهين (مزداد باسفي عام 1917(النقل) ، يوسف ليفي (عضو المجلس

البلـــدي لآســـفي) أبراهـــام ســـلطان (الحاخـــام) ، أبراهـــام بـــن موشـــي (حـــزان الطائفة)، مـــايير بارشيشـــات (حـــزان)، يهـــودا مرســـيانو(رئـــيس الطائفـــة اليهوديـــة) ، خليفـــة كبيســـة (موثـــق) ، شـــالوم صـــباغ (قاضـــي) ،أبراهـــام ســـيبوني (مـــن كبـــار التجار)...

ويشهد التاريخ أن يهـــود مدينـــة اســـفي كـــان لهـــم تنظـــيمهم المســـتقل (لجنـــة جماعـــة يهـــود مدينـــة اســـفي المحدثـــة بمقتضـــى القـــرار الـــوزيري الصـــادر بتـــاريخ 1918/10/8) ولا يتـــدخل احـــد في شـــؤونهم الداخليـــة فـــلا يقبلـــون مقـــدما عليهم إلا منهم باستثناء الفتـــرة الـــتي عـــين فيهـــا الســـلطان محمـــد بـــن عبـــد الله الفقيـــه احمـــد بلكاهيـــة (ت 1189هـــ /1775) قائـــدا علـــى يهـــود اســـفي (2) ، بـــل إن العنصر اليهـــودي حاضـــر بكثافـــة في مونوغرافيـــة المدينـــة ، فمـــن منـــا لم يســـمع عـــن جـــرف اليهـــودي ، ودرب اليهـــودي ومقـــبرة اليهـــود ، ومطحنـــة اليهـــودي وذراع اليهودي ــ تجمع ســـكني صـــغير قـــرب حـــي الكـــورس ــ و بئـــر اليهـــودي ــ قـــرب ثلاثاء بوعريس، وعزيب اليهودي وضريح أولاد بن جميرو...

أما عن مســـاهمتهم في بنـــاء اقتصـــاد مدينـــة اســـفي فـــذلك أمـــر مشـــهور ومعـــروف ، فقـــد تملكـــوا الورشـــات الحرفيـــة والمعامـــل الصـــناعية (معامـــل التصـــبير ومطـــاحن الحبـــوب) واحتكـــروا تســـويق بعـــض المنتوجـــات (الشـــاي والصـــابون) بـــأمر مـــن ســـلاطين المغـــرب واحتكـــروا ســـك النقـــود ،ونبغـــوا في بعـــض الحـــرف اليدويـــة كالصـــياغة وإنتـــاج الخيـــوط الذهبيـــة (الصـــقلي)،وتملكـــوا العقـــارات داخـــل المدينـــة والأراضي الزراعيـــة بالباديـــة ،وهنـــا لابـــد مـــن ذكـــر مجموعـــة مـــن أسمـــاء الملاكـــين الكبـــار اليهـــود الـــذين بـــرزوا بمنطقـــة عبـــدة كســـلومون بـــن صـــباح (بالاضـــالعة) ، جوزيف بـــن هـــدان زريحـــن (احـــرارة) ،مـــيير ســـيبوني وبابـــا ســـيبوني (احـــرارة) ، روبان سيبوني (جمعـــة ســـحيم واحمـــر) ،ســـيمون بـــن يحـــيى ســـباط (تمـــرة) ،شـــلومو دحـــان (جمعـــة ســـحيم) مـــيير بارشيشـــات (جزولـــة والعـــامر) ، دهـــان ســـلومون وكـــوهن مردخـــاي(البخـــاتي) أبراهـــام بـــن سوســـان (الزغـــاغرة) ،أدولـــف كـــرارة (البحاترة الوســـطى) ... بـــل حـــتى في أيـــام الســـيبة وعـــدم الاســـتقرار قـــرب القائـــد عيسى بن عمـــر العبـــدي اليهـــود لأســـباب منـــها مـــا يتعلـــق بالتجـــارة (تخصصـــهم في

صياغة الذهب والفضة والتجارة الخارجية) ومنها ما يتعلق بمنصبه الجديد كوزير للخارجية في عهد السلطان عبد الحفيظ ، فسكنوا قصبته وكانوا في جواره وأمانه .

بالإضافة الى إسهام الطائفة اليهودية باسفي في تلقيح الثقافة المحلية من خلال الطبخ والغناء واللباس والصناعة التقليدية والسحر... وهي كلها عناصر تجسد التعايش المشترك بين أبناء المدينة الواحد ويجسد ذلك كله غياب ملاح خاص بيهود مدينة اسفي وهي ظاهرة تكاد تنفرد بها المدينة ، فاليهود يسكنون مع مواطنيهم المسلمين نفس الأحياء ويتقاسمون نفس المرافق والأسواق ، وقد وجدنا حالات لدور مشتركة بين المسلمين واليهود، وهذا ما أشار إليه الرحالة الفرنسي ليون أوجين أوبان قائلا :" أما اليهود في اسفي فيبلغ عددهم عشرة أضعاف الجالية الأوربية وهم منتشرون في أحياء المدينة غير ملزمين بالإقامة في ملاح خاص بهم كما هو الشأن في مدن أخرى " (3) أما أرمان أنطونة المراقب المدني لعبدة فقد اعتبر مدينة اسفي محتضنة " على الدوام لساكنة يهودية كانت في العصور كبيرة العدد" (4) ونفس الملاحظة أكدها الحسن الوزان الملقب بليون الإفريقي في القرن السادس عشر ....وإذا كان هناك تمييز أو تنقيص في زمن معين فقد عانى منه الجميع مسلمين ويهود ، على اعتبار أن تاريخ كل جماعة يهودية هو ماضي وتاريخ المجتمع الذي تعيش فيه (5) ، أما إذا كانت الجزية مفروضة على اليهود في زمن ما فإن باقي المغاربة كانوا يؤدون ضرائب وغرامات وذعائر مختلفة بدءا من ضريبة الأذن والكانون والضيافة والهدية والبرنس والإنزال والترتيب وحق الأبواب والصلات والملاقاة ومؤونة المحلة ومؤونة الكشينة السعيدة ومؤونة الدار العالية والقاعة والخطيئة ... وغيرها من التكليفات والتسخيرات والتنفيذات والمجابي والغرامات والمكوس ...وإذا كان بعض الجهال يقولون عن اليهودي "حاشاك" فإنهم يقولونها أيضا عن المرأة وهي الأم والأخت والزوجة والبنت وهو ما يدل عن الجهل والتخلف لا عن التعصب والتطرف .

إن مدينة اسفي هي مدينة التعدد الثقافي والحضاري ، مدينة القبول بالآخر واحتضانه ، فهي كما وصفها ابن قنفذ القسمطيني من " أخصب الأرجاء واقبلها للغرباء " حيث لا نجد عقدة الآخر ولا منطق العزلة والكراهية ، والتاريخ يشهد ان المدينة استقبلت العشرات وربما المئات من العائلات اليهودية التي فرت من أيبيريا أو من مدن مغربية أخرى جاءت لتستكشف طرق الربح والتجارة خصوصا وان المدينة بفلاحتها وتجارتها وموانئها توفر فرصا جيدة للاستثمار والاستقرار ، وكانت اسفي على مر التاريخ جهة استقبال ومدينة أمان للجالية اليهودية ، إليها تلجأ كلما حزبها أمر، وهنا نذكر التجاء عائلة ابن زميرو في القرن السادس عشر ، والتجاء يهود مراكش لأسفي إبان اضطرابات عام 1541 إثر الصراع بين أحمد الأعرج السعدي وأخيه محمد الشيخ ونتيجة للمجاعة التي ضربت مراكش وانهيار تجارة تارودانت ، واستقبلت اسفي عائلة بلياش خصوصا الأخوين صمويل بلياش (توفي 1614/2/5) ويوسف بلياش وبميناء اسفي تعرفا على التجار الهولنديين فأصبح صمويل بلياش وكيلا تجاريا لحساب الشركات الهولندية (6) وكان ضمن البعثة التي أرسلها أحمد المنصور إلى هولندا عام 1613/1612 بقيادة القائد أحمد الجزولي للتباحث في شأن الباخرة الفرنسية التي كانت تقل خزانة الكتب من اسفي إلى درعة ووقعت في أيدي القراصنة الاسبان ، وأبراهام بن يونس بلياش الذي كان يقوم بدور الرقاص بين اسفي ومراكش حاملا الى الوكلاء الأجانب رسائل الملوك السعديين أو الرسائل التي يتسلمها من شقيقه موسى بلياش أمين زيدان بن احمد المنصور الموجهة إلى هؤلاء الوكلاء أو إلى اليهود الذين كانوا يمسكون بشؤون ثغر اسفي وديوانته (7)

شذرات وشواهد من التاريخ

إذا استقرأنا تاريخ مدينة اسفي سنجد أن الحضور اليهودي كان دوما متميزا ، حيث تبوأ اليهود أعلى المناصب في المجالات الاقتصادية والدبلوماسية والقنصلية ، وهكذا برزت أسرة بن زكار التي تخصصت في المجال القنصلي والنيابة عن القنصل الأمريكي باسفي حيث كان إسحاق بن زاكار نائب القنصل



الأمريكي باسفي عام 1872 ، وابنه يعقوب بن زاكار الذي تولى نفس المهمة عام 1888 ، وابنه موشي بن زكار أيضا الذي كان نائبا للقنصل الأمريكي (8)، وأسرة سنبل التي تخصصت في الترجمة والدبلوماسية فبرز منها صمويل سنبل الذي كان مترجما لدى السلطان محمد بن عبد الله ومكلفا بمكاتبة ومخاطبة القناصل بطنجة ، وميير سنبل الذي عمل مترجما لدى القنصلية الفرنسية باسفي ما بين 1767 و1782 ، وأبراهام سيبوني الذي كانت له علاقات مميزة مع بعض سلاطين المغرب ، بالإضافة إلى أسماء أخرى كانت متواجدة في مختلف الإدارات الاسفية ، فقد كان باللجنة البلدية المختلطة باسفي :ميير سيبوني ، يهودا المالح ، شلومو دهان ، يعقوب ابيكاسيس ، يوسف ليفي ، يهودا مورسيانو ، روبير سيبوني .....

و بلجنة الإحصاء والضريبة باسفي : جوزيف أوحيون ، يهودا المالح ، يوسف ليفي ،روبير سيبوني ، نسيم مسعود اتياس .....

وقد كان ليهود اسفي امتيازات واحتكارات اقتصادية وتجارية لم يحظ بها غيرهم كاحتكار ضرب السكة ، واحتكار امتياز الإشراف على ديوانة اسفي والوليدية طيلة القرن 17 ، وطيلة العهد السعدي كان يهود اسفي يحتكرون تجارة السكر والتبغ والبارود...وهو امتياز جلب لهم حقد التجار الأوربيين ، وكان ميناء اسفي يستقبل مجموعة من الواردات لصالح الطائفة اليهودية ومنها كتاب التوراة .

أما إذا تحدثنا عن مشاركة اليهود لمواطنيهم المسلمين أفراحهم وأتراحهم وثقافتهم الشعبية فإن التاريخ يزخر بشواهد وافرة ، ومن ذلك أن وفدا من تجار يهود اسفي كان ضمن الوفود المستقبلة للسلطان محمد بن عبد الله عند حلوله باسفي طريدا من طرف الرحامنة ، يقول الناصري في الاستقصا "... ولما اطمأنت به الدار رفع إليه أهل اسفي هداياهم وتبعهم على ذلك تجار النصارى واليهود ، وتباروا في ذلك وتنافسوا " ويقول الكانوني عن نفس الواقعة :" فتلقاه الأشراف والعلماء من أهل اسفي ،فترل بالقصبة بدار المخزن ، ففرحوا به وقدموا له هداياهم ، وتبعهم على ذلك تجار المسلمين والنصارى

واليهود " (9) وهي نفس الملاحظة التي أوردها عبد الرحمان ابن زيدان في الإتحاف :" فتوجه لآسفي فاعترضته قبائل عبدة واحمر وأكرموه واحتفلوا بأمره ...وأهدى له كذلك تجار النصارى وأهل الذمة من اليهود وتنافسوا في ذلك " (10) ، أما عن تقاسم الأحزان والأتراح فيقول الكانوني واصفا وفاة الفقيه الشريف سيدي أحمد بن محمد بن علال الوزاني المتوفى يوم 12 صفر 1309هـ / 17 شتنبر 1891: " وكان الأسف عليه عاما من جميع الطبقات ، وبكى عليه أهل الملل الثلاثة المسلمون والنصارى واليهود " (11) ، من جميل ما سجله التاريخ أن تجار مدينة اسفي كانوا يساهمون ويكتتبون في كثير من الأعمال الخيرية لصالح فقراء اليهود باسفي وهي ملاحظة استوقفت الفقيه المؤرخ أحمد الصبيحي السلاوي وجعلها مفخرة لتجار اسفي (12)، وسجل لنا التاريخ أيضا أنه إبان الأزمات والشدائد التي كانت تعرفها اسفي كان المسلمون واليهود يقيمون الصلوات والأدعية وزيارة الصالحين كل حسب معتقده وكل يتوسل بصلحاء دينه ، وهي حقيقة تاريخية أكدها المؤرخ الكانوني العبدي ، وكان يهود اسفي يتراسلون بينهم باللغة العربية وبالدارجة المغربية في اندماج تام مع الثقافة المحلية ، وفي أوقات الأفراح اليهودية/ الأعياد فقد كان جيرانهم المسلمون يقاسمونهم البهجة والهدايا وهو ما أشار إليه شمعون ليفي نفسه عندما تحدث عن احتفال يهود اسفي بليلة "ميمونة " فهي " فرصة تستقبل خلالها العائلات اليهودية أصدقاءها المغاربة في بيوتها " (13) ناهيك عن وجود زيارات مشتركة للأضرحة حيث يزور بعض المسلمين ضريح أولاد بن جميرو بقصد تسهيل زواج العانسات ، بل إن أسرة مسلمة هي التي كانت تقوم بدور الوساطة بين أولاد بن جميرو والزوار (14) وضريح سيدي بوالذهب كان يقصده المسلمون واليهود على حد سواء للزيارة والتبرك (15) كما أن بعض النساء المسلمات كن يلتجئن للعرافات اليهوديات الخبيرات قصد " ضرب الفال " أو لسحر الرجال ، ويهود اسفي بلا شك اغنوا الخيال الشعبي المحلي والذاكرة الثقافية الجمعية بحمولة من الطقوس والعادات والتقاليد سواء في الطبخ (الكشير والسخينة...) أو اللباس أو الزواج

أو الولادة والوفاة أو الموسيقى أو العرافة أو الصناعة التقليدية ... بل كان التأثير والتأثر حتى في الأسماء الشخصية والعائلية (16)... وبالتالي ساهموا بشكل من الأشكال في بناء ثقافة جماعية محلية مشتركة تيمتها الأساسية التعايش والتسامح ، ولكي لا نسقط في نظرة أحادية الجانب لوقائع التاريخ فإن العلاقة بين مسلمي ويهود اسفي عرفت أيضا بعض مظاهر التوثر التي تبقى عموما مظاهر شاذة ، والشاذ لا حكم له عرفا وشرعا

إن الفترة الأكثر سوادا وقتامة في تاريخ اليهود المغاربة هي تلك الفترة التي شهدت صعود حكومة فيشي الموالية للنازية والتي طبقت القوانين الفرنسية العنصرية على يهود المغرب ولعل خير ما يجسد تلك الفترة المظلمة الظهير الشريف الصادر بتاريخ 31 أكتوبر 1940 والمسجل في الوزارة الكبرى بتاريخ 20 نونبر 1940 والذي وقعه كل من المقيم العام نوكيس والصدر الأعظم محمد المقري ويتعلق بإجراء العمل في المنطقة الفرنسية من المغرب بالقانون الفرنسي المؤرخ في 3 أكتوبر 1940 المتعلق بنظام اليهود ، حيث نص في فصله الثالث على منع اليهود المغاربة من الانخراط في الوظائف العمومية ومباشرتها وكذلك تعاطي النيابة في المجالس المنتخبة أو جمعيات الحرفيين ، ويمنع عنهم تولي منصب المديرين والمديرون المعاونون ونواب المديرين ورؤساء المصالح بالإدارات المركزية والإدارات المشابهة لها والكتاب العامون بالنواحي ورؤساء الإدارات البلدية والمعاونون لهم والأعوان من جميع الرتب المستخدمون بمكاتب المحاكم العدلية وبمكاتب وكلاء الدولة وبقسم الترجمة العدلية وأعوان التوثيق ومندوبوا الحكومة والأعوان من جميع الرتب لدى المحاكم الشريفة والأعوان من جميع الرتب المستخدمون بجميع مصلحات البوليس... ونص فصله الرابع على انه لا يجوز لليهود اشغال ومباشرة جميع الوظائف العمومية إلا إذا توفرت فيهم مجموعة من الشروط ، التعجيزية طبعا ، هذا ولا يجوز لليهود – حسب نفس الفصل – مباشرة حرفة الوكلاء المقبولين لدى المحاكم المخزنية ولا تقييدهم في قائمة أرباب البصر العدليين أو المترجمين المحلفين إلا إذا توفرت فيهم مجموعة من الشروط؟؟ ونص الفصل

السادس على انه لا يجوز لليهود ان يباشروا من غير شرط ولا قيد أية حرفة من الحرف الآتية وهي : مديرو الصحف أو المجلات أو الوكالات أو الجرائد وكذلك وكلاؤها ومحرروها ومديرو ووكلاء ومديرو الشركات التي يرمي غرضها الى صناعة الشرائط السينمائية وطبعها وتوزيعها وعرضها ومنظمو المسرح ومديرو أحد المناظر ومؤلفو الروايات المسرحية ومديرو قاعات التمثيل والسينما ومديرو شؤونها ومقاولو شؤون التمثيل والمشاهد ومديرو جميع شركات الإذاعة ووكلاؤها ومديرو شؤونها !! ونص الفصل السابع على انه لا يمكن لليهود في أية حالة كانت أن يشاركوا في المؤسسات المكلفة بالنيابة عن هيأة الحرف المشار إليها في الفصلين 5و6 السالفين ، أما الفصل الثامن فقد حدد اجل شهرين لليهود ليكفوا عن مزاولة المهن السالفة !!

في ختام هذا المقال المبسط نؤكد على ان يهود مدينة اسفي ـــ كما باقي يهود المغرب ـــ كانت لهم الحظوة العالية عند مختلف الدول التي تعاقبت على حكم المغرب ، فكان منهم المستشارون والقناصل والسفراء والمترجمون وأمناء الديوانة ... كما كان منهم الصاغة والصيارفة والتجار ورؤساء الشركات ... ومارسوا جميع حقوقهم الدينية ، فكان منهم الأحبار والربيون والقباليون والأولياء ، وكانت لهم مواسمهم وميعاراتهم ومعابدهم ومحاكمهم ... و لم يكن يؤمر عليهم أحد من غيرهم في شؤونهم الدينية ، وكانوا في كثير من الأحيان هم المتحكمون في عصب الاقتصاد الوطني والمحلي ، بل يمكن القول أن عيشتهم كانت أحسن حالا من عيشة إخوانهم في بعض بلدان أوربا التي أرادت التخلص منهم بأي ثمن ولو على حساب الحقوق التاريخية والجغرافية لشعوب أخرى .

إن فكرة " اليهودي هو مواطن من الدرجة الثانية " هي فكرة ذات أصل استعماري / صهيوني حاول البعض من خلالها خلق التفرقة بين أبناء الوطن الواحد من خلال سياسة فرق تسد ، ولعبت عليها الصهيونية العالمية لتهجير اليهود إلى فلسطين السليبة ، كما أن محاولة اللعب على ورقة عقدة الذنب تجاه اليهودي المحتقر المهضوم الحقوق غير مجدية حتى ولو كانت من باب السرد

التاريخي ، ببساطة لان اليهود عاشوا مواطنتهم كاملة مع مواطنيهم المسلمين ، وما يمكن أن يكون قد حدث من تجاوزات فقد اكتوى بنارها المغاربة ككل ، بل إن بعض التجاوزات كانت بسبب ممارسات خاطئة لبعض اليهود أنفسهم كالتعامل مع المحتل (البرتغالي والفرنسي) أو بسبب ممارسات اقتصادية غير نظيفة (الاحتكار ، القروض الربوية الفاحشة ...)

الهوامش :

1ـ محمد داود تاريخ تطوان ج 6 صفحة 62

2ـ معلمة المغرب ج 4 صفحة 1357

3ـ اسفي دراسات تاريخية وحضارية صفحة 81

4ـ جهة عبدة صفحة 71

5ـ)عبد الوهاب المسيري موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية صفحة 18

6ـ معلمة المغرب ج 4 صفحة 1372

7ـ معلمة المغرب ج 4 صفحة 1372

8ـ إبراهيم كريدية :يهود مدينة اسفي

9ـ الكانوني :علائق اسفي صفحة 95

10ـ ابن زيدان :الإتحاف ج 3 صفحة 183/183

11ـ الكانوني :جواهر الكمال ج 1 صفحة 18

12ـ أحمد الصبيحي السلاوي: الأعمال الكاملة صفحة 73

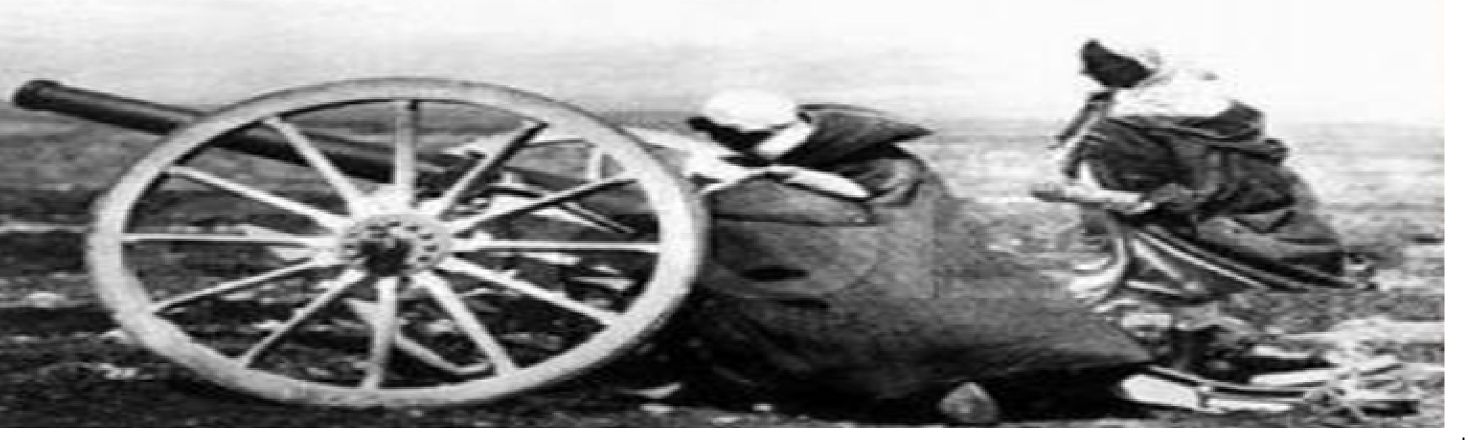
13ـ شمعون ليفي : "الهيلولة " "الفال"و" ليلة ميمونة " جريدة الاتحاد الاشتراكي عدد 8838 بتاريخ 2008/4/7 صفحة 16

14ـ شمعون ليفي :اسفي دراسات تاريخية وحضارية صفحة 175

15ـ معلمة المغرب ج 5 صفحة 1682

16ـ سعيد البهالي : الاسم الشخصي والعائلي ليهود مدينة اسفي دراسة في وقائع الحالة المدنية جريد لواء اسفي عدد 24 بتاريخ 2013

تاريخ الجزائر





السياسة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر بين ادعاءات الحضارة والممارسات الإجرامية مذبحة العوفية 1832.



غانم بودن
أستاذ مساعد بقسم العلوم الإنسانية جامعة ابن خلدون - تيارت. الجزائر

ملخص:

شهدت الجزائر في النصف الأول من القرن التاسع عشر أعنف حملة استعمارية أوربية غذتها روح صليبية عمياء مست بالتخريب و التدمير كل نواحي الحياة، خاصة الإنسان الذي خضع لحرب إبادة لم يعرف لها التاريخ مثيلا، فقد عانى الشعب الجزائري شتى أصناف القهر الاستعماري من ترحيل إجباري و تسخير في الأعمال الشاقة و قتل جماعي بكل أنواع الأسلحة و حتى بالحرق. و مذبحة العوفية 07/06 أفريل 1832 بوادي الحراش بالقرب من العاصمة تندرج في هذا الإطار الذي يعكس حقيقة السياسة الاستعمارية التي عملت على إبادة العنصر الجزائري

لتوطن مكانه العنصر الأوربي (المستوطن)، و هذه الجرائم تنافي الادعاءات الفرنسية الزاعمة بنشر الحضارة التي يتمتع بها الإنسان الأوربي عامة و الفرنسي خاصة.

الكلمات المفتاحية: العوفية، المجزرة، الحملة، الجيش، الاحتلال.

مقدمة:

إن الوجود الاستعماري الفرنسي في الجزائر يعتبر من أساسه جريمة في حق شعب اغتصبت سيادته و نهبت ممتلكاته ومقدراته و شرد أبناؤه، ولما بادر الجزائريون إلى مقاومة هذا الوجود الأجنبي شنت ضدهم حرب إبادة لم تراع فيها تقاليد الحروب العسكرية وإنما كانت مدفوعة برغبة جامحة في القتل من جنود الحضارة الذين أرادوا ترويض (البربرية) في الجزائر على حد تعبيرهم.

وقد خاضت أقلام الباحثين بحثا وكتابة في مجازر الاستعمار الفرنسي في الفترة الممتدة ما بين (1945 - 1962) وهي الفترة التي تبدأ بمجازر الثامن ماي 1945 (45 ألف شهيد)- التي كانت جريمة منظمة حبكت خيوطها عشية نهاية الحرب الامبريالية الثانية للقضاء على تصاعد الوعي الوطني وتبلور فكرة الاستقلال- إلى المجازر المرتكبة أثناء الثورة التحريرية المتمثلة في الإعدامات والتصفيات الجسدية والتعذيب والإبادة التي اعتمدها ديغول منذ توليه السلطة سنة 1958. لكن المجازر المرتكبة قبل هذا القوس الزمني (1945 - 1962) والتي بدأت منذ الأشهر الأولى للاحتلال وصاحبت عمليات التوسع الاستعماري لا تكاد تذكر في الكتابات التاريخية رغم أنها تعكس الواقع الأليم الذي كابده الجزائريون وتجسد مظهرا بارزا للسياسة الاستعمارية وتعبر عن فظاعة ممارسات جيش الاحتلال الذي ادعى قادته أنهم ينشرون الحضارة بواسطته.

ومن بين هذه المجازر التي بقيت وصمة عار في تاريخ فرنسا الاستعمارية مذبحة قبيلة العوفية 07/06 أفريل 1832 ضد أناس عزل نيام في خيامهم، فأردت بهذه الدراسة التعريف بحقيقة جيش الاحتلال وتسليط الضوء على بعض أوجه الحضارة الفرنسية التي ادعت أنها جلبتها للجزائريين.

1- الوضع العام قبل المذبحة:

اعتقدت قوات الاحتلال أن سقوط مدينة الجزائر هو سقوط البلاد كلها ونهاية لحركة المقاومة التي بدأتها قوات الداي حسين لكنها فوجئت بمقاومة شرسة جعلتها لا تغادر مدينة الجزائر وتعيش حالة حصار ضربه عليها سكان البليدة والمتيجة مما أربك قادة جيش الاحتلال[102] وأفشل خططهم في التوسع خارج العاصمة، وكان الدوق روفيقو[103] (Duc de Rovigo) الآمر بهذه المجزرة أكثرهم دموية وعنفا تجاه الجزائريين، فقد عين في الجزائر بلقب القائد العام لفيلق احتلال إفريقيا بأمر ملكي صادر في 01 ديسمبر 1831[104] فصل بين السلطة العسكرية والسلطة المدنية التي أنشئ لها منصب المتصرف المدني الذي شغله في هذه الفترة البارون بيشون (le baron Pichon).

ومنذ قدوم روفيقو إلى الجزائر حصل جيش الاحتلال على إمدادات معتبرة جعلت تعداد الجيش يفوق سلفه بيرتيزين (Berthezène) وأول عمل قام به روفيقو عند وصوله للجزائر في 26 ديسمبر 1831 هو إنشاء عدة معسكرات في محيط المدينة (الجزائر) لإعادة الأمن في ضاحيتها[105] التي استعصت على جيش الاحتلال وجعلته محاصَراً داخل مدينة الجزائر.

وقد اتبع (Duc de Rovigo) في الجزائر سياسة بوليسية جائرة فمنذ وصوله في آخر شهر ديسمبر 1831 وجد أن جنوده ينامون على أسرة حديدية بدون مضربات ففرض على سكان مدينة الجزائر غرامة من الصوف قدرها أربعة آلاف وخمسمائة قنطار لتجهيز الأسرة واستولى على المؤسسات الدينية[106] وغيرها من الإجراءات العدائية والقمعية[107] التي جعلت بعض الفرنسيين

1- أول قائد لجيش الاحتلال كان دو بورمون (de Bourmont) من بداية الحملة العسكرية إلى غاية 07 أوت 1830، خلفه كلوزيل (Clauzel) من أوت 1830 إلى 20 فيفري 1831، ثم أتى بيرتيزين (Berthézène) من 20 فيفري 1831 إلى ديسمبر 1831.

2- Savary duc de Rovigo ولد في سدان (Sedan) سنة 1764،دخل الجيش سنة 1783 ليتخرج ضابطا في القوات الملكية، رقي إلى رتبة مقدم، وزيرا للشرطة، في 1831/12/26 أرسل إلى الجزائر كقائد عام لجيش الاحتلال بتعزيزات عسكرية لفرض الأمن و قمع المقاومة، لكن فشله أدى لعزله في مارس 1833 ليعود لباريس التي توفي بها أواخر جوان 1833، قيل أنه أصيب بمرض عصبي ونفسي نتيجة إقدامه على مذبحة العوفية حتى أنه أصبح يتخيل أرواح الأبرياء أشباحا تطارده كلما حل الظلام.

3 -DESJOBERT (A): la question d'Alger,politique,colonisation,commerce, Paris,1837, p 31

105 -DIEUZAIDE (V.A):Histoire de l'Algérie 1830-1878,t1,Oran,1880,pp 264-265

106- أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية 1830- 1900، ج 1،ط 1، در الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، 1992، ص 50.

يرون أن سياسته كانت غير حكيمة تجاه الجزائريين لأنها تزيد من إبعادهم عن السلطة الفرنسية[108]، وكأن الجزائريين قبلوا الاستعمار و رضوا به وهذا جزء من ايديولوجية المدرسة التاريخية الاستعمارية الفرنسية التي كانت تكتب عن سياسة فرنسا الاستعمارية وليس عن الجزائر المستعمرة.

المذبحة:

لقد تحدثت المصادر الفرنسية عن هذه المجزرة بالتفصيل كون أن أصحابها كانوا شهودا ومنهم بيليسيي دو رينو (Péllissier de Reynaud) في كتابه حوليات جزائرية (Annales Algériennes) حيث تطرق إلى ظروف ارتكاب هذه المجزرة في حق سكان قبيلة العوفية فقد كتب:" أن مجموعة من اللصوص المسلحين هجموا على رسل فرحات بن سعيد[109] إلى روفيقو(de Rovigo) أثناء عودتهم من عنده وتم تجريدهم من كل ما يملكون في ضواحي العوفية في وادي الحراش فعادوا يشكون حالهم إلى روفيقو الذي أمر جنوده فقاموا بذبح سكان العوفية دون تمييز وصادروا كل شيء"[110].

إن هذه الواقعة تعكس درجة تعسف الإدارة الاستعمارية في تعاملها مع الجزائريين وبحثها عن الأسباب الدافعة لإبادة العنصر الجزائري لأن هذه الإبادة هي جزء من السياسة الاستعمارية الفرنسية، لذلك روفيقو (de Rovigo) لم يتحر الأمر ولم يحقق فيه و لم يخش أن يدنس السلطة الموكلة إليه حسب تعبير كريستيان (Christian) وأمر فرقة من القناصة الأفارقة وفيلق من اللفيف الأجنبي بالخروج إلى العوفية ليلة السادس من أفريل 1832[111]، وهذا يفند ما ذهب إليه كامي روسي(Camille Rousset) الذي قال بأن تحقيقا صارما وعاجلا أقيم ضد قبيلة العوفية التي كانت

107- من الأعمال التي تعكس غلظته و المثيرة لمشاعر المسلمين إقدامه على إزالة مقبرتين للمسلمين الجزائريين لأجل إنجاز طريق واسع يكون طوق أمني يربط بين القبة، تيقصراين، بئر خادم و دالي ابراهيم حيث لم يحترم ديانة الموتى و لا الأعراف المتداولة و التي تقضي بنقل الرفاة إلى مكان آخر بالتشاور مع العلماء و إنما أمر بإزالة المقبرتين بشكل جعل بقايا العظام تتشتت أمام رجاله الذين لعبوا برؤوس الموتى و جثثهم و بخسة و سفالة. أنظر: DIEUZAIDE (V.A): op-cit,p255

108 - CHRISTIAN (P):l'Afrique française,1846,p 143.

109- شيخ العرب قائد الزاب الشرقي (ضواحي بسكرة) كان ضد أحمد باي قائد المقاومة في الشرق الجزائري، أرسل وفدا من (09) أشخاص لروفيقو (de Rovigo) في 05 أفريل 1832 يطلب حمايته و يدعوه للقيام بحملة على قسنطينة و يساعدهم فرحات بجيش كبير من القبائل.للمزيد حول هذه القضية أنظر: أبو القاسم سعد الله:محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث(بداية الاحتلال)، ط2، المؤسسة الوطنية انشر و التوزيع، الجزائر، 1982،ص 96. و Camille Rousset:l'Algérie de 1830 a 1840,t 1,Paris,1887,p173

110 - PELLISSIER de Reynaud: Annales Algériennes,t 1,Paris,1854,p 246.

111 - CHRISTIAN: op-cit,p143.

تتميز بسمعة غير طيبة وأحيلت القضية إلى القضاء العسكري وفي ليلة السادس إلى السابع أفريل 1832 طوق (300) رجل من القناصة الأفارقة و (300) رجل من اللفيف الأجنبي القبيلة وقتلوا من فيها وهم نيام حيث أحصيت (70) جثة(112).

مهما كانت قيمة التحقيق الذي أقيم فلا يمكن أن تكون نتيجته إبادة قبيلة بأكملها وإنما معاقبة مرتكبي الجريمة فقط إذا ثبتت عليهم التهمة، رغم التأكد أن هذا التحقيق لم يتم أصلا حسب المصادر وبالنظر إلى ظروف الواقعة، فالاعتداء على رسل فرحات بن سعيد كان في الخامس أفريل و ذهابهم للشكوى لدى روفيقو وقيامه بالتحقيق المزعوم يستغرق وقتا ذلك أن الأمر يتطلب الانتقال إلى عين المكان والاتصال بالقبيلة للوصول إلى نتيجة، وبالتالي فإدانة القبيلة وإعطاء الأمر بمعاقبتها في ليلة السادس أفريل يدل على عدم وجود تحقيق و إنما يعكس روحا إرهابية ورغبة جامحة في القتل لأجل القتل فقط.

و لم تتوقف الإنجازات المخزية لهذا الجيش عند هذا الحد بل أكمل فصول جريمته التي لا تدل إلا على الجشع و صفة النهب التي يتميز وهي في أوضع و أحط حالاتها التي يرويها كريستيان (Christian) بقوله: " في أثناء عودة الحملة المخزية كان فرساننا يحملون رؤوس قتلاهم على رماحهم، وتمت مصادرة قطيع القبيلة البائسة و بيع إلى قنصل الدانمارك وما تبقى منه عرض في سوق باب عزون ..كنا نرى باشمئزاز أسورة النساء لا تزال في أيديهن المقطوعة وحلق الآذان و هي ممزقة"(113).

ويضيف كامي روسي (Camille Rousset) أن (de Rovigo) تمادى في تشويه صورته عندما قام بتوزيع جوائز (الدم) على جنوده منفذي المجزرة من المال الذي باعوا به قطيع قبيلة العوفية المنهوبة(114) وكأنهم صنعوا مجدا في حرب مشرفة، و لم يكتف بهذا العار بل أصدرا أمرا في 08 أفريل 1832 يكرس الفضيحة حيث أعلن عن رضاه السامي على المهارة التي أبداها

112 - CAMILLE Rousset:l'Algérie de 1830 a 1840,t 1,Paris,1887,p174.
113 - CHRISTIAN: op-cit,p143.
114 - CAMILLE Rousset: op-cit,p 175.

جنوده[115] المتوحشين الذين نفذوا هذا الأمر البربري و لم يميزوا بين ضحاياهم لا من حيث السن ولا من حيث الجنس، نساء شيوخا أطفالا الكل أعدموا بلا شفقة[116] ضد سكان عزل نيام لم تكن لهم أي فرصة للمقاومة.

وفي مساء نفس اليوم أمرت شرطة روفيقو (de Rovigo) سكان العاصمة بإضاءة محلاتهم وتركها مفتوحة و أقام البارون بيشون (le baron Pichon) - الذي كان متأسفا على الإهانة التي لحقت بالعلم الفرنسي - حفلا في بيته تعبيرا عن الفرحة بالحدث المثير للاشمئزاز[117].

محاكمة شيخ القبيلة:

بعد إبادة سكان القبيلة لم يبق إلا شيخها الربيعة بن سيدي غانم الذي أخذ ليحدد مصيره أمام محكمة عسكرية لإعطاء الصبغة القانونية للمجزرة، وقد عبر ديوزايد (Dieuzaide) عن هذا بقوله:" وما أمعن في الظلم أن الشيخ الربيعة لم ينج من هذه المجزرة إلا ليسقط ضحية اغتيال قضائي أكثر مقتا، حيث مثل أمام محكمة عسكرية أدانته ونفذت فيه حكم الإعدام رغم جهود البارون بيشون (le baron Pichon)[118] لمنع ذلك، مع أنهم كانوا متأكدين من براءة قبيلة العوفية من الهجوم على رسل الصحراء، وعلقت رأسه أمام باب عزون في 19 أفريل 1832[119]. فقد تم القبض على شخصين في العوفية شاركا في الهجوم على رسل فرحات بن سعيد وتبين أثناء محاكمتهما أنهما ليسا من العوفية وإنما من الخشنة لكن صفح عنهما لأن في اتهامهما إقرار ببراءة قبيلة العوفية و إدانة للحكم المتسرع لروفيقو[120]، ويقول بيليسيي (Péllissier) أننا كنا على يقين بأن العوفية بريئة لكن الصفح عن الشيخ الربيعة معناه براءة القبيلة وإدانة أخلاقية لمرتكبي المجزرة، ولأجل تجنب هذه النتيجة المنطقية قمنا بإدانة الشيخ الربيعة[121].

---

115 - CHRISTIAN: op-cit,p144.

116 - DIEUZAIDE (V.A): op-cit,p289.

117 - CHRISTIAN: op-cit,p144.

118- البارون بيشون مسؤول الإدارة المدنية (متصرف مدني) تقول المصادر أنه كان محبا للعدالة، انتقد صراحة الإفراط في استخدام العنف و القوة منذ بداية الاحتلال، كان ضد مجزرة العوفية و إعدام شيخها. للمزيد أنظر:

ESQUER (G):les debuts de l'administration civile a Algér,revue Africaine,n 286, 03 trimestre 1912,p 322.

119 - DIEUZAIDE (V.A): op-cit,p290.

120 - CAMILLE Rousset:op-cit,p 174.

121 - PELLISSIER: op-cit,p247.

كان (de Rovigo) يعتقد أن القوة هي الحل الوحيد لترويض الجزائريين (المتعصبين) ونشر الأمن و أن مجزرة العوفية ستؤمن الاستقرار المطلق في الجزائر لكنه حصد عكس ذلك إذ ازدادت نار المقاومة اشتعالا وازداد مجالها اتساعا، ففي شهر ماي 1832 تم القضاء على فرقة من اللفيف الأجنبي (30 رجل) وأصبحت هناك هجومات دائمة على معسكرات الفرنسيين التي لم يعد جنودها يغادرونها[122] وعجز روفيقو عن متابعة الثوار في منطقة متيجة[123]، فقد زاد سخط القبائل على الفرنسيين و حتى آغا العرب الحاج محي الدين انضم إلى الثورة رغم احتفاظه بالمنصب، وترك الثوار يدعون إلى الجهاد في القليعة مقر أسرته ونشاطه[124].

ونفس المقاومة عرفتها بقية مناطق الوطن فقد بقي بوابيه حاكم وهران محاصَراً و لم تكن له حتى الشجاعة العسكرية للمواجهة وظل خلف الأسوار ينتظر التموين من الجزائر[125]، أما عنابة فقد أرسل روفيقو نجدة عسكرية من (600) جندي و(17) مدفعا و(20) رجلا من سلاح الهندسة كما أرسلت الحكومة الفرنسية نجدة عسكرية إلى حاميتها في عنابة خلال شهر مايو[126]، هذا هو إنجاز (de Rovigo) الذي لم يضف أي مجد عسكري إلا إذا اعتبرنا احتلال المدن الآمنة وذبح القبائل النائمة مجدا عسكريا[127]، فقد ظل يتخبط في مواجهة المقاومة الوطنية طيلة سنة 1832 دون أن يحقق نجاحا مما جعل الحكومة الفرنسية تعزله في شهر مارس 1833.

خاتمة:

إن هذه المجزرة التي تعتبر مظهرا من السياسة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر تعكس حقيقة الحملة العسكرية العنصرية الصليبية و تعبر عن طبيعة جيش الاحتلال الذي تميز بالهمجية والنهب ونشر الرعب والتباهي بالمجازر، كما تعكس حالة العدالة الفرنسية الخاضعة لسلطة الجيش والتي كانت عاملا مساعدا في الاحتلال ومصادرة حقوق الجزائريين وهذا مظهر من مظاهر حضارة فرنسا وسمعة جيشها الذي كان معول هدم للحضارة والإنسان والبلاد في الجزائر فكل مؤسسات الاستعمار كانت مجمعة على قهر العنصر الجزائري.

122 - ibidem,p248.

123 -أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 50.

124-أبو القاسم سعد الله: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث(بداية الاحتلال)، ط2، المؤسسة الوطنية انشر و التوزيع، الجزائر، 1982،ص 89.

125-أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية ،مرجع سابق،ص 52.

126- نفس المرجع السابق، ص 53.

127- نفس المرجع السابق، ص 52.

المراجع:

1- أبو القاسم سعد الله:(1992) الحركة الوطنية الجزائرية 1830- 1900، ج 1،ط 1، در الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان.

2- أبو القاسم سعد الله:(1982) محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث(بداية الاحتلال)، ط2، المؤسسة الوطنية انشر و التوزيع، الجزائر.

3- CAMILLE Rousset:(1887)l'Algérie de 1830 a 1840,t 1,Paris.

4- CHRISTIAN (P):(1846)l'Afrique française.

5- DESJOBERT (A):(1837) la question d'Alger,politique,colonisation,commerce, Paris.

6- DIEUZAIDE (V.A):(1880)Histoire de l'Algérie 1830-1878,t1,Oran,.

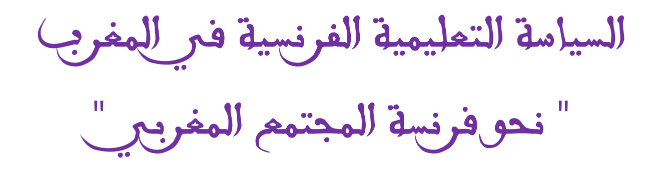
7- ESQUER (G):(1912)les debuts de l'administration civile a Algér,revue Africaine,n 286.

8- PELLISSIER de Reynaud:(1854)Annales Algériennes,t 1,Paris.

الحماية الفرنسية بالمغرب







السياسة التعليمية الفرنسية في المغرب "نحو فرنسة المجتمع المغربي"



يونس كبزيز
باحث في تاريخ المغرب

جاءت فرنسا إلى المغرب لغرض محدد (استكمال أجزاء مشروعها الاستعماري بشمال إفريقيا) ، ورصدت من أجل تحقيقه العديد من الوسائل و الكثير من الخبراء و العلماء في العديد من الميادين ، حيث لم تستثني السياسة الاستعمارية الفرنسية أي وسيلة ترى فيها أداة فعالة ، لخدمة أغراضها الاستعمارية ، فانتهجت بالموازاة مع سياستها العسكرية والاقتصادية، سياسة اجتماعية تهدف من خلالها إلى فرنسة المجتمع المغربي ، وجعله مجتمعا قابلا للاحتلال ، وهو مشروع كان قد بدأته البعثات العلمية إلى المغرب التي رفعت إلى إدارتها تقارير وافية عن المجتمع المغربي ، للأخذ بعين الاعتبار خصوصيات الشعب المغربي ، حتى يسهل تدجينه .

قامت هذه السياسة التي اتبعتها فرنسا اتجاه المغاربة و التي تسمى عند الاستعماريين "بالسياسة الأهلية" التي قادها بداية المقيم ليوطي ، على خلفية اجتثاث الجذور و محو الثقافة[128] حيث يلخص دانييل ريفي هذه السياسة الاجتماعية في أربعة ركائز:

- ✓ العمل على استمالة اليهود و المغاربة
- ✓ توفير إمكانيات الانخراط في منظومة الثقافة الفرنسية (التعليم)
- ✓ فرض العصرنة بالقوة (الجنود المغاربة بأوروبا)
- ✓ ترسيخ سياسة تجزئ المجتمع المغربي إلى عرب و بربر[129] و يهود

إذن اعتمدت فرنسا في عملية احتلالها للمغرب على سياسة الغزو السلمي ، التي انتهجت فيها أسلوب التقرب من المغاربة بواسطة الأعمال الاجتماعية ، التي دشنتها بعدد من المدن المغربية ، وكان التعليم أحد الركائز التي راهن عليها المحتل الفرنسي لفرنسة المجتمع المغربي و نشر الثقافة الفرنسية ، حيث قررت سلطات الحماية تنفيذ مشاريع و أفكار غلاة الاستعماريين[130] الذين ظلوا في محاضراتهم و كتاباتهم ينادون و يحضون على التصدي للإسلام و محاربته بكافة الوسائل ،و تهميش اللغة العربية ، لأنهما يقفان حجرة عثرة في وجه انتشار النفوذ الفرنسي و حضارة الغرب المسيحي[131] فانتهجت في ذلك سياسة تعليمية كان ليوطي واضع أسسها القائمة على الأهداف التي ذكرناها سابقا ، و توخت من سياستها التعليمية جعل الثقافة التي يتلقاها المغاربة محدودة حتى لا ينقلب من يتلقاها إلى مخلوق مفكر[132] الشيء الذي قد يشكل خطرا على الوجود الفرنسي بالمغرب و في ذلك يقول ليوطي " **علينا أن لا ننسى ... فنحن في بلد ابن خلدون [...] و ابن رشد ، و نحن لا نعرف ما قد تخفيه لنا بيوتات فاس و الرباط و مراكش[...]**[133] وصرح أيضا بفاس "**سأبذل كل جهدي من أجل الحفاظ على البنيات لكي تستمر كما كانت عليه الحال في السابق حتى يتسنى للزعماء الحكم و**

---

[128] بوزويتة (سمير) ،" الكتابة الكولونيالية (الجدوى و الحدود) "**المناهل** ، عدد 87 السنة 30 ، محرم 1431 هـ / يناير 2010 م ، ص : 32

[129] **نفسه** ، ص : 36

[130] **من أمثال جورج سردن ، جان كيرو ، هنري فال**

[131] العلوي، **المغرب من عهد الحسن الأول** ، ج 3 ، ص : 95

[132] عسه (أحمد) ، **المعجزة المغربية** ،دار القلم للطباعة ، الطبعة الأولى 1975، ص : 673

[133] العلوي ، **المغرب من عهد الحسن الأول** ، ج 2 ، ص 301

الآخرين الطاعة"[134] لقد كانت السياسة التعليمية الفرنسية بالمغرب تهدف إلى تهجين المغاربة و جعلهم محبين للعمل و النظام ، قابلين للتقرب من المستعمر باستعمال لغة فرنسية [135] كما هدفت إلى إنتاج فئات اجتماعية شبه أمية تتلقى تعليما مهنيا في المدن و زراعيا في البوادي و ذلك من أجل توفير اليد العاملة شبه الفنية للمستوطنين و مشاريعهم الفلاحية[136] و الصناعية ، فقامت الإدارة الاستعمارية بإنشاء مدارس رسمية ابتدائية و ثانوية متعددة الأسماء و المناهج ، تنافس المدرسة التقليدية التي عرفها المغاربة منذ ما قبل العهد الموحدي[137] ، فوجدنا مدارس فرنسية- عربية ، و مدارس فرنسية – بربرية إلى جانب المدارس الفرنسية – الإسرائيلية أو اليهودية ، مدارس أبناء الأعيان ، و في المقابل نجد المدارس الأوروبية التي تختلف مناهجها و الميزانية المخصصة لها عن باقي المدارس الموجهة للمغاربة ، و كانت فرنسا من خلال هذا التعدد ترمي إلى تمزيق الوحدة الوطنية للمغاربة[138] ، و لم تقتصر في مخططها هذا بل استهدفت المدرسة المغربية التقليدية في محاولة للقضاء على الثقافة الإسلامية والمدرسة التقليدية (الكتاتيب القرآنية) في آن واحد، حيث أدخلت الإدارة الاستعمارية في المقررات الخاصة بالمدارس الفرنسية العربية حصصا لحفظ القرآن ، حتى تضمن استقطاب عدد أكبر من التلاميذ المغاربة ــ لتهجنهم و تشبعهم بالثقافة الفرنسية و تعدهم ليصبحوا عمالا لهم في مصانعهم و ضيعاتهم ــ ، و قامت بتحديد حصص قليلة لها و هو ما يبينه الجدول التالي

جدول الحصص الأسبوعية للمواد المدروسة في المدارس الفرنسية- العربية[139]

المادة المدروسة	عدد الحصص في الأسبوع
القرأن + التاريخ الإسلامي + اللغة العربية	10 حصص
اللغة الفرنسية	20 حصة

134 اليزيدي ، أحمد ، "التنظير للتعليم الإستعماري بالمغرب" ، **مجلة أمل**، العدد 28 – 29 السنة 10 ،مطبعة النجاح الجديدة – الدارالبيضاء، 2003 ، ص 74

135 العلوي ، **المغرب من عهد الحسن الأول**، ج 2 ،ص : 300

136 عسه ، **المعجزة المغربية** ، ص : 672

137 بلكبير (محمد) ، **المنهاج التربوي بالمدرسة المغربية زمن الحماية ــ الأسس و الوظائف ـ** ،دار نشر المعرفة ،الطبعة الأولى ، مطبعة المعارف الجديدة ـ الرباط، 2003 ، ص : 59

138 عسه ، **المعجزة المغربية** ،ص : 674

139 عسه ، **المعجزة المغربية** ، ص : 674

كما كان غرض فرنسا من إدماج دروس تحفيظ القرآن و بعض الدروس الإسلامية في محاولة لتفادي ظهور أي حركات سرية مفكرة و مناهضة لها ، خاصة و أن الحركة العلمية بالعدوتين انطلقت من الكتاتيب القرآنية التي كانت تؤثث أحياء المدينتين ، بالإضافة إلى المساجد التي كانت الدروس العلمية تدرس فيها من الفجر إلى العشاء [140] ، و انطلاقا من معطيات الجدول السابق ، نلاحظ أن حصص اللغة الفرنسية أكبر من باقي حصص اللغة العربية ، فقد عملت سلطات الحماية بنصيحة قائدها ليوطي الذي قال عن اللغة الفرنسية المقررة في مقررات مدارس الحماية ، **بها سنتمكن من ربط تلاميذنا بفرنسا**[141]

هذا و قد تعمدت إدارة الحماية الفرنسية حرمان تلاميذ المدارس "الفرنسية – الأمازيغية" من تعلم اللغة العربية أو حتى النطق بها ، فكانت بذلك هذه المدارس فرنسية بالتعليم و الحياة و الأساتذة ، أمازيغية بالوسط و الأفراد ، تغيب فيها أدنى ثقافة عربية ، و قد انتهجت فرنسا في مخططاتها الاستعمارية على عنصرية كبيرة على جميع الأصعدة ، حيث أنها ركزت التعليم في مناطق دون أخرى ، فبالنسبة للتعليم الابتدائي اقتصر تقريبا على المدن ، حيث لم يتعدى عدد التلاميذ بالقرى 2524 تلميذ سنة 1939 و الجدول التالي يوضح ذلك :

عدد التلاميذ بالمدارس حسب إحصائيات 1939 م[142]

المدارس حسب المناطق	عدد التلاميذ و الطلبة
القرى	2.524
المدن	13.000
اولاد الأعيان	1.528
المدارس المتوسطية	695
المدارس الثانوية	323
المدارس المتوسطية البربرية	240
المدارس الثانوية البربرية	59

[140] الجراري(عباس) ، **أضواء على تاريخ الرباط المدينة و الجهة** ، منشورات النادي الجراري 21 ،د.ط، المطبعة الأمينية الرباط ، ذو القعدة 1422 هـ / يناير 2002 ، ج1، ص : 32 و ما بعدها

[141] الجابري (محمد عابد)، **أضواء على مشكل التعليم في المغرب** ،دار النشر المغربية، د.ط ، الدارالبيضاء ،د,ت، ص،: 19

[142] عسه ، **المعجزة المغربية** ،ص : 675

أنواع المدارس الموجهة للمغاربة بمجموع المغرب حسب إحصاءات نونبر 1931م[143]

أنواع المدارس	عدد المدارس	المعلمون الرسميون	المعلمون المعينون	عدد التلاميذ
المدارس الثانوية	3	45	9	692
أبناء الأعيان	6	29	14	1144
الصناعية	16	33	37	717
البنات	16	44	53	2824
الابتدائية	79	189	72	8249

إن المعطيات الواردة في هذه الإحصائيات لدليل واضح لا يدع مجالا للشك في النوايا الحقيقية من السياسة التعليمية الفرنسية ، خاصة إذا قمنا بعملية مقارنة بسيطة بين هذه البيانات و بين بيانات التعليم الأوروبي الموجه للفئات الأوروبية ، حيث نجد فروق كبيرة لا سواء على مستوى المواد المدروسة ،الميزانيات ، و أعداد التلاميذ المستفيدين ،لقد كان التعليم المدرسي الشامل بكل مراحله متوفرا لكل أبناء الجالية الأوروبية بدون استثناء منذ أن فرضت الحماية ، و بالمقابل لم يحظى أبناء المغاربة بشمولية التعليم أو بتوفره لكل المغاربة ، فإلى غاية سنة 1939 م كان عدد التلاميذ المغاربة الذين قبلوا في مدارس الحماية في مجموع التراب الوطني لا يتجاوز 26.000 تلميذ من أصل 1.200.000 طفل كانوا في سن التمدرس[144] و في مدينة الرباط وحدها كان عدد التلاميذ الأوروبيين في المرحلة الابتدائية وحدها يصل إلى 30.000 تلميذ و في المرحلة المتوسطية و الثانوية إلى 11.338 طالب و طالبة[145] .

لقد قامت هذه السياسة التعليمية على خطط المقيم ليوطي التي تهدف إلى تعليم أبناء النخبة دون غيرهم من المغاربة الذي طالهم التهميش ووجهوا إلى تعليم مهني (بالمدن) أو زراعي (بالأرياف) غير ذي أهمية ، و يقتصر على المستوى الابتدائي و قلة قليلة كانت تلتحق بالمرحلة

---

143 الحجوي الثعالبي محمد بلحسن ، **كناشة بنيقة المعارف** ، مخطوط الخزانة العامة الرباط ح.120 : ورقة 184

144 الحسن الثاني ، (ملك المغرب) ، **التحدي** ،منشورات المطبعة الملكية ، الطبعة الثانية ، الرباط ، 1983/1403، ص : 30

145 عسه ، **المعجزة المغربية** ، ص : 675

المتوسطية و الثانوية ، و التي تقف عندها الدراسة بالنسبة للمغاربة ، فإلى حدود الأربعينيات من القرن 20 م لم يكن من السهل على مغربي الولوج إلى مدرسة ثانوية وحتى الذين حالفهم الحظ و تمتعوا بالدراسة الثانوية لم يكن يسمح لهم بتقديم امتحانات الباكلوريا و كانوا يقتصرون على دبلوم نهاية الدراسة الذي لم يكن يخول لهم حق الالتحاق بالجامعة[146]، و كانت مدينة الرباط كغيرها من المدن المغربية تخضع لنفس السياسة التعليمية ، حيث أنشئت بها 4 مدارس فقط و هي :

المدارس بمدينة الرباط إلى غاية أكتوبر 1921 م[147]

المدارس	عدد التلاميذ	عدد مدرسي الفرنسية	عدد الفقهاء و مدرسي العربية
البنات	110	1	1
أولاد الأعيان	90	3	2
درب سيدي العكاري	164	4	1
المدرسة الثانوية	114	1	5
المجموع	478	9	9

إن الأرقام الواردة في هذا الجدول لدليل واضح على سياسة الميز بين الفئات المكونة للمجتمع الرباطي في التعليم ، حيث نرى أن مجموع تلاميذ هذه المدارس لم يتجاوز 480 تلميذ و هو رقم جد ضعيف إذا ما علمنا أن مجموع ساكنة الرباط بلغت خلال هذه السنة 29563 نسمة[148] و هو ما يقارب 4223[149] أسرة نووية ،أي أن 2,5% فقط من أطفال يتمدرسون ، و هو أمر كان يغيظ الوطنيين الغيورين على تعليم أبناء هذا الوطن ، فكان رد فعلهم أن ناضلوا من أجل تأسيس مدارس وطنية حرة غير تابعة لمناهج و مقررات الإدارة الاستعمارية و إن كانت

---

[146] الحسن الثاني ، **التحدي** ، ، صص : 39 ، 40
[147] الحجوي الثعالبي محمد بلحسن ، **كناشة بنيقة المعارف** ، مخطوط الخزانة العامة الرباط ح.120 : ورقة 220
[148] جازوليت ، الرباط من خلال الوثائق ، ص : 27
[149] على إعتبار أن كل أسرة تتكون من 7 أفراد : زوجين و 5 أبناء

خاضعة لمراقبة الفرنسيين بإشراف المندوب المخزني [150] و قد تأسس العديد منها في الرباط كما في مدن أخرى ، و الجدول التالي يعرض لبعض المدارس الحرة في عدد من المدن منها:

المدارس الحرة في عدد من المدن المغربية و من ضمنها مدينة الرباط[151]

المدينة	إسم المدرسة	سنة التأسيس
فاس	مدرسة السي بناني	1919
	مدرسة رحبة القيس	1920
	مدرسة الناصرية	1921
	مدرسة القلقليين	-
	مدرسة السلام التي اسسها المجاهد احمد مكوار	-
	مدرسة سيدي محمد بن عبد الله أو باب الحمراء	-
	مدرسة النجاح للفقيه السيد الهاشمي الفيلالي	-
الرباط	المدرسة المعطوية	-
	المدرسة الكتانية	-
	المدرسة الحراقية	-
	المدرسة الرحمانية	-
	المدرسة الغازية	-
	مدرسة جسوس أو مدرسة الحاج احمد بلافريج	1933
	مدارس محمد الخامس	1947
سلا	مدرسة النهضة	بداية الثلاثينيات
	مدرسة بالزاوية الغازية	أوائل العشرينيات
	مدرسة الفقيه سيدي محمد بن الحسين النجار	-
	مدرسة الفقيه الحاج بن امبارك العبادي	-
الدار البيضاء	مدرسة الشيخ محمد بن اليمني الناصري	1922
	مدرسة السيد محمد العربي العلمي	1941
	مدرسة النجاح	-
	مدرسة لحلو	-

إن إنشاء هذه المدارس كان بهدف تثقيف الشباب المغربي و إعطاء الفرصة للأطفال المغاربة للولوج إلى المدرسة و التعلم ، الذي كان مقتصرا على فئات معينة و مختارة ، كما كان الغـــرض من هذه المدارس الحرة تنشئة أجيال وطنية واعية مفكرة ، لتكسير و إفشال مخططـــات الحمايـــة الهادفة إلى تجميد الشباب المغربي في تفكيره التقليدي بالشكل الذي يضمن اســـتمرارية فرنســـا في المغرب . وقد نجحت هذه المدارس في تعليم ما يناهز 100.000 طفل مغربي [152] ـــ في المـــدن و البوادي ـــ لم يكن لهم الحظ في ولوج المدرسة من قبل .

خلاصة :

[150] الفيلالي (عبد الكريم)، **التاريخ السياسي للمغرب الكبير** ،شركة ناس للطباعة ،الطبعة الأولى ، القاهرة ، 20 غشت 2006 ، ج 9، ص: 273

[151] ـ العلمي (مشيش مصطفى) ،**المدرسة الوطنية و التربية و التعليم في القنيطرة و منطقة الغرب عهد الحماية وماذا بعد؟**، البوكيلي للطباعة والنشر و التوزيع ،الطبعة الأولى ، القنيطرة ، 2004، صص: 143 ، 144

[152] الحسن الثاني ، **التحدي** ، ص: 30

جاءت فرنسا إلى المغرب حاملة معها مخططات محكمة لاستغلال المغرب من جهة و لضمان استمراريتها فيه من جهة أخرى ، مستفيدة من تجاربها السابقة في مستعمراتها الأخرى (مدغشقر ، إفريقيا الغربية ، الجزائر ...) ، فكان من ضمن هذه المخططات ، مخططات الغزو السلمي ، من خلال ما قامت به من مشاريع اجتماعية ، (الصحة ، التعليم ، المراكز الخيرية ...) كان الهدف منها تدجين المغاربة و فرنستهم ، لكن الوطنيين المغاربة و قفوا بنضالاتهم أمام هذه المخططات ، التي كانت لها انعكاسات و آثار على المجتمع المغربي بشكل عام

المراجع المعتمدة

1. بوزوية (سمير) ،" الكتابة الكولونيالية (الجدوى و الحدود) "**المناهل** ، عدد 87 السنة 30 ، محرم 1431 هـ / يناير 2010 م
2. العلوي (زين العابدين) ، **المغرب من عهد الحسن الأول إلى عهد الحسن الثاني** ،دار ابي رقراق للطباعة و النشر، د.ط ، الرباط، 2009 ، ج 3
3. العلوي(زين العابدين) ، **المغرب من عهد الحسن الأول إلى عهد الحسن الثاني** ، edition idgal ، د.ط ، ج 2
4. عسه (أحمد) ، **المعجزة المغربية** ،دار القلم للطباعة ، الطبعة الأولى 1975،
5. اليزيدي ، أحمد ، "التنظير للتعليم الإستعماري بالمغرب" ، **مجلة أمل**، العدد 28 – 29 السنة 10 ،مطبعة النجاح الجديدة – الدارالبيضاء ،2003
6. بلكبير (محمد) ، **المنهاج التربوي بالمدرسة المغربية زمن الحماية – الأسس و الوظائف -** ،دار نشر المعرفة ،الطبعة الأولى ، مطبعة المعارف الجديدة ـ الرباط ،2003
7. الجراري(عباس) ، **أضواء على تاريخ الرباط المدينة و الجهة** ،منشورات النادي الجراري 21 ،د.ط، المطبعة الأمينية الرباط ، ذو القعدة 1422 هـ / يناير 2002 ، ج1،
8. الجابري (محمد عابد)، **أضواء على مشكل التعليم في المغرب** ،دار النشر المغربية، د.ط ، الدارالبيضاء ،د,ت،
9. الحجوي الثعالبي محمد بلحسن ، **كناشة بنيقة المعارف** ، مخطوط الخزانة العامة الرباط ح.120 : ورقة 184
10. الحسن الثاني ، (ملك المغرب) ، **التحدي** ،منشورات المطبعة الملكية ، الطبعة الثانية ، الرباط ، 1983/1403،
11. الفيلالي (عبد الكريم)، **التاريخ السياسي للمغرب الكبير** ،شركة ناس للطباعة ،الطبعة الأولى ، القاهرة ، 20 غشت 2006 ، ج 9
12. العلمي (مشيش مصطفى) ،**المدرسة الوطنية و التربية و التعليم في القنيطرة و منطقة الغرب عهد الحماية وماذا بعد؟**، البوكيلي للطباعة والنشر و التوزيع ،الطبعة الأولى ، القنيطرة ، 2004
13. جازوليت (خليل) ، **مدينة الرباط من خلال الوثائق و النصوص التاريخية** ، مطبعة بني يزناسن – سلا ، الطبعة الأولى، سلا ، 2007

أعلام ثقافية



وقفة علمية مع تلاميذ الشيخ ماء العينين بفاس



خالد الصقلي
باحث في تاريخ المغرب
كلية الاداب والعلوم الانسانية
ظهر المهراز ـ فاس

مقدمة تعريفية :

ظل شمال المغرب مرتبطا بجنوبه منذ الفتح الإسلامي عموما، ومع قدوم آل البيت النبوي خصوصا، حيث يتجسد ذلك في صفحات مشرقة من تاريخه سياسيا واجتماعيا وثقافيا. وقد فشلت المخططات الاستعمارية بفضل الروابط القوية التي ظلت قائمة بين سلاطين الدولة المغربية عموما والدولة العلوية خصوصا وبين الرعية. ويشهد التاريخ أن هؤلاء السلاطين أبلوا كل البلاء الحسن في الدفاع عن وحدة الوطن وتحقيق تنميته. مما كسر باستمرار مؤامرات أعداء المغرب الذين تظل وصمات عار في جبين هؤلاء الأعداء ومن يؤازرهم. وسيجرون باستمرار ذيول العار ويجرعون مرارة الهزائم.

وكما هو معلوم تعتبر الثقافة التي يشكل تاجها العلماء وراعيها هم السلاطين من معايير جس نبض الوحدة الوطنية، ومن مقاييس تجسيد هوية المغرب الحضارية المميزة دوليا. وقد ظلت الصلات الثقافية قائمة ومستمرة بين العلماء المغاربة في شمال المغرب وجنوبه في عدة مظاهر مما يتطلب بحثا علميا مستقلا بذاته. ومثال ذلك يذكر عبد السلام ابن سودة أن العلامة ماء العينين ابن محمد العتيق ابن الشيخ ماء العينين نزل ضيفا عليه بمقر سكناه بفاس واطلع على نفائس خزانته الأحمدية [1]وبالنسبة لبيت قصيد هذا البحث فكما هو معلوم يعتبر الشيخ أبو عبد الله محمد مصطفى ماء العينين ابن الشيخ محمد فاضل الشنجيطي الحسني الإدريسي رحمه الله أحد أبناء هذا الوطن الأبرار الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فهو المجاهد الصوفي والعلامة الموسوعي. ولقد تخرج على يديه تلاميذ من جل أنحاء المغرب [2]،وأصبحوا بدورهم من فحول العلماء. ويهتم هذا البحث بذكر نماذج منهم فالشيخ ماء العينين ظل طيلة نصف قرن، يتردد على سلاطين الدولة المغربية الشريفة لتجديد البيعة، والتشاور معهم في مختلف القضايا التي تهم الوطن، وبلغت زياراته لهم 14 زيارة، منها: 8 زيارة جرت في مراكش، وزيارتان بمكناس،وثلاثة زيارات بفاس، ومن بين هذه الثلاثة الأخيرة زيارة تمت في شهر رجب سنة 1324/غشت 1906. وأكرم وفادته بهذه المدينة رسميا، فضلا عن تعظيمه من قبل العلماء و أهلها. وأقيم له بها حفل كبير كما تحدث عن ذلك العلامة عبد السلام ابن سودة. وأسس بالعاصمة الروحية للمملكة المغربية بدعم كلي من الدولة العلوية الشريفة زاوية كانت تلقى بها الدروس العلمية المتنوعة، وتلقن بها أوراد الطريقة القادرية. وكانت توجد بها مكتبة نفيسة. وجعل مقدما عليها تلميذه العلامة المشارك العامل بعلمه الصالح أحمد بن محمد أنفال الملقب الشمس بن عبد المختار الحاجي المتوفى بالمدينة المنورة سنة 1342/1924.ونجد من بين تلامذته بهذه الزاوية: العلامة الشيخ محمد بن اليمني الناصري، والعلامة الشيخ محمد ابن الحبيب الأمغاري، والعلامة الشيخ أحمد بن محمد العمراني[3].

وساهمت هذه الزواية - كبقية الزوايا السنية المغربية المنوه بها- في خدمة الثقافة والهوية، علاوة على نشر القيم والمثل العليا [4] ،ولا تزال توجد هذه الزاوية وهي معظمة. وهي توجد بدرب السراج في زقاق يربط بين حي البطحاء وحي الطالعة الصغرى. ومن بين أبرز المدفونين بها كما وقفت عليه أخيرا أحد أبناء الشيخ ماء العينين، ونقش بشاهد قبره ما نصه:(الحمد لله وحده، اللهم صل على سيدنا محمد، هذا ضريح الشريف العالم الولي الشيخ حسن بن الغوث الفرد العالم

الشيخ ماء العينين المتوفى في 11 شوال عام 1294)ويوافق هذا التاريخ ميلاديا 19 أكتوبر 1877. وتبقى هذه الزاوية من الوثائق الذهبية حول مغربية الصحراء.وبالنسبة لتجليات هذا العرض فنجد عدة تلاميذ للشيخ ماء العينين بفاس. وقد أجازهم. ويذكر العلامة الشيخ عبد الحفيظ الفاسي عن ظاهرة إجازة علماء زاروا فاس مدة وجيزة لنخبة مثقفة ومنهم شيخه ماء العينين" :رأينا أناسا دخلوا لفاس مدة قصيرة، فاستجازهم الناس ورووا عنه. وبقي ذكرهم مخلدا في الدفاتر .[5]"وفي هذا الإطار يقول المرحوم العلامة محمد المختار السوسي"{...ناهيك ممن كان معه عشرة آلاف لا هم لهم إلا الدراسة، ذكورا وإناثا، ثم لما نزل سوس يوم هاجر تزنيت ملأت كتبه خزائن سوس وتلاميذه وتلميذاته كل أرجائه..}.[6] وهكذا نجد من بين هؤلاء التلاميذ ما يلي:

1.محمد العتيك بن محمد فاضل الشنكيطي :هناك نذرة المعلومات عن ترجمته. وهو الفقيه الشريف البركة المنيف، ذو الأدب الظاهر والنسك الباهر أبو عبد الله سيدي محمد المدعو العتيك، ابن محمد فاضل الشنكيطي الحوضي منشئا، والساقية الحمراء موطنا. وذكر محمد الكتاني في سلوة الأنفاس تلمذته على الشيخ ماء العينين .وكان له إلمام بالفقه والأدب ومشاركة في بعض العلوم وشهر بصلاحه. وجاء أجله بفاس في عام 1310/ (1892-1893)، وبرهنت مراسيم جنازته على سمو مكانته، حيث حضرها أعيان الحضرة السلطانية بجانب عامة الناس وخاصتهم، ودفن بالزاوية المنسوبة للشيخ الأكبر والغوث الأشهر سلطان الأولياء وقطب دائرة الأصفياء أبي محمد سيدي عبد القادر بن موسى الجيلاني [7]...

2.عبد السلام بن رزوق العرائشي :هو العالم العلامة الصالح الدراكة، ينتمي لسلالة ابن زروق بالعرائش، وهم من أولاد يحيى، وهي فرقة بني جبارة الكائنة في قبيلة بني غمارة وبني حسان، وقد ترجم صاحب كتاب (الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى) العلامة المؤرخ أحمد الناصري لبعض أقاربه. وقيل ولد عام 1258/(1841-1842). وقيل في حدود سنة 1265هـ/ (1848-1849م)،وقد رحل إلى فاس سنة 1283هـ/(1866-1867م) فأخذ العلوم بها عن أبي العباس أحمد بناني وأبي عيسى ابن سودة وأبي عبد الله جنون وغيرهم كثير. وأجازه أبو عبد الله جنون إجازة عامة، والطاهر بن عبد الكبير الفاسي بمرويات محمد صالح الرضوي البخاري،

والشيخ ماء العينين بأوراد وأحزاب ووظائف الشاذلية وتلقى عنه أيضا الطريقة الناصرية، وأخذ دلائل الخيرات عن أبي إسحاق إبراهيم بن محمد السوسي، وأخذ الطرقة الناصرية أيضا عن أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الناصري، وأخذها أخيرا سنة 1324هـ / (1906-1907م) عن الشيخ الصالح المعمر أبي سالم عبد الله المغراوي المراكشي، وكان قد تجاوز المائة وعشرين سنة، عن الشيخ أبي الحسن علي بن يوسف الناصري والد الشيخ أبي بكر .ونجد من إجازاته إجازة عامة للعلامة الشيخ عبد الحفيظ بن محمد الطاهر بن عبد الكبير الفاسي في 3 رجب سنة 1328هـ/12 يوليوز 1910م بمدينة العرائش، وصفوة القول لقد كان عالما مشاركا في عدة علوم كالفقه والحديث، وماهرا في التنجيم والتعديل، وميالا إلى التصوف، وكثير الأذكار والأوراد مع التقشف والقناعة، ومشتغلا بما يعنيه وما هو مكلف به من التوقيت بمنار الجامع بالعرائش. وقد أثنى عليه العلماء وذكروا علمه وفضله. وتوفي ببلده سنة 1910/1328. قيل في متم شهر شوال/3 نونبر1910م وقيل منتصف الشهر الموالي ذو القعدة/ 18نونبر 1910م .[8]

3.محمد القادري :هو أبو عبد الله محمد فتحا بن أبي القاسم الشريف القادري الحسني العالم العلامة المشارك المحقق. وقد ولد في ذي القعدة الحرام عام 1259هـ/(نونبر -دجنبر1843م). وتتلمذ على يد والده وعلى مجموعة من فحول العلماء، كأبي العباس المرنيسي، وأبي عيسى ابن سودة، وسميه ابن الحاج، وأبي العباس بناني، وأبي عبد الله القاضي العلوي، وأبي محمد عبد الله البكراوي، وأبي مروان عبد الملك العلوي، وأبي العباس السريفي العلمي ...،وأبرز مقروءاته عليهم في فهرسته المنشورة، وأخذ الطريقة القادرية عن الشيخ ماء العينين بسنده. وأورد في هذه الفهرسة قصيدة من نظم العلامة السالف الذكر بمقدمة هذا العرض أحمد بن الشمس وتقع في 47 بيتا، وتتعلق بسند الشيخ ماء العينين فيما يتعلق بالطريقة القادرية. ويقول ضمن هذا النظم ما نصه:

حتى هداني إلى قطـــب الـــورى	ومـــن به إمام صار مـــن ورا
أستاذنا الأجل مــــــاء العينـــين	غيث البـــرى غزالة الكونيـــــن [9]

وقد كان عالما عارفا من أهل النظر والبحث، وقائما على المسائل مشاركا في كثير من الفنون. ودرس الفقه والأصلين والكلام. وكان ممن انتهت إليه الرئاسة العلمية في عصره، وكان راضيا بالقليل. وتعاطى الإفتاء. ودعي لتولي القضاء فامتنع لشدة ورعه. ولما زار ضريح المولى

إدريس الأول بزرهون احترم به وتمت الاستجابة لرغبته، وجاء أجله بعدما صلى صلاة العصر يوم الأربعاء 13 رجب الفرد الحرام عام 1331هـ/15 أبريل 1918م، ودفن بروضة الصقليين داخل باب العجيسة بفاس بعد الصلاة عليه صلاة المغرب بجامع القرويين. وأثنى عليه رحمه الله بعد وفاته جماعة من العلماء، ومنهم تلاميذته كالقاضي محمد بن أحمد العلوي، ومحمد بن الحسن الحجوي، والحسن بن محمد الزرهوني، وأحمد بن المامون البلغيثي، ومحمد بن أحمد ابن الحاج السلمي. وبالنسبة لإنتاجه الفكري فقد شرح وألف عدة مؤلفات في عدة علوم نقلية وعقلية ونجد منها ما يلي:

- البستان السني في النسب الحسني والحسيني
- حاشية على الأربعين النووية
- حاشية على شرح كنون على الشمائل
- حاشيته الكبرى على شرح الشيخ الطيب ابن كيران على توحيد المرشد المعين في جزئين
- حاشية على شرح الشيخ جسوس على الشمائل
- حاشية على شرح الأزهري على البردة
- حاشية على الأربعين النووية ودفع العتاب والملام عمن قال العمل بالحديث الضعيف حرام. (طبعت بمطبعة محمد أفندي مصطفى سنة 1307هـ)
- ختمتين للمختصر (طبعت إحداهما بفاس الطبعة الأخيرة سنة 1308هـ)
- تأليف في كراهة القبض في الصلاة
- فهرسة بعنوان إتحاف أهل الهداية بما لي من الأسانيد والروايات.نشرت بدار ابن حزم في بيروت سنة 1424/ 2004[10]

4.المهدي الوزاني :هو أبو عيسى ابن محمد بن محمد العمراني الوزاني. ويرجع أصل سلفه إلى مصمودة إحدى قبائل غمارة. وهم ينتسبون للنسب الشريف من فرع الشرفاء العمرانيين، ويعرفون بأولاد أمقشار. وولد المترجم بمدينة وزان سنة 1266/(1849- 1850)، ثم انتقل إلى مدينة فاس من أجل نهل العلوم. فاتخذها دارا وموطنا،ونجد من شيوخه ببلاده أحمد بن حسون

العمراني، ومحمد الصواف، ومحمد الغنضور .ونجد من شيوخه بفاس عمر ابن سودة وصالح التادلي وجعفر الكتاني و عبد الملك العلوي والشيخ ماء العينين كما ذكر بفهرسته.

ويعد المترجم من أشهر علماء المغرب ومن أئمة الفقه به. وكان مشاركا في كثير من العلوم، وعارفا بالنوازل الوقتية وأحكام المعاملات. وكان مرجوعا إليه فيها من سائر أقطار المغرب. وألف فيها المؤلفات العظيمة وتناقل الناس صدى علمه حتى بلغ أقصى السودان الغربي، فضلا عن الجزائر وتونس. وكان دؤوبا على نشر العلم تأليفا وتدريسا .[11]وتوفي رحمه الله ليلة الأربعاء فاتح صفر الخير عام 1342هـ/13 شتنبر 1922م .وذكر عبد الحفيظ الفاسي أنه دفن بعد زوال اليوم المذكور بروضة جده أبي المحاسن يوسف الفاسي خارج باب الفتوح في فاس. بينما ذكر عبد السلام ابن سودة أنه حضر جنازته وأنه دفن بروضة الشاميين بالقباب خارج باب الفتوح. وقد أثنى عليه جماعة من العلماء ومنهم تلاميذته الذين تذكر مصادر ترجمته أن عددهم هو كثير، ونجد من بينهم محمد الطيب النيفر الذي ألف في فضائل هذا الشيخ .[12] وبالنسبة لإنتاجه الفكري نجده شرح وألف عدة مؤلفات في علوم نقلية وعقلية منها ما يلي:

- كتاب النوازل الكبرى في عشرة أجزاء
- كتاب النوازل الصغرى في أربعة أجزاء
- شرح على العمل الفاسي
- حاشية على الشيخ محمد التاودي ابن سودة على تحفة ابن عاصم
- حاشية على شرح المرشد لميارة
- حاشية على شرح السوداني على الأجرومية
- حاشية على المكودي على الألفية
- حاشية على شرح الجد علي الطرفة في اصطلاح الحديث
- تأليف في إباحة ثوب الخز للرجال
- تأليف في الرد على الإمام محمد عبده في مسألة منع التوسل إلى الله بالأولياء والأنبياء عليمهم الصلاة والسلام
- تآليف في كراهة القبض في الصلاة

✍ تأليف في الفرق بين الطلاق البين والطلاق الرجعي

✍ بغية الطالب الراغب القاصد في إباحة صلاة العيدين في المساجد

✍ فهرسة نشرت في المطبعة الحجرية الفاسية وكذلك من قبل دار ابن حزم في بيروت [13]

5.أحمد ابن الخياط :هو الإمام العلامة النظار المحدث الأصولي الفقيه المعمر أحمد بن محمد بن عمر الزكاري الحسني الشهير بابن الخياط، شيخ الجماعة ورئيس المجلس العلمي بفاس في عصر ه،ولقد ولد في منتصف شعبان سنة 1252هـ/26 نونبر1836م. وكان علما من أعلام مشيخة حاضرة فاس وصدرا من صدور علماء المغرب، وكان بدون منازع إماما في الأصلين والفقه والفرائض، ومتبحرا في النوازل الوقتية، وبصيرا بمعانيها، وعارفا بعللها وأحكامها، ومرجوعا إليه في كثير من مهماتها، ومشاركا في عدة علوم كالحديث والتفسير والعربية والمعاني والبيان والقراءات...، وكان قوي الإدراك وجيد الفهم، وسديد النظر، و مثابرا على تلقين العلم، ودؤوبا على نشره تأليفا وتدريسا. وكان صدرا حاضرا في مجالس الشورى ومعظما عند الولاة.

أخذ العلوم عن فحول من العلماء كأبي عبد الله محمد صادق بن الهاشمي العلوي دفين مراكش، وأبي العباس أحمد بن أحمد بناني كلا، و أبي عبد الله محمد بن المدني جنون وأبي سالم عبد الله البكراوي، وأبي العباس أحمد بن محمد بن الحاج، وصالح بن المعطي السوسي المدعو التادلي، وأبي القاسم القادري. وقد بين مقروءاته عليهم في فهارسه الثلا ث،وبالنسبة للشيوخ الذين أجازوه فنجد منهم المولى محمد الصادق العلوي، وصالح التادلي، ومحمد بناني المراكشي وأحمد ابن الحاج. كما أجازه الشيخ ماء العينين، وسمع منه الكثير من العلوم، وأذن له بتلقين ورد السادات النقشبندية وغيره من سائر أوراد الشيوخ رضي الله عنهم كما يذكر ذلك في فهرسته الصغرى. وفي هذا المضمار نجد مما يصفه به ما نصه:(...الشيخ العلامة الإمام الحبر البحر النحرير الهمام شيخ الشيوخ الرباني العارف بالله...كهف الضعفاء مأوى الغرباء..)[14] ،وأخذ الطريقة الناصرية عن محمد بن أبي بكر الناصري، وأخذ الطريقة الدرقاوية عن ابي مالك عبد الواحد بناني، وأخذ دلائل الخيرات عن أبي إسحاق إبراهيم السوسي. ومن عجيب خبره أنه لما عمر ضعفت ذاكرته حتى صار لا يعرف أولاده ويسأل عنه إذا دخلوا عليه، فإذا حضرت الصلاة أو ذكر العلم حضر ذهنه ورجعت إليه ذاكرته، فكان يؤدي الصلاة بفرائضها وسننها، ويتذاكر في العلوم مستحضرا لمسائلها

ولقواعدها. وتوفي رحمه الله يوم الاثنين 12 رمضان سنة 1343هـ/8 أبريل1924م، ودفن بروضة في حي الرميلة في عدوة فاس الأندلس...، وأثنى عليه جماعة كبيرة من العلماء ومنهم تلاميذته كأحمد الزرهوني وعبد الحفيظ الفاسي و محمد بن الحسن الحجوي. وبالنسبة لإنتاجه الفكري فقد ألف وشرح أزيد من مائة كتاب في علوم نقلية وعقلية، ونجد منها ما يلي:

- حاشية على شرح الجدابي السعادة محمد بن عبد القادر الفاسي في المصطلح
- حاشية على شرح الخرشي على فرائض المختصر
- تجريدة للمسائل العلمية التي اشتملت عليها طبقات السبكي
- تأليف في العقائد على مذهب المتكلمين ، وهو ما يدل على طول باعه وشدة تدقيقه وتحقيقه
- رسالة منشورة في موقعي على الرابطattarikh.tk :
- رفع اللجاج والشقاق عن حكم البينونة في الطلاق عند الإطلاق
- ثلاث فهارس [15]

6.محمد الكتاني :هو العلامة التقي أبو عبد الله ابن جعفر الإدريسي الحسني الكتاني، ولد سنة 1274ه /(1857-1858م) بفاس، وقرأ القرآن وحفظ أهم المتون ثم شرع في نهل العلوم في جامع القرويين والزاوية الكتانية بالقطانين بفاس، ثم درس على أئمة العلوم وفحول أساتذة عصره كوالده شيخ الجماعة جعفر بن إدريس الكتاني، وأحمد بن أحمد بناني، و محمد بن عبد الرحمان العلوي المدغري، ومحمد بن عبد الواحد التاودي ابن سودة المري، وعبد الملك بن أحمد السجلماسي. وتخرج عليهم في علوم الفقه والحديث والتصوف والأصول والنحو واللغة والتصريف والتوحيد والمصطلح والمنطق والعروض والبلاغة [16]...كما لقي أجل شيوخ التربية والعلم في المغرب والمشرق وأخذ عنهم وأجازوه بالطرق الصوفية والأذكار والأوراد. وكان من بين أبرزهم الشيخ ماء العينين .ونجد مما يذكره الكتاني في حق هذا الشيخ:(لقيته رحمه الله داخل فاس وخارجها مرارا وتبركت به واستنفذت منه. وكنت قبل استجزته كتابة فأجازني بها قائلا في مكتوبه:" ولك الإذن فيما شئت من كتب وأوراد وأدعية وأحزاب فإن في نعت البدايات وفاتق الرتق، يعني: من من كتبه ما يشبع ويكفي وأجزناك في ذلك كله ويأتيك إن شاء الله ما تحبه

بالتمام وعلى المحبة والسلام)، ويضيف الكتاني قائلا :(ثم بعد ملاقاته أجازني أيضا لفظا إجازة عامة، وأذنني في طريقتهم القادرية المعروفة، وفي الإسم الأعظم عربيا وعجميا وحضني على العربي، وقال:"لأنه لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم .[17] {"ويذكر كذلك أنه أخذ عنه الطريقة القادرية بسنده عن آبائه إلى الشيخ أحمد زروق الفاسي بسنده إلى الشيخ المولى عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه[18] ، وقد وصف العلامة أحمد الرهوني شيخه العلامة محمد الكتاني بقوله :(هو من الرجال العظام الذين لا تفي الدفاتر العديدة بترجمتهم لما اجتمع فيه من شرف النسب وكرم الحسب والعلم والأدب والزهد والورع والمشاركة في جميع العلوم وتحرير المنطوق منها والمفهوم...، والفناء في محبة الله ورسوله وآل بيته الكرام وأولياء الله العظام" وقال أيضا :"سيدنا الشيخ بحر المسائل الصعبة كلها وذلك على طريق الاجتهاد...". وقد حباه الله من التواضع والانصاف القسط الوافر حيث كان يتنازل لاقل الطلبة وينصت لارائهم ويسترسل في البحث حتى يتبين الحق).

وكان قد زار الحرمين الشريفين مرتين في سنة 1325هـ/1907م، وفي سنة 1345هـ/1926م. ومنها انتقل إلى الشام سنة 1336هـ/1917م. وخلال زيارته للمشرق ألقى عدة دروس علمية. والتقى الأخيار والعلماء من أهلها...، واستجاز جماعة منهم كما أجاز منهم الكثير. وعاد إلى فاس سنة 1345هـ/1926م.[19] .

وتوفي رحمه الله يوم 15 رمضان 1345هـ /20 مارس 1926م بمنزله بحي سبع لويات، ودفن أولا بروضة الشرفاء الكتانيين عند مصلى باب الفتوح. وصلى عليه شيخ الجماعة العلامة أحمد بن الجيلاني. وكان جنازته عظيمة حضرها العام والخاص كما شهد بذلك مقربوه ومعاصروه. وفي هذا الصدد ذكر تلميذه العلامة عبد السلام ابن سودة أنه بلغ عدد الحاضرين لجنازته بدون مبالغة حوالي 50 ألف مشيعا مما لم يره طول عمره .[20]ونقل أهله جثمانه إلى مقر دفن آخر. ويقول صاحب منطق الأواني أنه عند فتح قبره الأول} :فاحت روائح المسك والطيب...،ولم تؤثر فيه الأرض شيئا . [21] {...ودفن المرة الثانية بزاوية توجد بحي الصفاح في عدوة فاس الاندلس ليلا في محفل رهيب حضره عشرات الآلاف يوم الاثنين متم ربيع الثاني عام 1347/ 15 أكتوبر 1928 ،,بالنسبة لإنتاجه الفكري فقد ألف وشرح أزيد من ستين كتابا في علوم نقلية وعقلية منها على سبيل الذكر لا الحصر:

- الإجازة الأيوبية في ذكر مشيخة العلم والأسانيد والطرق الصوفية
- الأزهار العاطرة الأنفاس بذكر محاسن قطب المغرب وتاج مدينة فاس
- إسعاف الراغب الشائق بخبر ولادة خير الأنبياء وسيد الخلائق
- سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس
- اليمن والإسعاد بولادة خير العباد
- نيل المنى وغاية السؤل بذكر معراج النبي المختار الرسول صلى الله عليه وسلم

ونجد التنويه به من قبل جل العلماء ومنهم تلامذته كما هو الشأن بالنسبة لعبد السلام ابن سودة ،ومحمد مخلوف التونسي.

7.محمد بن إدريس القادري :هو العلامة الشيخ المطلع النحرير محمد بن إدريس بن محمد القادري الحسني، ولد سنة1291هـ/(1874-1875م). أخذ العلوم عن جماعة من فحول العلماء منهم الشيخ قاسم القادري الحسني، والشيخ أحمد ابن الخياط الزكاري، والشيخ جعفر بن إدريس الكتاني والشيخ عبد الهادي بن أحمد الصقلي، والشيخ ماء العينين .وأجازه الشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني نزيل دمشق الشام إجازة عامة وغيره من علماء المشرق، كما أجازه محمد بن عبد الرحمان البريبري، وأجازه بالطريقة الدرقاوية محمد بن الأعرج عن الشيخ العربي الدرقاوي بسنده، وأجازه بالطريقة القادرية الشيخ التهامي بن محمد الحداوي الشاوي وغيرهم من الشيوخ.و كان محافظا على العلم حريصا على تدريسه وتلقينه وحفظه بمسقط رأسه الجديدة حيث ناهزت مؤلفاته 50 كتابا. وقد توفي رحمه الله يوم الأحد 8 ربيع الثاني سنة 1350هـ/23 غشت 1931م، ودفن بزاوية القادريين بالجديدة.وبالنسبة لإنتاجه الفكري فقد ألف وشرح عدة مؤلفات في علوم نقلية وعقلية ذكرها في آخر تآليفه الذي سماه "إزالة الدهش والواله في صحة حديث ماء زمزم لما شرب له" وهو مطبوع بمصر سنة 1330هـ/ (1911 -1912م). ونذكر منها على سبيل الذكر لا الحصر:

- الأحاديث المستطابة في بعض ما ورد في فضل الدعاء وشروط الإجابة
- فتوح الغيب في ترجمة أبي مدين شعيب
- الالماع بما يتعلق بشيء من مسالة الرقص والسماع
- الالهامات المنامية بالفيوضات الالاهية

- الدرر المبتهجة في شرح قصيدة المنفرجة
- استجلاب الامداد بذكر اداب الاوراد
- القول الراقي في حل ما اشكل من الفية وشرح الحافظ العراقي
- بلوغ الرضا بشرح الدرة البيضا
- تحريك كامن الاشواق الى معرفة بعض كرامات قطب العراق.
- الحلل السندسية الى طلب الاذن في الطريقة المحمدية القادرية[22].

8.أحمد العمراني :هو العلامة المشارك المدرس المحدث النحرير أحمد بن محمد الخضر بن الفضيل بن عمران الحسني الجوطي العمراني، ولد في ربيع الأخير سنة 1297هـ/ (مارس/أبريل 1880)،وأخذ العلوم عن جماعة من الشيوخ في جميع ربوع المملكة المغربية: فبفاس تتلمذ على يد شيوخ أجلاء نذكر منهم بفاس الشيخ الكامل بن محمد الأمراني الحسني والشيخ محمد بن ادريس القادري والشيخ محمد بن محمد زويتن والشيخ الهاشمي الزرهوني. وفي مراكش أخذ عن الشيخ محمد المحجوب المراكشي والشيخ محمد أمان بن عبد السلام بوستة صاحب كتاب الصلوات على منوال الذخيرة، كما أجازه إجازة شفاهية في صحيح البخاري الشيخ فتح الله بناني. وأخذ عن الشيخ عبد الواحد الكتاني ووالد الشيخ محمد الكتاني، كما أخذ عن الشيخ ماء العينين وانتفع به كثيرا. وأخذ عن والد شيخه العلامة الشيخ أحمد الهيبة وعن خليفته بزاوية فاس الشيخ أحمد الشمس. كما تلقى الطريقة الدرقاوية عن الشيخ المفضل العلمي نزيل جبل الحبيب بناحية تطوان، والطريقة التجانية عن الشيخ امحمد كنون، والطريقة الكنتية عن الشيخ محمد بن احمد الغياتي، والوزانية عن الشيخ محمد بن علال الوزاني. وخالط غيرهم من الشيوخ والعلماء الأجلاء. وتوفي بفاس رحمه الله في 3 ذي القعدة سنة 1370هـ/ 6 غشت 1951م. ودفن بضريح الشيخ محمد ابن الفقيه بالمدارج السفلى بحومة العيون. وله عدة تآليف في موضوعات مختلفة منها فهرست في سفر وسط، وتآليف عن أسرته [23] .وبالنسبة لإنتاجه الفكري فقد ألف وشرح عدة مؤلفات في علوم نقلية وعقلية تبرز ثقافته الموسوعية، نذكر منها حسب ما جاء في آخر فهرسته ما يلي:

- التنبيه والإعلام فيما ثبت في شهور العام

- ترغيب العباد فيما ينفع في يوم المعاد
- تأليف في اصطلاح الحديث
- تأليف في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم
- تأليف في آل البيت النبوي
- شرح عقيدة الشيخ ماء العينين كبير وصغير
- الزهر الفائح في الكلام على الذبائح
- الجواهر الحسان في عد شعب الإيمان
- بلوغ السعود والتهاني في ختمة رسالة أبي زيد القيرواني
- تحفة الأتقياء في تراجم بعض المشهورين من العلماء والأولياء ــ مؤلف لم يتممه رحمه الله ــ [24]

9.محمد حَدُو العراقي :هو العلامة ابن عبد الله الحسيني. نجد من شيوخه: الشيخ محمد بن رشيد العراقي، والشيخ المهدي بن رشيد العراقي، والشيخ أحمد بن الخياط والشيخ أحمد بن الجيلاني الأمغاري، والشيخ عبد الله الفضيلي، وكذلك نهل العلوم العقلية والنقلية مباشرة من الشيخ أبي شعيب الدكالي والشيخ ماء العينين بفاس. وكان كريما جوادا، يحب مجالس العلم والعلماء ويستصيغ الجلوس إليها والتمتع بحديثها، كما كان غيورا على وطنه ومشجعا الوطنيين المغاربة، ومعينا لهم ماديا وأدبيا عن طريق السر تصدر للعدالة فكان بها مثال النزاهة والشرف والإخلاص، كان يقصد فيها لأنه كانت له اليد الطولى رحمه الله في قوانينها وشعابها. وتوفي رحمة الله عليه سنة 1371هــ/(1951-1952م [25]).

10.عبد الحفيظ الفاسي :هو العلامة ابن محمد الطاهر الفاسي، نجد من اجداده العلامة والصوفي الكبير أبي المحاسن يوسف بن محمد القصري الأندلسي. وانتقل أجداده من القصر الكبير إلى فاس في أواسط القرن 9هــ/15م. وولد عبد الحفيظ بهذه المدينة الأخيرة سنة 1296هــ/1879م. وأخذ العلوم عن فحول من العلماء بالمغرب وخارجه وذكر في كتابه "معجم الشيوخ" منهم 113 شيخا، ومنهم الشيخ أحمد بن مبارك الصحراوي ومحمد المختار السوسي والشيخ ماء العينين ومحمد بن جعفر الكتاني وعبد الرحمان بن الطيب الدرقاوي وأحمد ابن الخياط

الذي ورد نص إجازته له في الفهرسة الكبرى لابن الخياط نفسه .[26]وتولى القضاء. وكان كريما يطعم الصادر والوارد. ولا ينقلب جليسه إلا بانشراح وفوائد .[27]وكان مشاركا في علوم كثيرة، ومستحضرا للتواريخ القديمة والنوادر اللطيفة استحضارا عجيبا [28] وهو أديب بارع، وكاتب مبدع، ومحدث ثقة، حيث خدم علم الحديث والرواية واعتنى بذلك وألف فيه.و توفي رحمه الله في صباح يوم الأحد 24 رمضان عام 1383هـ/ 9يبراير 1964م، ودفن بمقبرة شالة بالرباط قرب قبر جده عبد الكبير المدفون. وأثنى عليه الكثير من تلامذته ونموذجهم العلامة عبد المجيد الفاسي الذي أجازه إجازة عامة وهي مطبوعة في كتابه المسمى:" الإسعاد بمهمة الإسناد .[29]"وكذلك العلامة عبد السلام ابن سودة في كتابه سل النصال، وذكر هذا الأخير أنه أجازه، وأنه كانت له خزانة نفيسة .وبالنسبة لإنتاجه الفكري فقد ألف وشرح عدة مؤلفات في علوم نقلية وعقلية تعد غاية في الجودة والتحرير والدقة. وطبع منها ما يلي :

- استنزال السكينة الرحمانية بالتحديث بالأربعين البلدية
- الإسعاد بمهمات الإسناد
- الآيات البينات في شرح وتخريج الأحاديث والمسلسلات
- معجم الشيوخ المسمى برياض الجنة أو المدهش المطرب

ولا زال مخطوطا منها ما يلي:

- الترجمان المعرب عن أشهر فروع الشاذلية بالمغرب
- أشهر مشاهير العائلات بالمغرب
- مجموعة من التراجم كتبها وعرف فيها بالشيوخ الذين أجازوا والده محمد الطاهر وجده عبد الكبير الفاسي
- سلسلة محاضرات القاها في نادي المسامرات في المدرسة العليا بالرباط سنة 1341هـ/1922م

ومن كتبه المجهولة المصير ما يلي:

- o شذور العسجد في ذيل عناية أولي المجد
- o روضة الجنات في ذكر شيخنا الوالد وأشياخه وما لهم من المناقب والحسنات وخبايا الزوايا

رسالة في طائفة هداوة الموجودين في المغرب وأصلهم وأحوالهم[30]

11.محمد الأمغاري :هو العلامة المشارك ابن الحبيب الأمغاري الحسني الفيلالي. من ذرية الشيخ مولاي عبد الله بن حسين دفين تامصلوحت حوز مدينة مراكش. ولد سنة 1295هـ/1878م. وكان له مريدين وتلامذة في سائر أرجاء المغرب عموما وفي الصحراء المغربية خصوصا. ونهل العلوم بفاس واستقر بها مدة وأخذ العلوم عن أبرز شيوخها وقتئذ كالشيخ قاسم القادري الحسني والشيخ عبد الله بن الشيخ إدريس الحسني البدراوي والشيخ أحمد بن محمد ابن الخياط، والشيخ أحمد ابن الجيلالي الأمغاري. وكان هو السارد بين يديه في قراءة كتاب مختصر الخليل كما أخذ علم التصوف على يد الشيخ الجليل محمد بن عبد الواحد الحلو الفاسي وعن الشيخ أحمد شمس، وعن الشيخ ماء العينين الذي أذن له في سائر العلوم. كما تلقى أوراد الطريقة الدرقاوية عن الشيخ البدوي زويتن بسنده. واشتغل الشيخ محمد ابن الحبيب الأمغاري بتدريس العلوم وتصدر للمشيخة فنفع الله به الخلق علما وعملا. وقد تفرد في عصره بإلقاء دروس في علم التفسير بمسجد قصبة الأنوار في باب محروق بفاس، وجاء أجله رحمه الله في طريقه لأداء مناسك الحج المرة الثالثة في البليدة بالقطر الجزائري في يوم 23ذي القعدة سنة 1391هـ/ 10يناير1972م، ثم نقل إلى زاويته بمدينة مكناس التي ووري جثمانه بها. وألف عدة مؤلفات ونظم عدة أشعار.[31]

خاتمة :

وصفوة القول إن العلامة الشيخ ماء العينين رحمه الله قد أبلى كل البلاء الحسن في خدمة وطنه ومجتمعه، وتعددت مجالات مساهماته، منها الجانب الثقافي الذي نجد من تجلياته من جهة مؤلفاته النافعة التي تجسد ثقافته الموسوعية التي سيظل معينها لا ينضب، وتفيد سواء الصوفية السنة أو الباحثين في عدة تخصصات إنسانية نظرا لكون ما ينفع الناس يمكث في الأرض، ومن جهة ثانية نجد تلامذته حيث إن قسما ضئيلا منهم هو بيت قصيد هذا العرض، وقد كان تلامذته الذين يمكن أن يشكلوا معجما مستقلا بذاته على شاكلته في الصلاح وخدمة الوطن والعطاء العلمي الزاخر. وتبقى زاوية ماء العينين بفاس وتلامذته بها وثيقة تاريخية كبيرة سواء عن مغربية الصحراء أو العلاقات الوطيدة والشاملة التي ظلت قائمة بين شمال المغرب وجنوبه برعاية سلاطين الدولة

العلوية الشريفة. ومن باب الفضول العلمي أتساءل عن مصير مكتبة الشيخ ماء العينين التي استولت عليها فرنسا بمدينة السمارة سنة 1913م.

ومن باب الواجب أوجه خالص الدعاء للعاهل الكريم جلالة الملك محمد السادس حفظه الله ووفقه الذي وصف الشيخ ماء العينين بـــ"الرمز الشامخ"، وببذله نصره الله وأعزه كل المجهودات في الدفاع عن وحدة الوطن وحماية أراضيه وتحقيق التنمية الشاملة له. وتعد كل خطبه وثائق تاريخية نفيسة، ومنها خطبة ألقاها بمناسبة الذكرى 30 للمسيرة الخضراء، حيث يقول ضمنها:{...وقد شهدت أقاليمنا الصحراوية، بعد تصفية استعمارها سنة1975، تنمية شاملة، حولتها إلى مدن وحواضر، تنعم بالأمن والاستقرار والازدهار، بفضل تضحيات جميع المغاربة، مدنيين وعسكريين .وبفعل التضامن الوطني القوي، فقد اندمجت فيما قطعته بلادنا من أشواط متقدمة، على درب التطور الديمقراطي والاقتصادي والاجتماعي كما وقفت بصمود، في مواجهة المؤامرات المكشوفة، لخصوم وحدتنا الترابية للنيل من مغربيتها...} [32]

وبالرغم من مناوراتهم اليائسة، فإن المغرب، القوي بعدالة قضيته، وإجماعه حول عدم التفريط في شبر من صحرائه، قد ظل حريصا على التشبث بوشائج الأخوة وحسن الجوار، وانتهاج الحوار، والجنوح إلى السلم، والتحلي بالحكمة والتعقل .وإننا لمؤمنون بأن الأخذ بهذه الفضائل، هو السبيل القويم، للخروج من النفق الطويل لهذا النزاع المفتعل، إلى رحابة فضاء التعايش والوئام، الكفيل بتجسيد تطلعات الأجيال الصاعدة، إلى الوحدة وبناء مستقبل مغاربي مشترك والله ولي التوفيق.

الهوامش:

[1]انظر :سل النصال بالأشياخ وأهل الكمال (فهرس الشيوخ)، لعبد السلام ابن سودة، تحقيق:محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1417/ 1997، ص .166وقد وردت ترجمة للشيخ ماء العيينين بن محمد العتيق المذكور في كتاب" :المعسول" لمحمد المختار السوسي، ج4، ص294.

[2]انظر :اتحاف المُطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع، لعبد السلام ابن سودة، تحقيق: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 19971417 / ،ج1، ص385.

[3]انظر عن تلامذة الشيخ أحمد شمس بزاوية الشيخ ماء العينين بفاس:

•العلامة المشارك الشيخ أحمد بن محمد العمراني توفي يوم 3 ذي القعدة 1370هـ/ 6غشت 1951م. وسترد ترجمته بالتفصيل ضمن تلامذة الشيخ ماء العينين .وانظر المزيد عن ترجمته عند عبد السلام ابن سودة، سل النصال، ص145

•العلامة المشارك الشيخ سيدي محمد ابن الحبيب الأمغاري الحسني الفيلالي، توفي في 23 ذي القعدة سنة 1391هـ/ 10 يناير1972م. وسترد ترجمته بالتفصيل ضمن تلامذة الشيخ ماء العينين. وانظر المزيد عن ترجمته عند: عبد السلام بن سودة،سل النصال، ص212-213

•العلامة المشارك الشيخ محمد بن اليمني الناصري الرباطي ولد يوم الخميس 9رجب سنة 1308 هـ/ 18 يبراير 1891م بمدينة الرباط، ثم رحل بعدها مع العلامة سيدي محمد بن جعفر الكتاني إلى المدينة المنورة. أخذ عن ثلة من العلماء من المغرب ومن المشرق ومنهم من أجازه إجازة كتابية كالشيخ أحمد شمس الشنجيطي، والشيخ أبي شعيب الدكالي، والشيخ عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، والشيخ العباس بن إبراهيم المراكشي صاحب كتاب الإعلام. له عدة مؤلفات منها: الأعلاق الغالية في الأخلاق العالية. وقد أجاز هو بدوره عدد من تلاميذه كالشيخ عبد السلام بن عبد القادر ابن سودة. توفي يوم 10 صفر عام 1391 هـ/29 مارس1971م بالمدينة المنورة، وأقيمت له بعد الأربعين من يوم وفاته ذكرى بجامع السنة بالرباط، حضرها العلماء والشرفاء والأعيان، وتليت فيها عدة سور من القرآن، والأمداح النبوية وألقيت بعض الكلمات في حقه، كما أصدر أخ الفقيد عددا خاصا من جريدة الشعب وزعه على الحاضرين به مقالات ونصوص حول ترجمة سيدي محمد بن اليمني الناصري رحمه الله وأعماله لإصلاح المجتمع الإسلامي. وانظر المزيد عن ترجمته عند: عبد السلام ابن سودة، سل النصال، ص211-212.

[4]بالنسبة لزيارة الشيخ ماء العينين المشار إليها انظر: عبد السلام ابن سودة، (إتحاف المطالع) ، م.س، ج1، ص 371. وعن مصادر ترجمة الشيخ ماء العينين أذكر على سبيل الذكر لا الحصر:الوسيط في أخبار أدباء شنقيط، لأحمد بن الأمين الشنقيطي، ص 365.-368معجم الشيوخ، المسمى رياض الجنة أو المدهش المطرب، لعبد الحفيظ بن محمد بن الطاهر الفاسي، ص168-170.الإعلام، للمراكشي، ج6 و ج7، ص 171-176.-معجم طبقات المؤلفين على عهد دولة العلويين، لابن زيدان، ج2، ص 246-248 .-إتحاف المطالع، لابن عبد السلام ابن سودة، ج1، ص385.-سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس، لمحمد بن جعفر الكتاني، ج3.-شجرة النور الزكية، لمحمد مخلوف، ص433.الأعلام، للزركلي، ج7، 243-244.معجم المطبوعات، للقيطوني، ص 195-198.معلمة المغرب، ج20، ص 6932-6933.المختار السوسي في الجزء الرابع من كتابه المعسول. وقد أفردت كتب تحدثت عن حياته وأخباره نذكر على سبيل الحصر لا الذكر:قرة العينين في كرامات الشيخ ماء العينين، لابنه الشيخ مربيه ربه.-سحر البيان في شمائل الشيخ ماء العينين الحسان، لحفيده ماء العينين بن العتيق.-تجليات الفكر الصوفي والسلفي عند الشيخ ماء العينين، لمحمد الشيخ الطالب أخيار ماء العينين.-والشيخ ماء العينين وجهاده العلمي والوطني، لشبيهنا حمداتي ماء العينين.-مجمع البحرين في مناقب الشيخ ماء العينين،لمحمد العاقب بن مايابى .- أحمد الشمس الحاجي في خاتمة كتابه النفحة الأحمدية،وجاء فيها مايلي:" هو الشيخ أحمد بم محمذن انفال الملقب الشمس بن عبد الله بن المختار من قبيلة إدولحاج ولد في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي .كان رحمه الله من كبار مريدي الشيخ ماءالعينين قدم على الشيخ ماء العينين ولازمه طويلا وأخذ عنه علوم الفقه والأصول والمصطلح والتفسير واللغة...، عينه الشيخ ماء العينين مقدما على زاويته في فاس فكان واسطته ومبعوثه لدى سلاطين المغرب كما لعب دورا في رصد الصورة السياسية " المشحونة بتحركات الفرنسيين ونواياهم في احتلال المغرب" في فاس ونقلها للشيخ ماء العينين.كان مبعوثًا للشيخ ماء العينين إلى فاس ومقدم زاويته بها، ونسّاخًا للكتب في مجلسه. بعد وفاة الشيخ ماء العينين هاجر إلى الحجاز واستقر بالمدينة المنورة حتى توفي سنة 1924. كانت له مكانة طيبة لدى العثمانيين وأهل الحجاز. له قصائد نشرت في كتاب: «الأبحر المعينية في بعض الأمداح المعينية». وقد ألف النفحة الأحمدية في بيان الأوقات المحمدية - مطبعة الجمالية - القاهرة 1911م (ختم الكتاب بعرض مسهب عن الحركة الأدبية التي دارت حول الشيخ ماء العينين)

-كما جمع أحمد تكرور اليعقوبي نبذة من فوائده وجمع ابنه الشيخ النعمة ما قيل فيه من الشعر في كتاب الأبحر المعينية فبلغت زهاء خمسمائة وعشرين شاعرا، وقد حقق جزأها الأول الأستاذ أحمد مفدي، كما حقق الجزء الثاني محمد المداح المختار ضمن أطروحات جامعية بالمملكة المغربية.

-المختار بن حامد: ترجمة الشيخ ماء العينين، جزء القلاقمة.

-موسوعة حياة موريتانيا (نسخة المعهد الموريتاني للبحث العلمي)، كما أن له ترجمة في دائرة المعارف الإسلامية.

وبالنسبة لمقدم زاويته بفاس المذكور فقد ولد في منتصف القرن 13هـ/19م، و نجد من مؤلفاته: - النفحة الأحمدية في بيان الأوقاف المحمدية، طبع بمطبعة الجمالية، القاهرة، سنة 1911- نظم قصائد نشرت في كتاب الأبحر المعينية في بعض الأمداح المعينية، لمحمد العيش النعمة. ونجد مما يقوله في مدح شيخه ماء العينين الذي أخذ عنه عدة علوم منها الفقه والأصول:

تـرى الوفـود إذا أزمة أزمــت   محلقيـن عليــه طالبيــن يدا

وانظر:-عبد السلام ابن سودة، (إتحاف المطالع)، ج2، ص435.-محمد العيش النعمة،(ديوان الأبحر المعينية)، تحقيق أحمد مفدي، كلية لآداب، ظهر المهراز، رسالة جامعية مرقونة.-موقع معجم البابطين لشعراء العربية مع مصادر ترجمته.-موقع مجلة الدارة (السعودية)، رقم 2، السنة 1431هـ مقال":دور العلماء الشناقطة"، لمحمد فال ولد سالم.

[5]انظر :عبد الحفيظ بن محمد الطاهر بن عبد الكبير الفاسي، معجم الشيوخ المسمى رياض الجنة أو المدهش المطرب، تحقيق عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، ص. 203.

[6]انظر: المختار السوسي، المعسول، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 1960،ج4، ص 18

[7]أبي عبد الله محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، دار الثقافة،البيضاء، 2004، ج3، ص.(490-489).

[8]معجم الشيوخ، م.س، ص 217-218. وانظر ترجمته في إتحاف المطالع، م .س ، ج1، ص. 385 .

[9]انظر :فهرسة محمد بن قاسم القادري، إتحاف أهل الدراية بما لي من الأسانيد والرواية، لمحمد بن قاسم القادري، دار ابن حزم، بيروت، 2004، ص69-71

[10]معجم الشيوخ، م.س، ص46-48. وانظر ترجمته عند كل من :-عبد السلام ابن عبد القادر بن سودة المري:-(إتحاف المُطالع)، م.س، ج2، ص. 404.- (الدليل)، دار الكتاب، البيضاء، ج1960،1، ص.77.-عبد الرحمان بن محمد الباقر الكتاني، أعلام المغرب في القرن الرابع عشر، جمع نور الهدى الكتاني وتحقيق محمد حمزة بن علي الشريف، دار البيارق، الأردن، الطبعة الأولى،2001/1421، ص 85.-خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة14، 1999، ج7، ص.9.-محمد بن الحسن الحجوي، مختصر العروة الوثقى، مخطوط بالخزانة العامة، الرباط، تحت رقم 144، ص 37.

[11]وانظر ترجمته عند كل من:-(إتحاف المطالع)، م.س، ج2، ص435.-(سل النصال)، م.س، ص29-31.-فهرس الفهارس والأثبات، لعبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 1982، ج2، ص 1112-1114، رقم الترجمة 626.-شجرة النور الزكية، لمحمد بن محمد مخلوف، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى،1931، ص435.-معجم المطبوعات المغربية، للقيطوني، مطاع سلا تبريكت، 1988، ص363-365.-معجم المطبوعات العربية والمعربة، ليوسف سركيس، مكتبة الثقافة الدينية، لبنان، بدون سنة، ص1917.-دليل مؤرخ المغرب الأقصى، م.س، ج1، ص143.-الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلام، لمحمد الحجوي الثعالبي الفاسي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1995، ج2، ص379، رقم الترجمة.824 -الأعلام، للزركلي، م.س، ج7، ص. 114 .

[12]نشرت مع فهرسة الوزاني في دار ابن حزم في بيروت وانظر: الفهرسة الصغرى، لأحمد ابن الخياط، دار ابن حزم، بيروت، 2005، ص147.

[13]انظر: الفهرسة الصغرى، لأحمد ابن الخياط، دار ابن حزم، بيروت، 2005، ص147.

[14] انظر:(معجم الشيوخ)، م.س، ص99-103. وانظر ترجمته عند كل من:-(إتحاف المُطالع)، م.س، ج2، ص437.-(سل النصال)، م.س، ص32-33.-دليل مؤرخ المغرب الأقصى، م.س،ج1، ص142، ج2، ص302-327، رقم الترجمة 1392.-فهرس الفهارس)،لعبد الحي الكتاني، م.س، ج1، ص387 -389، رقم الترجمة 191.-فهرسة محمد بن الحسن الحجوي، دار ابن حزم، بيروت، 2003، ص83.-شجرة النور الزكية، م.س، ص436، رقم الترجمة: 1716.-الأعلام، للزركلي، م.س، ج1، ص250.-معجم المطبوعات، للقيطوني،م.س، ص 105-106، رقم الترجمة: 258.-الأعلام الشرقية، لزكي محمد مجاهد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1994، ج1، ص 274.-(الفكر السامي)، لمحمد الحجوي ،م.س، ج2، ص381 .–(الدرر البهية)، للفضيلي، ج2، ص60، طبعة حجرية، بدون تاريخ.-مختصر العروة الوثقى، لمحمد بن الحسن الحجوي، مخطوط بالخزانة العامة في الرباط، تحت رقم:144.ص35.

[15]السفر الصوفي،لمحمد بن جعفر الكتاني،تحقيق أسامة الكتاني والزمزمي الكتاني،دار الكتب العلمية،بيروت،2005ص.4.

[16]السفر الصوفي،م.س،ص.38.

[17]نفسه،ص. 32-33

[18]نفسه، ص.5.

[19]انظر:(سل النصال)، م.س، ص (43-46)

[20]انظر:محمد حمزة الكتاني، منطق الأواني بفيض تراجم عيون أعيان آل الكتاني، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004، ص152-156، مع قائمة لمصادر ترجمته.

[21] (سل النصال)، م.س، ص(61-63.)

[22] (سل النصال)، م.س، ص (145-1.)47

[23] (اتحاف المطالع)، م.س، ج2، ص(527-528.)

[24] (سل النصال)، م.س، ص152.

[25](السفر)، م.س، ص9. وانظر:* مقدمات تحقيق مؤلفاته المنشورة:*الفهرسة الكبرى، لأحمد ابن الخياط، دار ابن حزم، بيروت، 2005، ص26-27.

[26]انظر: الفهرسة الكبرى، لابن الخياط، م.س، ص34-35.

[27]معجم المطبوعات، للقيطوني، ص262.

[28] (سل النصال)، م.س، ص190.

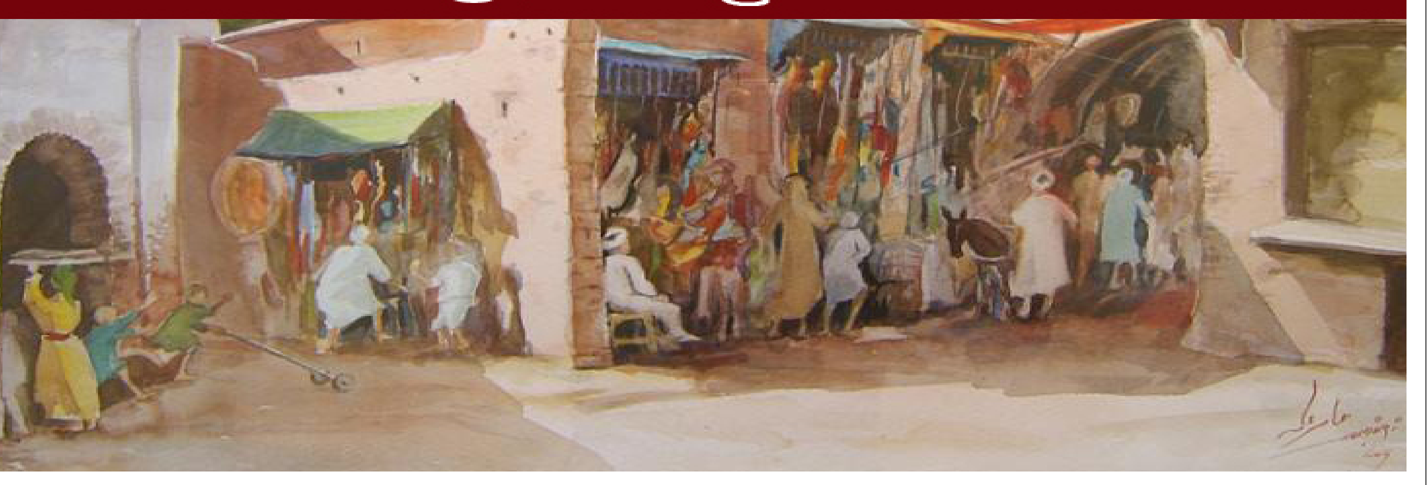
[29]محمد بن الفاطمي ابن الحاج السلمي، إسعاف الإخوان الراغبين بتراجم ثلة من علماء المغرب المعاصرين، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 1992، ص.411.

[30]مقدمة)معجم الشيوخ)، م.س، ص(3-5). وانظر ترجمته عند كل من: *عبد السلام ابن سودة: (اتحاف المطالع)، ج2، ص581. و دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ج1، ص * .(92-79-75)الأعلام، لخير الدين الزركلي، ج3، ص279-280. *أعلام المغرب العربي، لعبد الرحمان الكتاني، ص66-181.*شجرة النور الزكية، لمحمد بن محمد مخلوف، ص.434.

[31]محمد امحمد الطوير، تاريخ حركات التحرر من الاستعمار في العالم خلال العصر الحديث،منشورات تانيت، الرباط، 1998، ص126.

[32]نص الخطاب الملكي السامي الذي وجهه صاحب الجلالة بمناسبة الذكرى الثلاثين للمسيرة الخضراء، الرباط، 2005-11-6. وانظر: موقع حكومة المملكة المغربية http://www.maroc.ma/NR/rdonlyres :

مناهج التاريخ





التاريخ بين الإيديولوجيا والذاتية
نموذج: بول ريكور (الجزء الأول)



خالد أوعسو
باحث في تاريخ المغرب
تخصص:تاريخ الهجرة

نروم في هذا المقام تدقيق النظر في بعض من الكيفيات التي وظف بها التأويل في سبيل استشكال أبرز القضايا الفكرية المؤثثة لمشهد الفضاء الفلسفي والتاريخي المعاصر، من قبيل مسألة الإيديولوجيا والحقيقة والتاريخ باعتبارهم مفاهيم تتشابك إلى حد يستعصي معه الحديث عن استقلالية نسبية، بالنظر إلى الامتدادات المعقدة التي تؤلف بين هذه المفاهيم . ولعلنا لا نفشي سراً بالقول إن ريكور ارتأى تطبيق الهرمينوطيقا (التأويل)على تلك القضايا من أجل إعادة بناء فهمها، إذ إن هذا الفيلسوف لم ينظر إلى التأويليات باعتبارها مبحثا فلسفيا مستقلا، يمكن تأسيسه بوصفه غاية في ذاته، بقدر ما نظر إليها باعتبارها آلية لفهم الراهن وإعادة التفكير فيه من خلال مفاهيم التأويليات، .

من هذا المنطق وجب القول إن كل دراسة لمتن ريكور يجب ألا تتوقف عند الحدود التنظيرية التي رسمها ريكور لماهية "الهرمينوطيقا" ، لأن في ذلك إعراضا عن الجانب التطبيقي منها، والذي يجعلها أقرب إلى الأداة المفهومية والمنهجية التي تمدنا بفهم لقضايا الفلسفة أكثر مما هي مبحث فكري أو فلسفي. لذلك كان لزاما علينا أن نعرج في هذا المقام من البحث على هذا الجانب التطبيقي من فلسفة ريكور.

من هنا سيتم التركيز على قضايا فكرية محددة، وهي الإيديولوجيا والحقيقة والتاريخ، وذلك لا يعني أبدا حصرنا لمجمل فكر ريكور أو محاولة لاختزاله في هذا الحيز النظري. بيد أن هناك ما يبرر هذا الاختيار، خاصة بالنسبة إلى أهمية هذه القضايا ضمن منظومة التأويل عند هذا الفيلسوف. هكذا عمد ريكور إلى إعادة قراءة "الإيديولوجيا" من خلال إعادة النظر في المهام المحددة لماهيتها، بعيدا عن التصورات الاختزالية التي أوكلت إليها دورا سلبيا يتجلى في تزييف الواقع وقلبه. من هنا تطرح إشكالية "الحقيقة" التي لم تكن عند هذا الفيلسوف مجرد سؤال فلسفي مجرد، على منوال ما نجده عند فيلسوف من عيار هايدجر أو ياسبرز. إن طرح سؤال "الحقيقة" إنما يشي بوعي ريكور بزئبقيتها أولا، وبكونها بؤرة تتقاطع فيها مختلف أسئلة التأويل ثانيا. لذلك لم يتوقف ريكور عن ربطها بمختلف القضايا المؤثثة لمتنه، بدءا بمسألة "التأويل" و"المعنى"، ووصولا إلى مسألة "التاريخ" و"الزمن" و"السرد". الأمر الذي جعلنا أمام مقاربة متعددة الأبعاد لمفهوم "الحقيقة"، أو لنقل إنها مقاربة لاسم مشترك في الفلسفة ما كان لها إلا أن تقف عند التناقضات التي ما انفك يطرحها. من هنا ضرورة الوقوف بشيء من التحليل عند علاقة التأويل بسؤال الحقيقة.

الملاحظة عينها تقال على سؤال "التاريخ" الذي لفت انتباه ريكور منذ أول أعماله عن "فلسفة الإرادة"، اذ من المؤكد أن السياق الفكري لذي أينع فيه وعي هذا الفيلسوف، والذي كان الاهتمام بالمسألة التاريخية من أبرز سماته، خاصة بعد الصدمات العنيفة التي وجهتها التاريخانية إلى مفهوم "الوجود" و"الحقيقة" منذ نهايات القرن التاسع عشر، جعل لزاما على كل من انتدب نفسه للتفكير في الفلسفة أن يقف عند هذه القضية، سواء تعلق الأمر بفلسفة الوعي والفينومينولوجيا التي كان عليها أن تأخذ في الحسبان البعد التاريخي المحدد للوجود الإنساني. ولعل أعمال هسرل، ومن بعده كتاب "الوجود والزمن"، خير نموذج على ذلك. لم يطرح ريكور سؤال "التاريخ" من حيث هو بعد محدد للشرط الإنساني، بل استشكله في ضوء علاقته بالنص والسرد والتأويل، فكان من الطبيعي أن يتحول التاريخ إلى مرتكز من مرتكزات الهرمينوطيقا.



1- في الإيديولوجيا:

يعتبر مفهوم "الإيديولوجيا" من المفاهيم الحديثة. يكفي أن نشير أن تاريخ المفهوم ارتبط أساسا بديستوت دوتراسي في نهاية القرن الثامن عشرالذي ربطه بالعلم الذي يسعى إلى فهم الأفكار بالارتكاز على جملة قواعد وأطر نظرية استنادا إلى منهج يتأسس على جملة خطوات تستهدف فصل الأفكار عن الأوهام التي تتربص بها. هذه الدلالة العلمية سيتم الإنزياح عنها مع نابليون الذي أعطى فهما سياسيا للمصطلح حينما تم ربطه بدعاة الأفكار الذين يستهدفون الإمبراطورية الفرنسية، الشيء الذي أضفى على المفهوم بعداً خارجيا بالنظر إلى إلتصاقه بالغير الحامل لأفكار إيديولوجية، وبصرف النظر عن توظيفات "الإيديولوجيا" كمفهوم فإن هذه الأخيرة شكلت بؤرة اهتمام من طرف المفكرين والفلاسفة بالنظر إلى تداخلها مع مفاهيم الواقع- الوعي- الوظيفة...الشيء الذي يجعل من قدرة الوعي على إعطاء صورة شفافة وحقيقية عن الواقع موضع تساؤل وهو ما نزع ريكور إلى فحصه من خلال تناوله لمصادر مفهوم الإيديولوجيا وتطورها. فكيف إذن تم الارتفاع بمفهوم "الإيديولوجيا" إلى دائرة العناصر المكونة لمتن ريكور؟

بداية نشير إلى المكانة البارزة التي أخذها مفهوم "الإيديولوجيا" داخل الفلسفة المعاصرة عامة وفلسفة ريكور خاصة، حتى أنه يمكن القول إن إحدى البؤر التي شغلت تفكير ريكور كانت الإيديولوجيا، لاسيما بعد الاهتمام الذي حضيت به داخل المقاربة الماركسية.

من هذا المنطلق شكلت إسهامات ماركس تحولا نوعيا في مقاربة موضوعة "الإيديولوجيا"، خاصة وأنها رهنت نفسها لقلب الهيجلية باعتبارها نقطة اكتمال تاريخ الفلسفة، والإعلان عن نهاية مسار التاريخ، وبالتالي استنفاذ الفلسفة لكل إمكانيات وجودها.

إن هذا الوعي الذي تحقق مع ماركس سيتم تطويره مع مجموعة من الفلاسفة المعاصرين. ولعل ريكور يعد أحد هؤلاء حيث يمكن اعتبار مقاربته تتويجا للأعمال التي اتخذت من الإيديولوجيا موضوعا لاهتمامها. الشيء الذي يجعل من اهتمامه بالموضوع غير منفصل عن طبيعة مشروعه التأويلي، لذلك كان طبيعيا أن يدخل في حوار مع ماركس محاولة منه لتفكيك مشروع هذا الأخير عموما ورؤيته للإيديولوجيا على وجه التحديد. فما هي قراءة ماركس للإيديولوجيا وكيف تناول ريكور المسألة بعلاقة مع مشروعه الفلسفي العام؟

في إطار رصده لخصائص الظاهرة الإيديولوجية سيوجه ريكور رؤيته صوب المقاربة الماركسية ليس بغرض إعادة إنتاج أفكار ماركس بل بغاية العمل على زحزحة الأرضية التي شكلت أساسا لمنظور ماركس[153].

أما وسيلته في ذلك فهو التصور الفيبري ورؤيته للفعل الاجتماعي والعلاقة الاجتماعية، ذلك أن فيبر[154] رأى أن الفعل الاجتماعي لا يخضع لتلك الأبنية التي يتحدث عنها الوضعيون والماركسيون الذين يرون أن البناء الاجتماعي تحكمه جملة علاقات تجعله في النهاية محصلة لتلك الروابط والمسارات التي تخضع لها البنية الاجتماعية. فعلى العكس من ذلك دافع فيبر عن رؤية تفهمية للفعل الاجتماعي لها، يجعل كل علاقة اجتماعية تفترض تفهما لها. ومعنى ذلك أن الفعل الاجتماعي نفسه لا يخرج عن الطابع التأويلي، خاصة عندما يصير هذا الفعل إطارا تتمثل من خلالها الذات الجماعية نفسها في التاريخ.

بهذا المعنى تعتبر الإيديولوجيا بمثابة تلك الوظيفة التي ترهن المسافة الفاصلة بين الذاكرة الجماعية والحدث الذي يحدد هويتها وتعمل على إعادة إحيائه واسترجاعه[155]، ذلك أن أية جماعة في حاجة إلى بناء هويتها وفي سعيها نحو تشكيل ممتلكها الرمزي الذي يصنع وحدتها واستمراريتها في الزمن هي في حاجة إلى "إيديولوجيا" تعمق وعيها التاريخي وتصنع بالتالي فرادتها وتميزها. الشيء الذي يجعل الإيديولوجيا ذات علاقة وطيدة بالمستوى التاريخي الاجتماعي باعتباره الحقل الذي تتحرك في إطاره.

وفي هذا الإطار لا يختزل ريكور وظيفة الإيديولوجيا في **التزييف** كما تقول بذلك المقاربة الماركسية التي ترى في الإيديولوجيا بعدها التشويهي الذي يهدف إلى إخفاء الواقع الاقتصادي والاجتماعي للأفراد والجماعات، وهو الأمر الذي يجعل الإيديولوجيا تحول دون معرفة الناس لأحوالهم الحقيقية، وقد شبه ماركس هذه الإعاقة التي تقوم بها الإيديولوجيا بالصورة المقلوبة المنعكسة داخل الغرفة السوداء التي تظهر في الكاميرا أو في شبكة العين[156].

153- P.Ricœur du texte à l'action, Edition du Seuil,Paris,1986 , p 339.

154 - أنظر: مقال محمود أحمد عبد الله، "تأويل الفعل الاجتماعي عند بول ريكور"، المجلة العربية لعلم الاجتماع، العدد 8، 2009، ص 25-28.

155- Ricœur, p du texte à l'action, p 339.

156 - بول ريكور، محاضرات في الإيديولوجيا واليوتوبيا، ترجمة فلاح رحيم،دار النشر الكتاب الجديد،2002، ص 140.

هنا فقط تقوم الإيديولوجيا بوظيفة تشويه الحياة الواقعية للناس لتتشكل نوعا من الاستقلالية بين عالم الأفكار وعالم الواقع، الشيء الذي يفضي إلى السقوط في المثالية التي انتقدها ماركس ايما انتقاد، بالنظر إلى الضبابية التي تصاحب عملية تشويه الواقع[157]. هذا التشويه سيتم تعميقه مع ألتوسير حينما وضع الإيديولوجيا على طرفي نقيض مع العلم حيث أضحت الإيديولوجيا وعيا زائفا يوضع في مقابل العلم والواقع[158].

إن هذه المقاربة الماركسية للإيديولوجيا سيتم توسيع افقها حينما سيتم النظر إلى الإيديولوجيا من خلال **قدرتها على توحيد الأفراد وضمان تماسك الهوية، في ارتباطها بالتاريخ وهو ما يُحولها إلى آلية لتبرير** ما هو كائن بالفعل أكثر مما تنزع نحو تحريك الوضع والعمل على تغيير الواقع[159]، بمعنى آخر إن ما يهم الإيديولوجيا هو القائم موضوعيا وليس المطلوب تاريخيا.

ودائما في نفس السياق تنفتح الإيديولوجيا على أفق وظيفي آخر يرتبط هذه المرة –كما سبقت الإشارة- بالتبرير وهذه الوظيفة بدورها تجد امتدادها أيضا في التصور الماركسي، حيث تنزع الطبقات المهيمنة إلى تسييد أفكارها بتقديمها وكأنها أفكار كونية شاملة نازعة عنها بعدها الطبقي، وذلك حتى تحظى أفكارها بقبول مجتمعي باعتبارها أفكارا محايدة. إن اتجاه الطبقات المسيطرة نحو تعميم نموذجها تسنده في الواقع اختيارات سياسية، لذلك لا غرابة أن تتماهى السلطة السياسية بالإيديولوجيا الشيء الذي يفسر الحاجة إلى التبرير ومن تم الحاجة إلى إنتاج خطاب عمومي بهدف الإقناع[160].

إن هذا الطابع التبريري للإيديولوجيا لا يعني أبداً أن هدفها هو الثبات الاجتماعي، لذلك فإن ريكور يبادر إلى التأكيد على أهمية الجانب الدينامي الذي تختص به الظاهرة الإيديولوجية على اعتبار قدرتها على تأدية مهمة **الحفز الاجتماعي**[161]، وهي من هذه الجهة مرتبطة بالبراكسيس إذ تمثل دافعا ومرجعا للمشروع الاجتماعي- السياسي ومبررا له في الآن ذاته. وفق هذا المعنى تجمع

---

157 - نفسه، ص 52.

158 - نفس المرجع والصفحة.

159- Ricœur: du texte , op.cit., p 340.

160- P. Ricœur, du texte à l'action, p 340.

161 - بول ريكور: من النص إلى الفعل: أبحاث في التأويل، ترجمة محمد برادة، حسان بورقية عين الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم 2001، ص 302-303.

الإيديولوجيا بين الشيء ونقيضه، أي بين السعي الدؤوب نحو خلخلة هذا الثبات ومقاومته سواء على مستوى الفعل الاجتماعي والسياسي أو على مستوى الصور والتمثلات والرموز.

يجيبنا ريكور عن هذه المفارقة بالوقوف على وظيفة أخرى تلتصق التصاقا وثيقا بالإيديولوجيا، إنه **طابعها التبسيطي** وقدرتها على تقديم نمذجات للوعي[162]. فالإيديولوجيا فعل وهو فعل موجه للوعي وفاعل به، لذلك فإنها في عملها هذا يكون باستطاعتها تبسيط مشهد الوجود أمام الوعي من خلال تقديم نمذجات توجه الوعي وتمكنه من فهم ما يحيط به من شفرات، من هنا قدرتها الغريبة على تحويل تلك الشفرات إلى أفكار يتم تشكيلها وتداولها والعمل على ترويجها وتوفير الشروط الموضوعية لإقناع الأفراد والجماعات. وبالتالي توفير فضاء امتداد لتشكل الوعي والذاكرة الجماعية. إن المهم من هذه الزاوية ليس هو الحقيقة بل الواقع أي أنها فكر منظور إليه من خلال عنصر الفاعلية في الواقع والزمن، بمعنى من خلال دورها في التاريخ. حينها يكون كل شيء عرضة وغير بعيد عن الأدلجة سواء تعلق الأمر بالأخلاق، أو بالدين، أو بالفلسفة[163]، وهو ما يعني قدرة الإيديولوجيا على تحويل منظومة الأفكار إلى معتقدات يتم تسخيرها كفعل داخل التاريخ.

قياسا على ما سلف، يمكن التأكيد على وجود ارتباط وثيق بين الدوكسا (بادئ الرأي) والإيديولوجيا مادامت هذه الأخيرة لا تتعلق بمستوى الحقيقة أو العلم. إنها تعمل على إضفاء التناغم والإنسجام على الواقع وهو ما يجعلها تحمل في طياتها بعداً سلبيا خاصة أنها ترتبط بحياة الناس وبفكرهم ومعيشتهم، كما أنها تفعل هذا بطريقة غير شعورية. إنها بعبارة أخرى تشتغل في جنح الظلام وفي الخفاء، خلف الوعي لا أمامه الشيء الذي يجعلنا نفكر انطلاقا منها لكننا لا نتخذها موضوعا للتفكير فيها. ولعل السبب في ذلك هو عجزنا على التفكير في الأشياء بمعزل عن الصور والنمذجات التي تستهلكنا وتجعلنا عاجزين أمامها الأمر الذي يجعل فينا حاجة إلى توظيف صور موجودة والتفكير انطلاقا منها[164]. وإلى جانب كل ذلك يبقى عامل الرموز الثقافية المكونة للثقافة ذا أثر بدوره بالنظر إلى إسهامه في إنشاء الوعي الجمعي وتوجيهه.

---

[162] - نفسه

[163] - Ibid, p 341.

[164] - Idem.

دائما ضمن نفس مسار تتبع وظيفة الإيديولوجيا يمكن الوقوف أيضا عند وظيفتها الإدماجية، حيث يدعونا ريكور إلى عدم فصل هذه الوظيفة عن " ظاهرة السلطة" التي تسعى من خلال فعل الإدماج إلى تحقيق وحدة الشعور بالانتماء وتعويض الأنا الفردي بالأنا الجماعي، والأمر هنا يبدو جليا من خلال مختلف مظاهر الاحتفال والطقوس التي يتم تخليدها بارتباط مع رموز وشعائر تشكل مخيالا اجتماعيا حاملا لمعاني متعارف عليها داخل الجماعة[165].

إن هذه الخاصية الإدماجية للإيديولوجيا يضفي عليها بعداً آخر وإنه لطابعها الارتكاسي والمحافظ. ذلك أن الوعي عادة لا يفتح ذراعيه للجديد بقدر ما يتحصن داخل حضن التقليد. ولعل الأمر هنا ينطبق على مجال الوعي الجمعي. ذلك أن هذا الوعي الجمعي ومن خلال سعيه الدؤوب نحو حفظ هوية الجماعة وضمان استمراريتها في الزمن يجعل الجماعة تعادي وتبدي نوعا من اللاتسامح إزاء الهوامش المخالفة لها والمهددة لوحدتها. إن ما تجب الإشارة إليه في هذا الصدد هو أن هذه الوثوقية التي تؤطر عمل الإيديولوجيا والذي تحنط من خلاله وعي الجماعة وتجعله يسيج ذاته إزاء كل فكر مخالف، فإنها بفعلها هذا وربما بكيفية غير مقصودة فإنها تفتح إمكانية قبول الهوامش[166]. الشيء الذي يجعل الإيديولوجيا تأويلا للواقع وانفتاحا في الآن ذاته على الممكن. إنها بعبارة أخرى رسم لآفاق الفعل كممكن أمام الواقع بالنسبة إلى الوعي، الأمر الذي يمكنها من تفتيت عناصر الواقع وفتح إمكانية مجاوزته ولعل في الحديث عن " العمى الإيديولوجي" دلالة على الإمكانية المتاحة للإيديولوجيا للقيام بوظيفة أخرى عدا وظيفة الإدماج التي تحكم مصير الهوية الجماعية.

يتبين إذن أن مجمل هذه الوظائف التي تقوم الإيديولوجيا بتصريفها متداخلة فيما بينها، وهو تداخل يمشي رأسا في اتجاه السلطة كإطار يكثف كل مستويات اشتغال الإيديولوجيا، وهو أمر لا يغفله ريكور من خلال تأكيده على أهمية المقاربة الماركسية[167]، وكذا إسهامات فيبر الذي يقرن السلطة بالهيمنة من حيث هي آلية لإضفاء المشروعية على ممارسات السلطة. وهو الشيء الذي يفصله فيبر من خلال مقارنته بين أنماط المشروعية، ذلك أن كل النظم السياسية تسعى إلى تبرير نفسها وشرعنة ممارستها وهو ما يخلق تمايزا بين هذه الأنظمة بالنظر إلى مسار كل نظام من خلال

---

[165] - بول ريكور، محاضرات في الإيديولوجيا واليوتوبيا، ص 346.

[166]- Ibid, p 342.

[167]- Ibid, p 343.

أفعال التبرير والشرعنة التي يلجأ إليها، وبالتالي من خلال طبيعة الإيديولوجيا التي تسنده باعتبارها النسق الفكري الذي يشرعه السلطة ويبرر الخضوع لهيمنتها.

وفق هذا المعنى يمكن رصد التداخل الكبير بين الإدماج والشرعنة باعتبارهما وجهتين للإيديولوجيا، ذلك أن كل جماعة في بناء ممتلكها الرمزي إنما تتأسس هي نفسها على منظومة إيديولوجية، وهي في ذلك تبحث عن التشكل ككيان سياسي، ومن هنا الحاجة إلى ميلاد السلطة باعتبارها ظاهرة اجتماعية تحتاج إلى ما يبررها سواء كان هذا التبرير صريحا أو مضمرا، وهو الغالب في ممارسة السلطة.

إن أهمية الشرعنة والإدماج يبرزان داخل متن ريكور على درجة أكبر، ولعل هذه القيمة ترتبط أساسا بالتغييب الكبير لهذين البعدين عن مفهوم " الإيديولوجيا" ، وهو تغييب يبقى التصور الماركسي خلفه بالأساس لذلك سعى ريكور إلى البدء من حيث انتهى ماركس وما أهمله، ذلك أن مقاربة هذا الأخير تميزت بطابعها الوصفي بالنظر إلى تعريفه للإيديولوجيا من خلال الوظيفة والمضمون حينما شبه الإيديولوجيا من حيث طريقة اشتغالها بالآلة الفوتوغرافية والقلب الذي تمارسه وما ذلك إلا لأن بعض الإنتاجات الفكرية للناس مقلوبة في الأصل[168]، لذلك كان هم ماركس أساسا هو تحري كيف يتم إحلال الفعل المتخيل محل الفعل الواقعي حماية للوضع القائم.

مما سبق يمكن استخلاص بعض عناصر الاختلاف بين المفهومين اللذين حللهما ريكور في علاقته بالتصور الماركسي، غير أن هذا التمايز لا ينفي وجود تداخل وانسجام بين وظائف الإيديولوجيا، إذ كيف يمكن أن يتم تزييف الوعي وربطه بأوهام وتخيلات إذا لم تكن هذه الأوهام متجذرة في التربة الثقافية للمجتمعات؟

لذلك يصعب الحديث عن نشاط سابق أو لاحق عن الإيديولوجيا مادام كل تأويل للرموز المحيطة بالوعي يبقى تأويلا موجها من قبل الإيديولوجيا، لذلك يدعونا ريكور إلى إعادة النظر في فهمنا لتصور ماركس للإيديولوجيا : هل هو تصور عام أم مخصوص؟

يجيبنا ريكور عن هذا السؤال بالقول إن التصور الماركسي للإيديولوجية إنما هو تصور مخصوص وليس عاما، وهو إذ يقول ذلك فإنه يؤكد أنه متعلق بالدين فقط. تأثر ماركس في بلورة موقفه هذا بتحليلات فيورباخ للدين، غير أن تطبيق الأطروحة الماركسية ما كان له إلا أن يتجاوز

---

[168]- Ibid, p 345.

حدود الدين ويعمم نتائجه على غيره من العناصر المكونة للبنية الفوقية، وهو ما حمل بعض فلاسفة مدرسة فرانكفورت على تعميمها على العلم والتقنية، حيث نظروا إلى هذه الأخيرة باعتبارها قادرة على تأدية دور الإيديولوجيا. من هنا دعوة ريكور إلى ضرورة الانفلات من قبضة التصور الماركسي الشائع عن الإيديولوجيا، واستحضار أنه مرتبط بفهم ماركس للدين.

يمكن إذن أن نتبين منظور ريكور للإيديولوجيا من خلال ثلاث وظائف:

الإيديولوجيا بحسبانها تشويها .

الإيديولوجيا بوصفها تبريرا .

الإيديولوجيا باعتبارها إدماجا.

فإذا كانت الإيديولوجيا بمثابة ذلك الوسيط الرمزي الذي يؤسس لهوية الجماعة داخل التاريخ، فإن ذلك لا يعدم البعد التضليلي الملازم لوظيفتها ما يجعل الإيديولوجيا سلطة لا نقدية.

إن الصعوبة إذن تزداد حينما يتم ربطها بالمخيال الاجتماعي ذلك أن ريكور يتحدث في هذا الصدد عن وظيفة اليوتوبيا كمكملة للإيديولوجيا وذلك من خلال دلالات ثلاث:

باعتبارها تفكيرا مفارقا للوجود الاجتماعي العام.

بوصفها إنقاذا لأشكال السلطة لصالح إنشاء منظومة خيالية.

بحسبانها تذويبا للواقع لصالح تصورات مكتملة (نظريا وتخطيطا) لا يمكن تقريبا تحقيقها.

عموما تتقاطع الإيديولوجيا (وظيفة تثبيت الواقع) باليوتوبيا (وظيفة رفض الواقع) من خلال المخيال الاجتماعي الذي هو الجزء الدينامي والمطمور ضمن آليات اشتغال الواقع.

يبقى إذن إسهام ريكور في إماطة اللثام عن فعل الإيديولوجيا ذا قيمة مع التأكيد هنا على خصوبة البعد الاجتماعي والسياسي، حيث يحضر التشويه والإخفاء في مجال الصراع السياسي، وإضفاء المشروعية على السلطة في مجال الإدماج الاجتماعي مع التأكيد على ضمور البعد النفسي للإيديولوجيا (الوظيفة الاستيهامية)[169] وكذا تقاطعاتها مع الفكر الأسطوري[170].

---

[169] - يمكن في هذا الصدد الإشارة إلى أعمال ر. دوبريه حيث يتحدث عن اللاشعور السياسي كبنية ناظمة للجماعة المنظمة أنظر 1981، R.Debray : Critique de la raison politique, Gallimard أيضا أعمال R.Kaes حيث الإيديولوجيا " كأداة ترمز وتأويل تلعب دور معبر يمكن من الانتقال من الإستيهام إلى القول، ومن اللاوعي إلى الوعي ومن التمثلات إلى الكلمات " أنظر محمد سبيلا: الإيديولوجيا، نحو نظرة تكاملية، م ت ع، 1992، ص 99.

[170] - يمكن الوقوف هنا على عملين: كاسيرر: الدولة والأسطورة، 1946.

C.I Strauss : Anthropologie Structurale, Plon, Paris 1958.

خلاصة التحليل إذن أن الإيديولوجيا من شأنها أن تؤدي ثلاث وظائف : الإدماج والشرعنة وقلب الواقع. على الرغم من كل ما تتسم به هذه المهام من تناقص فإن الثابت بينها هو ارتباطها الذاتي والضروري بالواقع الاجتماعي، لذلك لا مجال للتفكير في الانفصال عنها كما بشر بذلك ماركس، وهو ما يؤكد الحاجة إلى الإيديولوجيا، إذ ما معنى أن يكون الإنسان كائنا سياسيا حاملا لإيديولوجيا، وقبل ذلك إذا لم يكن كائنا تاريخيا.

تاريخ الزوايا المغربية





تاريخ الزاوية البوسكراوية



محمد أبيهي
باحث في تاريخ
المغرب المعاصر

تقديم:

عرف المغرب منذ الحقبة الإسلامية ظهور عدة زوايا اضطلعت بأدوار دينية واجتماعية، وحسمت في الأحداث التاريخية الكبرى،[171] حيث ارتبطت بشكل وثيق بالرباطات الدينية خلال القرون الإسلامية الأولى، التي ظلت عبر التاريخ تقوم بوظيفة الجهاد والتوعية الدينية وتعليم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف في الحواضر الكبرى والقرى الهامشية.

---

[171] ساهمت الزوايا الدينية بتأطير الحركة الجهادية ضد البرتغال في السواحل الأطلنتية باحاحان وموكادور خلال العصر السعدي،حيث أصبحت قبائل الأطلس الكبير الغربي منطقة مستقلة عن السلطة المركزية مع بداية القرن **16**م، مما ساعد السعديين على نشأة دولتهم،الوفراني محمد الصغير،نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي،تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشادلي،مطبعة النجاح الجديدة،الطبعة الأولى،**1998**م،ص:**51**.



لقد مثلت ساكنة الأطلس الكبير الغربي نموذجا للقبائل التي لعب فيها الدين دورا في المجتمع المحلي، حيث ظل مصدرا لفصل السلط داخل النظام السياسي والاجتماعي لهذه القبائل،[172] وكما ظهرت الزاويا والمدارس العلمية التي كونت ثلة من العلماء والأدباء، أمثال سيدي سعيد أو عبد النعيم الحاحي، وعبد الله بن سعيد الحاحي،[173] حيث امتد تأثير هذه الزوايا إلى مختلف مجالات الحياة الاجتماعية والثقافية والدينية بقبائل الأطلس الكبير.

ففي هذا الصدد، تعتبر زاوية سيدي بوزكري[174] من أهم المراكز الدينية التي تعود للحقبة المرينية، وقد ساهم غنى تاريخها في إشعاعها الديني والثقافي، فأصبحت محورا في المجتمع المحلي ورمزا لاستقامة الحياة الدينية والاجتماعية والاقتصادية للقبائل الحاحية، واضطلعت كذلك بالوظيفة التعليمية لأبناء المنطقة. وتزخر بتراث عمراني إسلامي محلي جسد اهتمام الإنسان الأمازيغي بالمنشآت الدينية.فما هي أدوار زوواية سيدي بوزكري في المجتمع المحلي؟ وما هي وظائفها الدينية والعلمية والاقتصادية؟ وما هي خصائص العمران الديني المحلي لهذه الزاوية؟

أولا ــ زاوية سيدي بوزكري:التاريخ والمجال

ظلت زاوية سيدي بوزكري التاريخية من أهم المؤسسات الدينية الصوفية بقبيلة اداويسارن،حيث ظلت مركزا للتوعية الدينية،ومصدرا للفصل في مختلف النزاعات القبلية،وسأحاول فيما يلي،رسم معالم الحضور التاريخي من خلال إبراز الموقع الجغرافي للزاوية،وعلاقتها بمحيطها المحلي والإقليمي منذ تأسيسها.

أ.الموقع الجغرافي للزاوية:

[172] لعبت فئة "اكرامن" المنتمية للزوايا دورا في تسيير شؤون القبائل بعد نهاية الدولة المرينية في ظل غياب السلطة المركزية،مما ساهم في استقرار الأوضاع الاجتماعية والسياسية بقبائل الأطلس الكبير،كلنير ارنست،السلطة السياسية والوظيفة الدينية في البوادي المغربية،ترجمة:عبد الأحد السبتي،عبد اللطيف الفلق،مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية،الرباط،أكدال،العدد11،1985م،ص:175.

[173] الشفشاوني محمد بن عسكر الحسني،دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر،تحقيق د.محمد حجي،منشورات مركز التراث الثقافي المغربي،الدار البيضاء،الطبعة الثالثة،2003م،ص ص: 93 و94.

[174] اشتق "بوزكري" من اسم مؤسس الزاوية،فعلى المستوى اللساني الأمازيغي تم تفخيمه،اختصارا لاسم أبي زكرياء،ويتتداول هذا الاسم في المجتمع المحلي بقبائل احاحان نسبة لمؤسس هذه الزاوية.

تقع زاوية سيدي بوزكري بقبيلة اداويسارن[175] التي تنتمي إلى اتحادية قبائل احاحان، وهي إحدى بطون قبائل "امصمودن"[176]، وقد حددها ابن خلدون في مجموعة من القبائل.[177]

وتعتبر قبائل احاحان من أكبر بطون مصامدة الأطلس الكبير الغربي، إلا أن تحديد امتدادها الجغرافي عرف نوعا من الغموض حيث اختلفت حدودها باختلاف العصور التي شملت من قبل مجالات جغرافية واسعة، وسأستعرض فيما يلي بعض هذه الإشارات التي وردت في المصادر التاريخية والجغرافية، ونجد الحسن الوزان يحددها في «...ناحية من نواحي مقاطعة مراكش،يحدها البحر المحيط من جهة الغرب والشمال،وتحدها جبال درن من الجنوب ويحدها من الشرق أسيف نوال الذي ينبع من الجبال الأطلسية ويصب في نهر تانسيفت... »[178]، وأشار الصديقي إلى أنه «...في التاريخ العام يطلق اسم حاحا،على كامل بلاد رجراجة مما وراء تانسيفت من الجنوب.. »،[179] وأما مارمول كربخال فيرى أنها: «...تحد من الغرب والشمال المحيط ومن الجنوب جبال الأطلس الكبير المتاخمة لإقليم سوس ومن الشرق نهر أسيف المال الذي يفصله عن إقليم مراكش... ».[180]

وتتكون اتحادية احاحان من اثني عشر قبيلة، أبرزها قبيلة اداويسارن التي تتكون من مجموعة من الفرق وهي: اقبيلن، اداوكونكي، اداوكضل، أيت تليت، اداوعزا، أيت ايدير، ولعل ما يميزها هو عراقة تقاليدها الأمازيغية واهتمام أهلها بالعناية بالزوايا، حيث تتواجد بها مجموعة من الكتاتيب والمدارس العتيقة، أبرزها مدرسة سيدي بولبركات العبدري، ومدرسة أزلا العتيقة، ومدرسة

---

[175] اداويسارن من القبائل الحاحية العريقة المكونة لاتحادية قبائل احاحان،ويعتبر سيممو من أبرز مراكزه القروية،ويقع على بعد 40 كلم جنوب الصويرة.

[176] يدل على الاسم الأمازيغي لمصامدة قبائل الأطلس الكبير،وهي من بين التشكيلات القبلية الكبرى بالمغرب،وحسب الرواية الشفوية فامصمودن من الناحية الطبونيمية مشتقة من أمصمود للدلالة على الزرع والحصاد،الذي شكل إحدى أنشطة هذه القبائل بحكم موقعها الجغرافي والطبيعي.

[177] يقول ابن خلدون:«...قبائل هؤلاء المصامدة بهذه المواطن كثيرة فمنهم،هرغة،هنتاتة،تينمل،كدميرة،كنفيسة،وريكة،هزميرة،دكالة،حاحة،أصاده،بنوزكيت،بنوماكر،هيلانة... ».ابن خلدون،المقدمة،تحقيق خليل شحاده،دار الرشاد الحديثة،ص 356.

[178] الوزان الحسن،وصف إفريقيا،ترجمة محمد حجي،محمد الأخضر،الجزء الأول،الرباط 1988،ص75.

[179] الصديقي،إيقاظ السريرة في تاريخ الصويرة،الجزء الأول،دار الكتاب،الدار البيضاء،ص20.

[180] مارمول كربخال،إفريقيا،ترجمة محمد الأخضر وأحمد التوفيق،الجزء الأول،الرباط،1984م،ص:5.

سيدي بوزركري التي ذاع صيتها بين قبائل احاحان منذ تأسيسها على يد أبي زكرياء الحاحي خلال العصر المريني.فما هي جوانب الحضور التاريخي لهذه الزاوية؟



الخريطة رقم 1:التشكيلات القبلية بالأطلس الكبير الغربي،نقلا عن كتاب:

-Montagne,Robert,Les berbères et le makhzen dans le sud du Maroc,casabalanca1989,P :190

المفتاح:

الرقم	اسم القبيلة	الرقم	اسم القبيلة	الرقم	اسم القبيلة
1	إذا وكرض	7	إذا وكيلول	13	أيت تنكرت
2	إذا ويسارن	8	إذا وكازو	14	افسفاسن
3	إنكنافن	9	إذا وزمزم	15	أيت واعزون
4	إمكراد	10	إذا تغومة	16	متوكة
5	أيت زلطن	11	أيت أمر		
6	إذا وبوزيا	12	أيت عيسي		

ب. علاقة زاوية سيدي بوزكري بمحيطها المحلي والإقليمي:

كان ظهور الزوايا بالأطلس الكبير الغربي قد خضع لظروف تاريخية كان أساسها تراث الصوفية الأوائل كالشاذلية والجازولية، وكذا ظروف مرحلة حكم الدولة المرينية،[181] وقد ارتبطت الزاوية بتطور الظاهرة الصوفية المحلية كحركة دينية ساد فيها التيار الجزولي التي تفاعلت مع التحولات التي أحدثها الغزو الأيبيري لسواحل المغرب.[182]

انتشرت الزوايا بالمغرب خلال القرن 14م، حيث أنشئت الكتاتيب لتحفيظ القرآن وتعليم مبادئ الدين وارتبطت هذه الحركية بظاهرة الصلاح والولاية، التي تشكلت بعيدا عن أنظار الدولة المركزية خصوصا في البوادي، لتعرف مراحلها القوية بالجنوب المغرب خلال القرن 7هـ/11م[183]، كما ارتبطت ظاهرة الزاوية بتطور الظاهرة الصوفية المحلية كحركة دينية ساد فيها التيار الجزولي التي تفاعلت مع التحولات التي أحدثها الغزو الأيبيري لسواحل المغرب.[184]

ساهم الغزو البرتغالي بالمنطقة في ظهور مزارات أولياء "البحر" التي ارتبط ظهورها بالطرق الصوفية الجازولية والركراكية، فنظرا لفراغ الدولة المركزية في مقاومة الاحتلال الأيبيري للمنطقة، ظهرت سلطة أولياء البحر على المستوى المحلي، فشيدوا مراكز بالقرب من السواحل لتنظيم المقاومة وتدبير شؤون القبائل، مما ساهم بشكل كبير في ارتباط قبائل الساحل الجنوبي لموكادور ب " أكرام البحر" الذي نسجت له الرواية الشفهية العديد من الأساطير حيث اتخذ مصدرا للاستشفاء والخصوبة والوقاية من السحر، وهي طقوس اجتماعية ظلت عادات ملازمة للقبائل، كتحليق رؤوس الرضع وتنظيم المواسم البحرية بجانب هذه المزارات وهي عادات أمازيغية قديمة

---

[181] الزكاري أسامة،مقدمات أولية من أجل إعادة الاعتبار لعلاقة المخزن بالزوايا وبالمؤسسات التقليدية خلال فترة ما قبل الحماية،مجلة أمل:نظيمة الزوايا في علاقتها بالمجتمع والسلطة،عدد مزدوج:22-23،السنة الثامنة،2001م،ص:86.

[182] القبلي محمد،حول تاريخ المجتمع المغربي في العصر الوسيط،منشورات الفنك،الدار البيضاء،1998م،ص ص 20 ـ 26.

[183] السبتي عبد الأحد،فرحات حليمة،المجتمع الحضري والسلطة بالمغرب من القرن الخامس عشر حتى الثامن عشر،قضاي ونصوص،منشورات دار توبقال للنشر، الدار البيضاء،2007م،ص:51.

[184] القبلي محمد،حول تاريخ المجتمع المغربي في العصر الوسيط،منشورات الفنك،الدار البيضاء،1998م،ص ص 20 ـ 26.

بالمنطقة،[185] وتعتبر مواسم سيدي مكدول وسيدي كاوكي وسيدي أحمد السايح من أهم المواسم العروفة في المنطقة.

ومن المرجح أن يكون ظهور الزوايا بالأطلس الكبير الغربي مرتبط بالرباطات الدينية، التي تزعمها رجالات التصوف والفقهاء والعلماء خلال مرحلة الغزو البرتغالي لسواحل المنطقة، وذلك لتنظيم صفوف الحركة الجهادية من طرف الزوايا الدينية بالجنوب المغربي.[186]

وتجمع كل المصادر التاريخية على دور الرباطات في ازدهار الحركة الصوفية، وقد اتخذ الاحتفال بعيد المولد النبوي لأول مرة في تاريخ المغرب رمزا للوحدة السياسية والمذهبية السنية المالكية خلال العهد المريني.[187]

وقد شكلت الرباطات الدينية امتدادا للزوايا التي أسست بالأطلس الكبير الغربي، حيث ساهمت في تأطير رجالات التصوف الحاحيين والركراكيين اللذين عادوا بعد رحلات علمية وصوفية إلى مواطنهم الأصلية، وأسسوا بعدها مدارس علمية وزوايا دينية، يعتكفون فيها على تربية مريديهم لنشر وحفظ القرآن الكريم.[188]

وظلت القبائل المستقرة حول مصب نهر تانسيفت وأمكدول تواجه خصومها من بورغواطة بسبب دخول المنطقة منذ عهد مبكر إلى الإسلام وإقبال أهلها على مذهب السنة،[189] وقد ظهر

---

[185]تنتشر هذه المزارات على طول سواحل قبائل الشياضمة واحاحان التي شكلت مركزا لانطلاق مقاومة البرتغال بزعامة أولياء وصلحاء القبائل أبرزهم:سيدي مكدول وسيدي كاوكي وسيدي حماد السايح...ونسجت من خلاله الرواية الشفوية والذهنية المحلية العديد من الأمثال والأساطير التي تتداول محليا أبرزها:

ـــ "ايني تكيت أسيدي لبحر بولعموقات نكي تاكوت نك دي ايكنون س لحيلت"

ـــ "مقار ادعا سيدي البحر ديسان أيكات س تاضنكوين واخا ويسا اكنوان،أورا ابضو لمشبوح تازرزيت" المصدر:السيد رشيد أخشخوش،قبيلة اداويسارن،إقليم الصويرة.

[186] قام البرتغال بتخريب مدينة تدنست وفر سكانها إلى الجبال"لأن جيرانهم الأعراب تواطؤا مع قائد جيش ملك البرتغال المقيم بأسفي وكان هؤلاء الأعراب يريدون تسليم المدينة للنصارى"الحسن الوزان،وصف إفريقيا،الجزء الأول،ص:78.

[187] السبتي عبد الأحد،فرحات حليمة،المجتمع الحضري والسلطة بالمغرب من القرن الخامس عشر حتى الثامن عشر،قضايا ونصوص،منشورات دار توبقال للنشر، الدار البيضاء،2007م،ص:83.

[188] نفس المرجع ص:83.

[189]زنيبر محمد،إطلالة على منطقة الصويرة في العصر الوسيط،مقال منشور،سلسلة ندوات،ندوة مدينة الصويرة،الذاكرة وبصمات الحاضر، سلسلة ندوات،منشورات كلية الآداب،أكادير1994،ص81.

رباط شاكر في أواسط القرن 8م، وكان أسوة حسنة لكل الخلايا التعليمية في المنطقة نظرا لدوره في تثبيت العقيدة الاسلامية ونشر تعاليمها بقبائل الأطلس الكبير الغربي.[190]

ومن هذا المنطلق، فقد أسس أبي زكرياء الحاحي زاويته بفرقة اداوكضل باداويسارن، وقدم من رباط تيط بأزمور التي عرفت بازدهار الحركة الصوفية والعلمية، وأنشأ قطبا للتصوف السني من أجل نشر تعاليم الدين الاسلامي في تيغزا باداويسارن، وأصبحت زاويته خلال القرن السابع الهجري ملتقى أهل العلم، فخلال هذه الحقبة أنشأ المرينيون العديد من المدارس والمساجد والمكتبات والمؤسسات العلمية التي لعبت دورا دينيا وحضاريا في منطقة الغرب الإسلامي،[191] مما كان له الأثر في ظهور الزوايا والكتاتيب القرآنية بمنطقة الأطلس الكبير الغربي التي تأثرت بهذه التحولات الدينية والفكرية ما بين العصر المرابطي والعلوي.[192] (أنظر الخريطة رقم2)

وعرف الأطلس الكبير الغربي تطورات سياسية أثرت على الحركة العلمية للزوايا بفعل الحملات العسكرية التي وجهها يعقوب بن عبد الحق المريني لإخضاع قبائل حاحة وهشتوكة،[193] وكما تشير المصادر المخطوطة إلى أن السلطان المريني يوسف ابن عبد الحق قد طلب من يمثل زاوية سيدي بوزكري في الوفد المغربي من أجل إرسال كسوة الكعبة إلى مكة المكرمة، نظرا لانتساب البوزكراويين إلى آل البيت الشريف،[194] فقد تم تشريف آل أمغار سيدي بوسكري بظهائر التوقير والاحترام بفعل دعمهم التاريخي للمرينيين في صراعهم مع الموحدين.[195]

وخلال العهد السعدي، تزايدت المكانة الروحية للشيخ سعيد بن عبد النعيم في قبائل احاحان وسوس وعبدة، مما أزعج السعديين وتخوفهم من قيام إمارة سياسية بالجنوب، وكما تمتع الشيخ يحي الحاحي بنفوذ روحي ديني أهله للقيام بوظيفة التحكيم في التراعات القائمة بين القبائل،

---

[190] الهدري أحمد،مدارس التعليم العتيق بالإقليم الصويري،مقال منشور،سلسلة ندوات،ندوة مدينة الصويرة،منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية،جامعة ابن زهر،أكادير،1994م،ص: 302.

[191] علي حامد الماجي،المغرب في عصر السلطان أبي عنان المريني،دار النشر المغربية،الدار البيضاء،1986م،ص 195.

[192] الهدري أحمد،مدارس التعليم العتيق بالإقليم الصويري،مرجع سابق،ص ص: 301ــ310

[193] بن محمد السعيدي المهدي،المدارس العتيقة وإشعاعها الأدبي والعلمي بالمغرب،المدرسة الالغية بسوس نموذجا،منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية،الطبعة الأولى 2006،ص34.

[194] مخطوط مجهول،يؤرخ لأخبار أل أمغار البوزكراويين،ص 48.

[195] نفس المرجع،أعلاه،ص48.

مما ساهم في التفاف قبائل الأطلس الكبير وسوس حول زاوية اداوزدغ،[196] واضطلعت زاوية سيدي بوزكري خلال هذه المرحلة بتدبير شؤون القبيلة في مرحلة الاضطرابات السياسية والاجتماعية التي ميزت هذه الحقبة من تاريخ المغرب، وظلت دار ندوة وأمنا للسكان في الظروف العصيبة في أيام الجفاف والقحط.[197]

وفي العصر المعاصر، فقد ساهمت الزاوية في فك الخلافات بين قبيلتي اينكنافن واداويسارن، وقد أدت هذه الصراعات إلى العديد من الحروب القديمة بين القبلتين، حيث تدخل شرفاء سيدي بوزكري لوضع حد لهذا الصراع ضمانا لأمن المنطقة ولتسهيل تنقل الأشخاص بين الحدود القبلية، مما جعل السلطان المولى الحسن يقوم بحركة سنة 1864م[198] من أجل وضع حد للصراعات القبلية القائمة باحاحان ومتوكة واداوتنان وسوس بعد انهيار ايالة الحاج عبد الله أبيهي،[199] وكانت قبائل الأطلس الكبير الغربي محطة رئيسية لحركاته ومصدرا من المصادر الأساسية للتموين.[200]

---

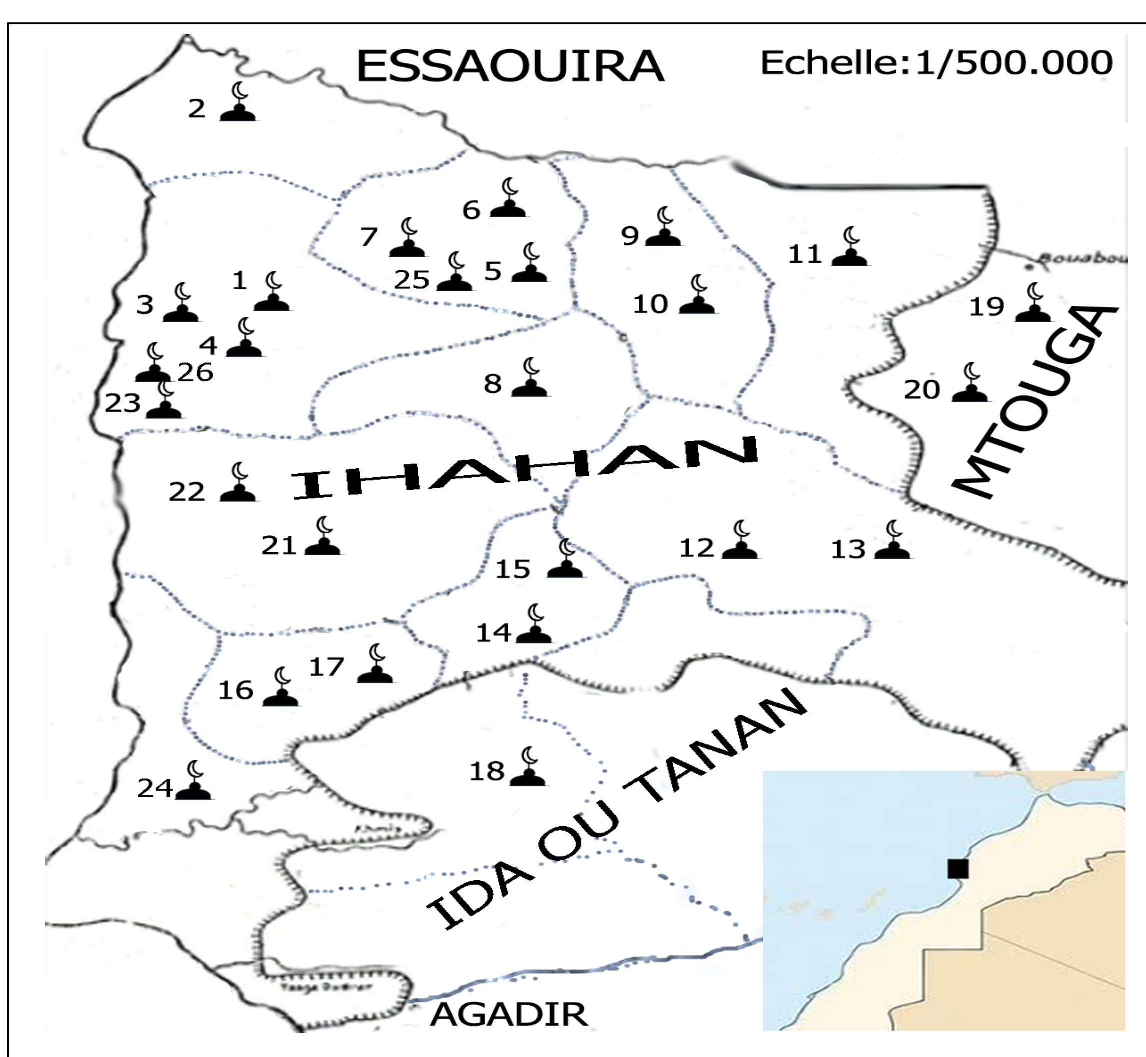
[196]صادق نور الدين،حركة الشيخ يحي الحاحي وقيام إمارة تارودانت،الجزء الأول:من الدعوة إلى الإمارة،منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية،سلسلة الندوات والمناظرات رقم:23،2010م،ص ص:58ــ60ــ86.

[197] محمد الطيب الصويري،العادات والتقاليد التحضرية بقبائل الصويرة،مقال منشور بسلسلة ندوات،ندوة مدينة الصويرة،منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية،جامعة ابن زهر،أكادير،1994م،ص385.

[198] يعتبر موقع زاوية سيدي بوزكري محورا قديما للقوافل التجارية الآتية من جنوب المغرب،فخلال العصر المعاصر ظلت الزاوية إلى جانب التزايل محطة لاستراحة القوافل التجارية،حيث تتبع حركات السلطان المولى الحسن غالبا محور الطرقات التجارية في اتجاه الجنوب.

[199] شروتر دانييل،تجار الصويرة،المجتمع الحضري والامبريالية في جنوب غرب المغرب 1844ــ1886،تعريب خالد بن الصغير،منشورات كلية الآداب،أكدال،الرباط،سلسلة نصوص وأعمال مترجمة،رقم 6،الطبعة الأولى،1997م،ص:348.

[200] عندما توفي السلطان محمد بن عبد الرحمن،كان ابنه مولاي الحسن ولي العهد وخليفته على مراكش يقوم بعمليات حربية في احاحان وبوريقي قرب دار القائد أنفلوس في حوض "وادايكرأونزار" حيث أعلن هناك سلطانا للبلاد،لويس آرنو،زمن لمحلات "السلطانية" الجيش المغربي وأحداث قبائل المغرب م بين 1860 و 1912م، ترجمة محمد ناجي بن عمر، منشورات إفريقيا الشرق،الطبعة الأولى،2001م،ص: 25.



الخريطة رقم2: توضح بعض المدارس العلمية والقرآنية بالأطلس الكبير الغربي.

المفتاح:

الرقم	اسم المدرسة	الرقم	اسم المدرسة	الرقم	اسم المدرسة	الرقم	اسم المدرسة
1	سيدي بوزكري	8	افرض وطه	15	مدرسة اكين ن محند	22	معهد تمنار للتعليم الأصيل
2	سيدي بوعثمان	9	سيدي غانم	16	سيدي حمد أومبارك	23	مدرسة تيليلت
3	سيدي بولبركات العبدري	10	سيدي عكايش	17	مدرسة للا حراء	24	سيدي عبد الرحمان
4	مدرسة أزلا	11	سيدي أوبراهيم أولقاضي	18	مدرسة ألما	25	مدرسة المحصر التيجاني
5	سيدي محند أوسليمان الجزولي	12	سيدي احساين	19	مدرسة زاوية تلمست	26	أدوز ن سيدي منصور
6	مدرسة امين الحد	13	سيدي سعيد أوعبد النعيم	20	سيدي بوبراهيم		
7	سيدي عبد الواسع	14	للا مريم يحيي	21	سيدي حسا حساين		

ج.علاقة الزاوية بالسلطة المركزية:

أسهمت العديد من الظروف والعوامل في تكاثر الطوائف بالمغرب حيث ذكر ابن قنفذ القسطنتيني ــ الذي وقف على قبر أبي محمد صالح بآسفي سنة 763 هــ ــ طوائف كبرى كانت تستوطن كلها بالجنوب المغربي انطلاقا من نهر أم الربيع،هذه الطوائف لعبت دورا مهما في تأسيس الزاويا بالأطلس الكبير الغربي، ارتباطا بالظروف التاريخية التي ميزت المنطقة،إلا أن علاقاتها بالسلطة المركزية اتسمت بالتوتر فخلال العهد السعدي تزايدت المكانة الروحية للشيخ سعيد بن عبد النعيم في أوساط قبائل احاحان وسوس وعبدة، مما أزعج السعديين وتخوفهم المستمر من قيام إمارة سياسية بالجنوب، كما تمتع الشيخ يحي الحاحي بنفوذ روحي ديني أهله للقيام بوظيفة التحكيم في مختلف النزاعات القائمة بين القبائل، مما ساهم في التفاف قبائل الأطلس الكبير وسوس حول زاوية اداوزدغ.[201]

ظل شيوخ الزوايا ينافسون السلطان الشريف في مكانته داخل المجتمع حيث حطم سلاطين المغرب الزاوية الدرقاوية كما حطم المولى رشيد الزاوية الدلائية، والمولى عبد الرحمان بن هشام للزاوية الشرادية،وفي نفس الاتجاه تم شن حرب اقتصادية وسياسية ضد الزوايا، وأفتى بعدم شرعيتها وعدم جواز تقديس الأولياء وبناء الأضرحة،[202] التي اعتبروها مصدرا لانحراف العقيدة والشرائع،صورة استمر عليها سلاطين المغرب في احتواء الطرق والزوايا الصوفية بالمغرب.

و لم تسلم الزاوية البوزكراوية عبر تاريخها من محاولات احتواء المخزن، وتجلى هذا الاحتواء في تقديم الهبات والعطايا ومنح ظهائر التوقير والاحترام،[203] وظلت علاقة الزاوية عبر التاريخ محط اهتمام سلاطين المغرب، لما لها من مكانة روحية دينية في المجتمع الايساري ومحيطه، حيث حظيت باهتمام السلطان المولى الحسن الأول، الذي اختار من أسرة آل بوزكري أمناء،

ثانياــــ الإشعاع الصوفي والعلمي و الاقتصادي للزاوية:

---

[201] صادق نور الدين،حركة الشيخ يحي الحاحي وقيام إمارة تارودانت،الجزء الأول:من الدعوة إلى الإمارة،منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية،سلسلة الندوات والمناظرات رقم:23،2010م،ص ص:58ــ60ــ86.

[202] محمد ضريف،مؤسسة الزوايا بالمغرب،منشورات المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي،ط 1،1992ص:123

[203] شقير محمد،تطور الدولة في المغرب،إشكالية التكون والتمركز والهيمنة،من القرن الثالث ق.م إلى القرن 20م،إفريقيا الشرق،2002،ص:237.



أ. الإشعاع الصوفي ونسب مؤسس الزاوية:

تنسب الزاوية إلى مؤسسها الشيخ أبي زكرياء بن أبي عمرو عبد العزيز بن عبد الله بن يحيي الحاحي،الذي خص له ابن قنفذ القسنطيني وصفا كاملا،فقد عاصر أتباع زاوية سيدي بوزكري ووصف الحركة الصوفية والعلمية،حيث احتل الشيخ سيدي بوزكري مكانة روحية وصوفية بين القبائل الحاحية،وقد تزعم طائفة صوفية مشهورة في القرن السابع هجري سماها طائفة الحاحيين.[204]

وينتمي أبي زكرياء الحاحي إلى أسرة آل أمغار المعروفة في تاريخ المغرب بالتصوف والكرامات التي أسست رباط تيط الذي نبغ فيه الصوفية والأولياء،وأول من دخل المغرب من هذه الأسرة عميدها الأول إسحاق بن إسماعيل أمغار جد الأمغاريين وأخواه أبو زكرياء يحي جد البوزكراويين من أهل احاحان وأبو يعقوب جد الشبوكيين. (أنظر الخطاطة رقم1)

ففي هذا الصدد،قال ابن قنفذ القسنطيني:«...والطائفة الخامسة الحاحيون،ومنهم جملة من جبل درن وهو الجبل العظيم الذي لبس على وجه الأرض مثله في الارتفاع والمياه...وهذه الطائفة الخامسة طائفة الشيخ الحاج الشهير أبي زكرياء الحاحي،ويقال أن من آل بيت النبي الكريم...وقبره بتيغزا من بلاد حاحة...وكان لأبي زكرياء...قبول تام وله في الفقر كلام حسن وتحقيق وتدقيق ووصايا حسنة بكلام لا يصدر إلا عن عالم أو ولي... ».[205]

وظلت الزاوية تمارس طقوسها الدينية بين القبائل الحاحية حيث احتضنت الطرق الصوفية كالتيجانية والدرقاوية،[206] وكما ارتبطت بالزوايا الدينية بالجنوب المغربي من خلال الرحلة الدينية والعلمية التي كان يقوم بها البوزكراويون إلى زاوية سيدي أحمد أوموسى بتزروالت أثناء موسمها السنوي لتأكيد أواصر الترابط الصوفي والديني بين هاتين الزوايتين.

وتحدث ابن قنفذ القسنطيني عن أتباع أبي زكرياء الحاحي،قائلا:«...وكان لأبي زكرياء هذا عند الجمهور قبول تام وله في الفقر كلام حسن وتحقيق وتدقيق ووصايا حسنة بكلام لا يصدر إلا

---

[204] تولى ابن قنفذ القسنطيني منصب القضاء في مراكش خلال العهد المريني،وكما زار الزاوية عام **714 ـــ 810**ه ،وقد ألف كتاب "أنس الفقير وعز الحقير" الذي تحدث فيه عن تاريخ هذه الزاوية.

[205] القسنطيني ابن قنفذ،أنس الفقير وعز الحقير، تحقيق محمد الفاسي وادولف فور،الجزء الأول،سلسلة الرحلات،منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي،مطبعة الرباط،أكدال،**1965**م.ص: **64**.

[206] الهدري أحمد،مدارس التعليم العتيق،مرجع سابق،ص: **307**.

عن عالم أو ولي...وتغالى الجهلة من تلامذته في تعظيمه وتحقيقه وشدة اقتدائهم بجزئياته وتغليظه وترقيته وقوة انقباضهم عمن خرج عنه في تغريبه وتشريفه... »[207]، وكما ازدهرت الحياة العلمية في عهده وبرزت مدرسة سيدي بوزكري التي استقطبت وفودا من طلبة قبائل الأطلس الكبير الغربي.

ب. المدرسة العتيقة وإشعاعها العلمي:

ــ بناء المدرسة:

يصعب تحديد تاريخ بناء مدرسة سيدي بوزركري العتيقة لغياب المصادر التاريخية والأبحاث الأركيولوجية الخاصة بتحديد تاريخ هذه الزاوية ومدرستها،فإشارات ابن قنفذ القسنطيني تشير إلى أن بداية الإشعاع العلمي لهذه الزاوية ومدرستها قد بدأ منذ القرن السابع الهجري حيث وصف الزاوية ومدرستها،قائلا:«...فهي موضع خير وعلوم وقراءة وتدريس...وأكثر اعتناء الحاجيين بالتهذيب والفرائض والحساب... »[208]، خلال العصر المريني الذي تميز بازدهار الحركة العلمية،حيث أسس بنو مرين المدارس العلمية التي لازمت عصر دولتهم الذي سمي بعصر بناة المدارس العلمية[209]، لتنطلق بذلك المدرسة في احتضان المريدين وطلبة العلم من مختلف قبائل الأطلس الكبير الغربي.

ــ الدور العلمي والتربوي:

عرفت المنطقة بتعاطي العلم منذ عهد الدولة المرابطية،وقد ساهمت المدرسة العلمية لزاوية سيدي بوزكري في نبوغ عدد وافر من الفقهاء والأدباء،وكما ظلت موطن إشعاع علمي وصوفي حيث استقبلت وفودا من الزوار والمريدين وطلاب العلم من مختلف المناطق،وقد ساهمت في نشر التعاليم الدينية عند غير القارئين بواسطة مجالس الذكر والمذاكرة التي كانت تنظم بالزاوية،واضطلعت كذلك بدور التكوين في العلوم اللغوية وعلوم القرآن والفقه والحديث وسائر

---

[207] القسنطيني ابن قنفذ،م.س،ص:65.

[208] "ابن قنفذ القسنطيني"، مرجع سابق،ص ص: 44 و 65.

[209] إسماعيل عثمان عثمان،تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى،عصر الدولة المرينية ودولة بني وطاس،الجزء الرابع،الطبعة الأولى،1993م،ص191.

العلوم الشرعية،بالإضافة إلى نشر حفظ القرآن الكريم،ولم تتوان في نشر علوم الدين لدى أبناء القبائل،وهي من أقدم المدارس التي جمعت بين العلم والقراآت والتصوف.[210]

وقد تخرج من المدرسة العلمية لسيدي بوزكري عدد وافر من طلبة العلم،وفي هذا الصدد فقد ازدادت أهميتها العلمية والدينية وأثرت في الحياة العامة للحاحيين،ومن جملة الفقهاء اللذين أحيوا المدرسة،نجد الشيخ أحمد بن الطاهر السوسي الأدوزي و الشيخ عبد الله الخنبوبي السوسي و الشيخ عبد الله الكردوسي السوسي والشيخ سيدي عبد الله اميحي الذي درس بها فن القراآت وعلوم الدين.[211]

وترتبط ساكنة اداويسارن بالمدرسة العلمية العتيقة لسيدي بوزكري ارتباطا وثيقا كمجال لتعلم أبنائهم للاستفادة من العلوم الدينية،ويتجسد ذلك في احتفال الأمهات بتخرج أبنائهن عند استكمالهم حفظ القرآن الكريم،ويسمى هدا الاحتفال بتامغرا ن محضارن أو عرس الطلبة حيث تكلف النساء بطهي بعض الأكلات المحلية الأمازيغية كتمرخفيت،وهي أكلة محلية عبارة عن كسكس تمزج باللوز والثمر،ويتم تقديمها في كل موسم دراسي لطلبة العلم المتفوقين.

ـــ موارد تمويل المدرسة:

تعددت الموارد الاقتصادية عبر التاريخ لمدرسة سيدي بوزكري،حيث كانت تعتمد على الموارد الجبائية لموسمها السنوي والمحاصيل الزراعية لأراضي الأحباس التابعة لها،أما على مستوى الاعتناء بالمدرسة،فقد كانت تدبر من طرف عائلات ابوزكريتن المتفرعة عن مؤسس الزاوية،حيث يتم تمويلها وتقديم الدعم لطلبتها عن طريق الإعانات السنوية التي تقدم للمدرسة.ارتبطت هذه الأسر روحيا وصوفيا بزاوية سيدي بوزكري منذ القدم،وظلت تحافظ على الدور التعليمي وإشعاعها الديني من خلال الأعشار التي يدفعها أبناء قبيلة اداويسارن،بالإضافة إلى إشرافها على التنظيم السنوي لموسم الزاوية،(أنظر الجدول رقم 1)

ولأهميتها الجبائية فقد عين المولى الحسن كل من الأمناء،محمد من إيالة البوفتري، وعبد الله من إيالة الزلطني، والسيد عمر من إيالة النكنافي، والسيد علي من إيالة الجلولي، وقد كلفهم بتحصيل المستفادات والضرائب أثناء تنظيم المواسم الدينية بالمنطقة.[212]

---

[210] الهدري أحمد،مدارس التعليم العتيق،مرجع سابق،ص:320

[211] م.ن ،ص:320

[212] الكناش رقم 354،مستفاد احاحان 1882-1887،حساب ما بذمة الزوايا من بعض المنتجات المحصلة من

أما زاوية سيدي بوزكري،فقد عين عليها المولى الحسن الأمين عبد الله أمغار بوزكري لتحصيل الأعشار والمستفادات بقبيلة اداويسارن والزوايا المحيطة بها،وتشير وثيقة تاريخية إلى إلغاء المولى الحسن للإعفاء الضريبي للزوايا،وقد ألح السلطان للأمين المعين على رأس الزاوية،على ضرورة الحفاظ على جزء من المحاصيل الزراعية وإنفاقها على الضعفاء والفقراء لتأمين الموارد الغذائية و الفلاحية نتيجة توالي سنوات القحط والجفاف التي كان تأثيرها سلبيا على إنتاج الحبوب،حيث تضررت جل مناطق المغرب من رداءة الإنتاج وتأثير اجتياح الجراد على المزروعات والمحاصيل،وأصبح معه السكان عاجزين عن أداء الضرائب.[213] ومما جاء في هذه الرسالة:«....ويجعل في محل محترم كبعض الزوايا إلى أن تباع في الإبان والوقت التي يرضونه ويؤخذ عنها الواجب كما أجبنا بمثل من كتب في مثل ذلك من أبناء قبائل حاحا إذ المقصود في عدم قبضة من عين فأوجب حول بقاء الحبوب بقصد نفع الضعفاء والمساكين ساهم عليه الناس من الاحتياج إليه حتى إنه يجلب من الخير... »[214]،وذلك لتأمين حاجيات الزاوية ومدرستها من الموارد الغذائية ضمانا لسير مرافقها،وقد ظلت مسألة الماء من بين المشاكل التي واجهت الزاوية عبر التاريخ حيث بنى البوزكراويون مخازن لمياه المطر لضمان تزود المدرسة العتيقة من الماء في الظروف العصيبة.

ج.الإشعاع الاقتصادي لموسم الزاوية:

لم يعرف تاريخ بداية الاحتفال بالمواسم الدينية بالأطلس الكبير الغربي نظرا لانعدام المصادر الإخبارية المحلية وشح الوثائق المحلية،إلا أن المواسم ظلت مصدرا للإشعاع الاقتصادي لزوايا الأطلس الكبير الغربي وموردا جبائيا لتدبير شؤونها،وتحتفل زاوية سيدي بوزكري بموسمها السنوي في أواخر شهر غشت من كل سنة،وهي مناسبة روحية تجسد ارتباط الفرق والقبائل بالشيخ الصوفي أبي زكرياء الحاحي،وكما تعمل على الإشراف على أمن الأسواق ورعايتها أثناء الموسم.

طرف أربع أمناء زوايا احاحان لفترة 1300 هـ – 1301 هـ (موافق: 1883 – 1884م)،الخزانة الحسنية بالرباط،

[213] الناجي محمد،التوسع الأوروبي والتغير الاجتماعي في المغرب القرن 16 و 19،ترجمة عبد الرحيم حزل،منشورات جذور،الطبعة الأولى،2004م.،ص87ـ 89ـ91

[214] رسالة من السلطان المولى الحسن إلى الأمين عبد الله المغاري،مؤرخة في 25 شعبان 1300 هجرية،وثائق أيت المقدم،زاوية سيدي بوزكري،سميمو.

وقد ساهم قرب الزاوية من محور الطرق التجارية في ازدهار الحياة الاقتصادية،حيث ظهرت مجموعة من التزايل أو (نزلت) بالمنطقة التي لعبت دورا مهما في استراحة القوافل التجارية الآتية من عمق الصحراء والمتجهة شمالا،وتلزم على تجار القواقل بأداء رسوم وواجبات لضمان تأمينها،[215] ففي هذا الصدد نجد عبر المحاور التجارية الرابطة بين أكادير وموكادور العديد من التزايل التي تستقبل القوافل القادمة من الصحراء أبرزها:نزالة بوشان بقبيلة اداوكرض،ونزالة اداوكيلول،ونزالة لوضا وامي أمسدناس.

وقد ارتبطت تجارة القوافل بشبكة من العلاقات الاجتماعية لعبت فيه الزاويا الدينية والمرابطون الموجودون في زوايا الجنوب المغربي دورا مهما في توفير الأمن لمحاور تجارة القوافل ،[216] مما مكن هذه الزاوية من احتضان النشاط الاقتصادي عبر الخطوط التجارية المارة بأكادير والأطلس الكبير الغربي،والمتجهة إلى ميناء موكادور بعد تأسيسه من طرف السلطان محمد ابن عبد الله.[217]

وكما يرتبط موسم الزاوية بالعديد من الطقوس الدينية الرمزية،وتحتل فيه الهدايا والهبات المقدمة إلى الزاوية طابعا رمزيا وروحيا[218] التي تقدم في اليوم الثاني،حيث تصل وفود القبائل وفرقها المجاورة إلى الزاوية ويعلنون بدء طقوس الذبيحة وتقديم هدايا نقدية وعينية لصالح شيوخ الزاوية وطلبتها،وهي طقوس وعادات تميز المواسم الدينية بالمنطقة.[219]

---

[215]الخديمي علال،من التاريخ الاجتماعي للمغرب،مؤسسة التزايل والمواصلات الداخلية والتدخل الأجنبي خلال القرن 19م،ندوة التجارة وعلاقاتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب،الجزء الأول،منشورات كلية الآداب،عين الشق الدار البيضاء،1992،صص193 و 194.

[216]شروتر دانييل،تجار الصويرة،مرجع سابق،ص:174.

[217]أفا عمر،اليهود في منطقة سوس دورهم الاقتصادي وعلاقتهم بالصويرة،،سلسلة ندوات،ندوة مدينة الصويرة،منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية،جامعة ابن زهر،أكادير،1994م،ص:143.

[218] تعددت الدراسات التي خصت بالدرس والتحليل موضوع الهدية،ويعتبر الأنتروبولوجي مارسيل موس أول من اهتم بالمكانة الكبرى للهبة داخل المجتمعات الإنسانية،حيث بحث في الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية والدينية مؤكدا على أن الهدية تمثل ترابطا لالتزامات ثلاثة:العطاء والقبول والرد،وهي التزامات تدفع إلى العودة إلى نقطة انطلاقتها،وترتبط بما هو رمزي داخل المجتمعات الإنسانية،للتوسع في الموضوع أنظر:

- Allain Caillé ;Don,intérét et désintéressement.Bourdieu,Mauss,Platon et quelques autres,Paris,Editions la Découverte,pp 78.8

[219]ظلت طقوس الذبيحة من الممارسات القديمة بالمغرب التي ارتبطت بالظاهرة الصوفية،حيث تتكلف القبائل والفرق بشرائها وإهدائها للزاوية.

وكما ساهمت في توطيد العلاقات بين الزاوية والقبائل،فهي مصدر التحالفات القبلية وأساس استمرار العلاقات بين القبائل،وكما تكتسي طابعا معنويا في تجسيد أواصر القرابة بين أفراد القبائل المتحالفة أو بين المريدين وشيوخهم من المتصوفة ومصدرا لقوة نفوذ الزواية.

خلاصات:

كان لزاوية سيدي بوزكري صيت كبير بقبائل احاحان،فمنذ تأسيسها على يد العالم الجليل الشيخ أبي زكرياء الحاحي بدأت مدرستها العلمية في استقطاب وفودا من طلبة العلم لتلقي العلوم الدينية واللغوية والأدبية،حيث كان حضور الزاوية وازنا في المجتمع المحلي كمؤسسة ملازمة للحياة الدينية والاجتماعية والتعليمية لدى قبائل الأطلس الكبير الغربي،وكما أن إشعاعها الاقتصادي قد جعل من موسمها قبلة للتجار من مختلف المناطق بالجنوب المغربي.

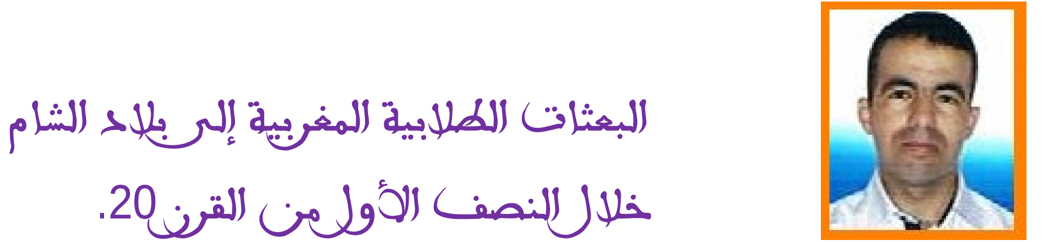
ولكن ابتدأ ضعف الزاوية ومدرستها العتيقة في أواخر التسعنيات من القرن 20م بعد وفاة العلامة الشيخ سيدي عبد الله اميحي وتراجع عدد طلبة هذه المدرسة وأطالها الإهمال من مختلف الجوانب،فوضعيتها العمرانية في حاجة إلى ترميم معالمها التاريخية وإعادة الاعتبار لذاكرتها الأمازيغية والمحافظة عليها من انعكاسات الظروف المناخية.

وكما أن تاريخ هذه الزاوية ومدرستها العتيقة في حاجة إلى تظافر جهود الباحثين من أجل كشف الأرشيف المحلي الذي مازال حبيس الأسر البوزكراوية ورفوف المكتبات الخاصة،واستثمار الرواية الشفوية الأمازيغية في رصد علاقة الإنسان بالزاوية والمدارس العلمية العتيقة بالأطلس الكبير الغربي.

علاقات المغرب بالمشرق







نورالدين أغوثان

باحث في التاريخ المعاصر

أخذ المغاربة منذ وقت مبكر(1928) بتكوين البعثات الطلابية وإرسالها للدراسة بالمشرق، وقد استقطب الشام جزء كبير من هذه البعثات عن طريق المدارس التي درس بها المغاربة خاصة مدرسة نابلس ومدارس دمشق وبيروت. وكان الهدف من هذه البعثات هو النهل من الإشعاع الفكري الذي كان يعج به الشام ووضع نهاية للعزلة الثقافية التي كان يتخبط فيها المغرب.

وقد همت هذه البعثات المنطقتين السلطانية (منطقة النفوذ الفرنسي) والخليفية(منطقة النفوذ الإسباني) على حد سواء، فطلبة المنطقة الخليفية كانت وجهتهم جامعة نابلس بفلسطين، أما طلبة المنطقة السلطانية فقد قصدوا مدارس دمشق وبيروت أما القاهرة فقد إتجه إليها الطلبة من كلا المنطقتين...

أ- مدرسة النجاح بنابلس:

يرجع الفضل في إرسال البعثات الطلابية إلى المشرق إلى الحاج عبد السلام بنونة، ذلك أنه لم يكن يقتنع بما يتلقاه الطلبة بالقرويين، نظرا لتخلف برامجها ومناهجها الدراسية.

وأخذ يدرس فكرة توجيه بعثة علمية إلى الخارج، بحث كثيرا ليجد المركز العلمي الذي تدرس فيه العلوم الحديثة ويحافظ في نفس الوقت على طهارتهم الروحية ويهيئ لهم الجو الإسلامي والتربية الإسلامية الصحيحة، فوقع اختياره على مدرسة النجاح بفلسطين لكونها كانت معقلا من معاقل العروبة والوطنية[220] فوجه البعثة الأولى مؤلفة من ولده الطيب والأستاذ محمد بن مصطفى أفيلال حيث غادرت هذه البعثة تطوان سنة 1928.

وعن حيثيات إرسال البعثات الدراسية إلى نابلس هناك ثلاثة روايات: الأولى لمحمد بن الحسن الوزاني يذكر في مذكراته أنه عندما كان طالبا في باريس، أطلعه طلبة من نابلس على كتيب يتضمن معلومات من مدرسة النجاح، فأعجب بها وتمنى أن لو قصدها بعض الطلبة المغاربة. وعندما عرج في عطلة الصيف على تطوان أطلع الحاج عبد السلام بنونة على ذلك الكتيب وقد اقتنع بنونة بفكرة الابتعاث لنابلس[221].

الرواية الثانية للمهدي بنونة ابن الحاج عبد السلام بنونة يقول أنه في إحدى زيارة عبد السلام لجنيف طلب النصح من شكيب أرسلان حول مسألة تعليم أبناء المغاربة في شمال المغرب فنصحه الأمير بإرسال تلك البعثات إلى فلسطين، وبناء على تلك النصيحة اتصل بنونة بأحد شباب فلسطين في ذلك الوقت صابر الشنار الطالب في إحدى جامعات فرنسا الذي سبق له أن تخرج من مدرسة النجاح الوطنية في نابلس فأعطاه عنوان المدرسة واسم مديرها حينئذ عزة دروزة الذي أرسل إليه برامج الدارسة وشروط الالتحاق بها ورحب باستقبال بعثة مغربية في المدرسة[222]. وبالفعل حيث نجد صدى وصول هذه البعثة في مذكرات عزة دروزة "ولقد تعدى اسمها نطاق فلسطين (مدرسة نابلس) ووصل إلى بلاد المغرب العربي وجاءنا في سنة 1928 من تطوان

1- عزيمان (محمد)، عمل الحاج عبد السلام بنونة في الميدانين الاجتماعي والثقافي، مجلة الإيمان، س10ع25/جمادى الأولى والثانية 1400/ أبريل – ماي 1980، مطبعة النجاح الجديدة البيضاء، صص27-37 ص 32.

2- الوزاني (محمد بن الحسن)، مذكرات حياة وجهاد، مؤسسة محمد حسن الوزاني، الدار البيضاء، ج1/446.

3- بنونة (المهدي)، المغرب ... السنوات الحرجة، الشركة السعودية للأبحاث والتسويق، كتاب الشرق الأوسط، صص، 13-14.

وغيرها سبعة فتيان (يذكر أسمائهم) نشيطين جادين ونظيفين حريصون على القيام بواجباتهم الدينية مما أكسبهم تقديري وتقدير الأساتذة ومجتمعهم"[223].

الرواية الثالثة تقول بأن الحاج عبد السلام بنونة كتب رسالة إلى عبد القادر المغربي رئيس المجمع العلمي بدمشق يطلب منه معلومات حول إمكانية إيفاد بعثة من الطلبة المغاربة إلى هناك، وقد أحال الشيخ المذكور رسالة بنونة على رئيس الجامعة السورية الذي أجاب بنونة يوم 13 ربيع الأول 1346/ 10 شتنبر 1927.[224]

ومهما اختلفت الروايات فإن مسألة التعليم الحديث كانت الشغل الشاغل للحاج عبد السلام بنونة قبل هذا التاريخ بسنوات، حيث يذكر التهامي الوزاني في مذكراته أنه بعد الحرب العالمية الأولى كان عبد السلام بنونة يفكر في أن يبعثه هو و معه أخاه محمد بنونة إلى الدراسة في بيروت، لكن الأحوال المضطربة التي كان يعرفها المشرق نتيجة الحرب بين تركيا واليونان حالت دون ذلك[225].

ومن الأسباب التي أدت إلى اختيار فلسطين وليس مصر لتكون مكان لدراسة هذه البعثة أنه في أواخر العشرينات انتشرت في مصر خاصة في الأوساط المتعلمة ظاهرتان أدتا بالمغاربة للعزوف عن إرسال أبنائهم للدراسة في القاهرة :

- الظاهرة الأولى: الحنين للنعرة والثقافة الفرعونية.
- الظاهرة الثانية: موجة الإلحادية التي عمت بعض الأوساط المثقفة[226].

وهكذا انطلقت أولى البعثات الدراسية إلى نابلس عام 1928 كما سبقت الإشارة إلى ذلك بإرسال شابين هما الطيب بنونة و زميل له محمد بن مصطفى أفيلال على سبيل التجربة، وبعد نجاح التجربة طلب عبد السلام بنونة من أصدقائه العمل على إرسال أبنائهم إلى نابلس، وفي السنة الموالية (1929) غادرت بعثة ثانية المغرب للالتحاق بنابلس وهي تتكون من طلاب: المهدي بنونة، عبد السلام بنجلون، محمد بن عبد السلام الفاسي الحلفاوي، محمد بن محمد الخطيب،

4- دروزة (محمد عزة)، مذكرات محمد عزة دروزة 1305-1404 / 1887-1984. دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت 1993 المجلد 1 الجزء 1 ص 537.

5- ابن عزوز(حكيم)، أب الحركة الوطنية الحاج عبد السلام بنونة، حياته نضاله، م س، ج1، ص،257 حيث توجد صورة لهذه الرسالة.

6- الوزاني (التهامي)، الزاوية، منشورات مكتب النشر ، مطبعة الريف 1942، تطوان،ج1 ص، 59.

7- بنونة (المهدي) المغرب ... السنوات الحرجة، مرجع سابق، ص، 12.

محمد بن عبد السلام الخطيب، عبد الله الخطيب، أحمد بن عبد الوهاب، والتحق بهم في نفس العام عبد المجيد حجي من سلا وشقيقاه عبد الكريم وسعيد والأخيران جاءا إلى نابلس ولكنهما فضلا فيما بعد الدراسة في دمشق[227].

وكان بالإمكان أن تتعزز البعثة بطلبة آخرين من المنطقة السلطانية، حيث عزم بعض أعيان المغرب في إرسال أولادهم للدراسة بفلسطين من بينهم الحسين بن ثابت الذي رغب في إرسال نجليه والسيد محمد الحلو، وكذلك عزم الطالبين عبد الرحمن برادة وأخيه العربي على الالتحاق بالبعثة[228].

و لم نسجل الالتحاق الفعلي لهؤلاء بالبعثة ربما لأن الفرنسيين منعوهم من ذلك...

فإرسال البعثات الدراسية إلى نابلس، خلف ردود فعل متباينة لدى السلطات الاستعمارية، فإذا كانت إسبانيا لم تمانع في ذلك، فإن فرنسا عارضت إرسال هذه البعثات؛ فتسامح إسبانيا تجاه هذه البعثات يرجع بالأساس إلى حاجتها في تحسين صورتها لدى الأهالي وكسب ثقتهم، وكذا ربط علاقات ودية مع الدول العربية كنتيجة لسياسة تسامحها داخل المغرب، وأيضا خلق متاعب للسلطة الفرنسية بمعاكسة سياستها الإستعمارية في مجال حساس وهو التعليم[229]...

أما فرنسا فقد كانت تعارض إرسال هذه البعثات، وذلك لعدة اعتبارات:

1- شكلت هذه البعثات تحديا مزدوجا بالنسبة للحماية الفرنسية، أولا لأن هؤلاء الطلبة يتلقون بالمشرق ثقافة عربية إسلامية عصرية مختلفة عن الثقافة الاستعمارية الفرنسية، وثانيا أن هذه البعثات نسجت علاقات مع عدد من الوطنيين المشارقة خارج الرقابة الفرنسية.

2- الأخطار السياسية التي من الممكن أن تترتب بعد عودة هؤلاء إلى وطنهم، وتحريكهم العمل النضالي ضد فرنسا.

8- المهدي (بنونة)، المغرب... السنوات الحرجة، م.س ص 14. وأيضا ابن عزوز (حكيم)، مرجع سابق 305/1.

9- ابن عزوز (حكيم)، أب الحركة الوطنية، مرجع سابق 310/1.

[229] - Cagné (Jacques), un exemple de mission estudiantine en orient dans les années trente, des lycéennes Tétouanais à Naplouse in Titwan fi ahd al himaya, 1912-1956, Rabat, okad, 1992,pp, 301-309, p, 305.

3- العلاقات الثقافية والسياسية التي يمكن أن يربطها هؤلاء مع زعماء الحركة الوطنية بالجنوب، مما يشكل تهديدا لنظام الحماية الفرنسية[230].

وتتجلى التخوفات الفرنسية من هذه البعثات من خلال تقرير رفعه قنصل فرنسا بالقدس إلى وزارة الخارجية الفرنسية بتاريخ 15 ماي 1933... حيث يسجل التقرير بأن 20 شاب مغربي من المنطقة السلطانية [فاس ومراكش] يريدون إتمام دراستهم بمدرسة النجاح بنابلس، ومع أن هذه المدرسة كانت تعيش عجزا ماليا حسب التقرير فهي لا تتوانى في استقطاب الشبان المغاربة بدمشق للانضمام إلى صفوفها... ولهذا وجب اتخاذ جميع الإجراءات لمنع المغاربة من الولوج إليها سواء من المغرب أو من سوريا... وذلك حتى لا يشكل هؤلاء مصدر قلق سواء بالنسبة لمصلحة الحماية أو الحكومة الشريفية[231].

ورغم ذلك فقد استمرت أفواج المغاربة خاصة من المنطقة الخليفية تأتي تباعا إلى نابلس، حيث نشرت مجلة السلام صورة للبعثة العلمية التطوانية التي سافرت إلى نابلس في أكتوبر1933 والتي تكونت من أحمد بن عبود، أحمد مدينة، الطيب بنونة، محمد بن حساين، عبد الله حسيسن، إدريس و عبد الكريم ابن عبد السلام بنونة[232].

لقد فتحت هذه المبادرة صفحة مشرقة في تاريخ العلاقات المغربية الشامية، وقام أفراد هذه البعثة بعدة تحركات بهدف شرح الأوضاع السياسية التي يجتازها المغرب تحت الاحتلال الفرنسي خاصة بعد صدور الظهير البربري، حيث فتحت الصحافة الفلسطينية المجال للكتابة عن القضايا المغربية، وكانت الصحافة الفلسطينية من أولى الصحف التي ناهضت الظهير البربري نظرا لأن ذلك يمس في عقيدة الإسلام بصفة عامة.

وقد نقلت هذه البعثة إلى تطوان معارف كثيرة وثقافة جديدة وتقاليد لم تكن معروفة في المنطقة وتعابير وأساليب في الحديث وأسماء ومصطلحات سرعان ما اختلطت باللهجة المحلية وبالبيئة التطوانية، ومن مظاهر التأثير الذي أحدثته هذه البعثات إطلاق أسماء عربية على المشروبات الغازية التي تأسست شركات لها في تطوان في تلك المرحلة من مثل الفرات والنيل والكوثر، تم

230- Benaboud (M'hamed), Les missions culturelles de Tétouane au moyen orient : La mission à Naplouse (1928- 1931) et les missions au Caire (1938) in Elites et pouvoir dans le monde arabe pendant la période moderne et contemporaine, CERES, Tunis, 1992, p 61- 71.

231-A. B.G.R.Dossier E 33, chemise « Etudiants Marocains à l'étranger ».

13- مجلة السلام، الجزء الثاني، السنة الأولى، رجب 1352 / نونبر 1933 المطبعة المهدية تطوان.

يتمثل هذا التأثير في أسماء الصحف التي صدرت في تطوان مثل " الحياة" و"الأخبار" و"الحرية" بل إن هذا التأثير وصل حتى إلى فاس والذي يتمثل في أسماء التنظيمات السياسية التي عرفها المغرب في مطلع الثلاثينات ومنها " كتلة العمل الوطني " وهو اسم تنظيم سياسي وطني تأسس بسوريا في تلك الفترة، كما تأسس في فلسطين أولا ثم في العراق حزب الاستقلال[233].

كما تأسست جمعية الثبات بتطوان اقتداء بجمعية الثبات بمدرسة النجاح بنابلس وهي جمعية تلاميذية هدفها تنشيط الحركة الثقافية المدرسية وتنميتها وإثرائها عند جميع مشاربها حيث اعتبر ذلك أجمل ما حمله الطالب التطواني عبد الله الخطيب من تلك الحارة النابلسية إلى مدينة تطوان[234].

وكان ذلك تعبيرا عن وحدة النضال العربي ووحدة المشاعر والأفكار والمبادرات والتحركات التي كانت تأخذها الحركات التحررية العربية في المشرق والمغرب.

ب- مدارس دمشق:

إذا كانت مدرسة النجاح بنابلس قد استقطبت طلبة من المنطقة الخليفية، فإن ذلك شكل حافزا لأبناء المنطقة السلطانية من أجل التوجه إلى خارج المغرب بغية متابعة دراستهم، فكانت أسرة آل حارثي حجي أول الأسر السلاوية التي اهتدت إلى هذه الفكرة، والتي تسربت نتيجة نجاح مبادرة عبد السلام بنونة السالفة الذكر، فعبد المجيد حجي هو الذي عمل على نشر فكرة المدارس الشرقية بين صفوف الشباب السلاوي.

ويمكن تلخيص أسباب التوجيه للدراسة بمدارس دمشق أساسا في الموقف من نوعية التعليم والطرق التربوية المستعملة بمدارس المغرب، حيث لم يحصل من هذه المدارس أية فائدة، لهذا كانت تتعرض لكثير من الانتقادات[235] فحتى جامعة القرويين فقد أدرك الشباب محدودية التعليم التي تلقنه، فتعددت الأصوات التي تطالب بإصلاحها[236].

14- الإدريسي (عبد القادر)، مواقف مغربية، فصول في التاريخ والثقافة والفكر، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء ،2000، ص 302.

15- الصباغ (محمد)، الطفولة الستون، رواية، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى، 2005 الجزء 1 ص 269.

16- القادري (أبوبكر)، سعيد حجي 1330-1361 / 1912-1942، دراسة عن حياته ونشاطه الثقافي والسياسي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1979 الجزء 1 ص 08.

17- نفسه ج 2 ص187.

وهكذا سافرت أول بعثة سلاوية مكونة من أبناء أحمد حجي يتقدمهم عبد المجيد حجي الذي سرعان ما إلتحق به أخويه عبد الكريم وسعيد بعدما أذنت لهما سلطات الحماية بالسفر في نونبر1930، وقد انضم إليهم لاحقا عبد الهادي زنيبر[237].

ورغم العراقيل الاستعمارية والدعاية التي تنشرها مصالح المراقبة المدنية بسلا ضد مدارس الشرق، من أن التعليم الملقن بالمدارس الاسلامية لا يقل أهمية ومستوى عن تعليم مدارس الشام ومصر، فإن عدد من الأعيان استمروا في المطالبة بالترخيص لأبنائهم في السفر، حيث تذكر مراسلة لمصالح المراقبة بمدينة سلا في 5 شتنبر 1932 لائحة من الأهالي الذي طلبوا الترخيص لأبنائهم للسفر إلى الشام وهم:

- عمر لامين: تاجر يملك دكاكين بسلا والخميسات يطلب الترخيص لأبنائه وعمرهم 12و 15 سنة من أجل التوجه إلى الثانوية الاسلامية بدمشق.
- عبد الكبير الفاسي: كاتب مترجم بإدارة الشؤون الشريفية يطلب الترخيص لأخيه عمره 15 سنة من أجل التوجه إلى نفس الثانوية[238].

يبدو أن خطة الاستعمار قد نجحت حيث سبق لأحد الأعيان هو عبد القادر الجعايدي أن بعث بطلب إلى نائب المراقب المدني بسلا يحثه فيه على الموافقة على إرسال ابنه محمد الزمزمي الجعايدي إلى الشام إلا أنه ما لبث أن عاد بعد ثلاثة أسابيع في 3 شتنبر 1931 ليطلب عدم الترخيص لابنه بالسفر خوفا من تبديل الأخلاق.

وكان لهذه البعثة السلاوية الأولى أن رغب عدد من الأعيان في إرسال أبنائهم إلى تلك الديار إلا أنهم ظلوا ينتظرون الترخيص لهم دون جدوى[239].

ويتضح أن الدعاية لصالح إرسال الأبناء للدراسة بالمؤسسات التعليمية بسوريا انتقلت إلى مدينة الرباط، كما تشير إلى ذلك النشرة الإخبارية التي تصدرها سلطات الحماية والمؤرخة في 20 دجنبر 1938، حيث تفيد هذه النشرة بأن عدد من أعيان الرباط يرغبون في إرسال أبنائهم إلى

18- حجي (عبد الرؤوف)، عبد الكريم حجي: الحلقة المفقودة من تاريخ الحركة الوطنية، الطبعة الأولى كيبكورورلد ليفن ، كندا، 2004، ص 196.

19- واحي (العربي)، المجتمع السلاوي في ظل الحماية، دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب بالرباط، السنة الجامعية 1987-1988 ص 189 .

20- رسالة من أبي بكر القادري إلى عبد الرحمن حجي بدمشق مؤرخة بفاتح دجنبر 1932 أوردها حجي (عبد الرؤوف) ،عبد الكريم حجي، الحلقة المفقودة من تاريخ الحركة الوطنية .م.س، ص 158.

مدارس دمشق عوض معاهد مصر نظرا لارتفاع كلفة الكتاب المصري، في حين أن كلفة الدراسة بمعاهد دمشق لا تتجاوز 300 فرنك في الشهر[240].

وقد قامت هذه البعثة بدور هام في التعريف بمشاكل المغرب والدفاع عن حقوقه والتشهير بمخازي الاستعمار الفرنسي، و لم يقتصر نشاطها على طلب العلم فقط بل تعداه إلى مراسلة بعض الجرائد المشرقية التي بدأت تطفح بمستجدات القضية المغربية وفي مقدمة هذه الجرائد "العرب" الذي كان يصدرها عجاج نويهض وجريدة " الجامعة الاسلامية " الفلسطينية[241].

ولدى عودة هذه البعثة السلاوية من المشرق بعد إتمام الدراسة، قامت بنشاط سياسي وتعليمي مهم. ليتأكد بأن إرسالها إلى هناك لم يكن مضيعة للوقت وإنما ساهم في تكوين نخبة واعية بالمشاكل التي كان يمر منها المغرب آنذاك، حيث نجد في بطاقة استخبارتية صادرة عن المراقب المدني بالرباط والمؤرخة ب11 يوليوز 1934 جانبا من هذا النشاط...

تقول هذه البطاقة بأن الشباب السلاوي القادم من الشام بعد إتمام دراسته شرع في إعطاء دروس مجانية بالمدرسة القادرية بسلا وهم كالتالي:

- الأخوان سعيد وعبد الكريم حجي واللذان سبق أن تم إيقافهما بالمركز الحدودي عرباوة بتهمة تسريب جرائد شامية ممنوعة... يعطيان دروس يومية في علوم اللغة والفقه..

- الشاب محمد حصار يعطي دروسا في اللغة الفرنسية، حيث هناك دلائل على أن دروسه لا تعطى مجانا حسب البطاقة الاستخباراتية.

- وأخيرا الشاب محمد شماعو له نشاط سياسي ملحوظ وبين الفينة والأخرى يعطي دروسا في اللغة العربية.

ويناهز عدد التلاميذ الذين يتابعون هذه الدروس حوالي 200 تلميذ، والنسبة الكبيرة منهم أبناء الأعيان.

---

240 - Direction des affaires politiques, bulletin d'informations du 20 décembre 1938, N° 151 /A .B.G.R .F210.

22- حجي (عبد الكريم)، سعيد حجي ، فجر الصحافة الوطنية المغربية في عهد الحماية : تصنيف و تقديم عبد الرؤوف حجي ، كيبكور ورلدلبنفن الطبعة الأولى كندا 2003، ص 420.

ج- مدارس بيروت:

عرفت بيروت منذ مطلع القرن العشرين بازدهار مدارسها ومعاهدها، ولهذا السبب استقطبت أنظار المغاربة وشدوا إليها الرحال طلبا للعلم والمعرفة.

وقد يصطدم الباحث بقلة المعلومات في هذا الإطار إلا أن هناك بعض النتف التي توضح مدى تطلع المغاربة للدراسة بهذه المدارس والمعاهد وفق تعليم حديث يوافق متطلبات العصر ...

والجدير بالذكر أن الدراسة بمعاهد بيروت المختلفة المشارب، كانت وفق حاجة فردية، وهكذا نجد عدد من التلاميذ المغاربة يتابعون دراستهم بالكلية العثمانية سنة 1329هـ / 1910م من بينهم أحمد بن محمد الهواري، ونجل الصدر الأعظم التهامي المقري، بلغيث محمد البلغيثي ومحمد بن عبد الكريم التادلاوي، وفي سنة 1353/ 1934 وجد فيها من التلاميذ المغاربة نجلي محمد بن جدية وقد تشبعا بمبادئ علومها[242].

وفي عز توجه البعثة السلاوية إلى دمشق كما أسلف الذكر نجد هناك من بين الشباب من اختار التوجه إلى مدارس بيروت.. ومن أجل ذلك مثلا حصل الصديق بن بوكر عواد على ترخيص مغادرة التراب الوطني في 10 غشت 1931، أشفعه بطلب إلى المراقب المدني بسلا مؤرخ في 12 غشت 1931 بغية السماح له للذهاب لمتابعة دراسته بالمدرسة الفرنسية العربية ببيروت مرفقا طلبه بالتزام والده بتحمل كل أعباء السفر و بإيصال من محكمة باشا سلا.

وقد عرف عن الكلية الإسلامية ببيروت الحزم والعناية بالثقافة العربية، ولهذا فقد شهدت إقبال آل حجي على الدراسة بها في طريقهم إلى دمشق سنة 1930 وهكذا تقدم أحمد حجي بطلب الإذن لبعث ولديه عبد الكريم وسعيد إلى لبنان قصد متابعة دراستهما بالكلية المذكورة. وقد استجابت الحماية الفرنسية لطلبه شريطة أن ينشغلا إبنيه فقط بالأمور الدراسية وأن لا ينخرطا في أي منظمة ذات صبغة سياسية وأن يتعهدا بالامتناع عن نشر أي مقال كيفما كان نوعه في الصحف الناطقة باللغة العربية.

وقد غادرا سلا باتجاه بيروت يوم 03 نونبر 1930 حيث اتجها إلى سوريا عن طريق طنجة - مرسيليا – الاسكندرية، في حين أرسل المقيم العام بالرباط إلى المفوض السامي للجمهورية الفرنسية بسوريا رسالة في هذا الشأن.

23- الهواري (أحمد بن محمد)، دليل الحج والسياحة ،المطبعة الرسمية، الطبعة الأولى، الرباط 1935، ص 224.

وترجع أسباب السماح لإخوان حجي بالذهاب إلى كلية بيروت، عوض مدرسة نابلس على أن لبنان بلد قد يسهل فيه مراقبة الأخوين في كل حركاتهما وسكناتهما، نظرا لكون هذا القطر خاضع للنفوذ الفرنسي في حين أن نابلس واقعة تحت سيطرة الانتداب البريطاني.

ورغم هذه المراقبة فقد استطاع عبد الكريم وسعيد وأخوهما عبد المجيد الذي التحق بهما من نابلس لينخرط معهما في الكلية الإسلامية ببيروت، أن ينتهزا فرصة مقامهم بالشرق العربي للقيام بحملة دعائية واسعة النطاق لصالح القضية المغربية على صعيد دول تلك المنطقة، حيث تم بالمناسبة تأسيس " اللجنة المغربية المشرقية " بغية حشد مزيد من الدعم العربي الإسلامي لصالح القضية الوطنية[243].

ويبدو أن سفر آل حجي إلى بيروت كان محط اهتمام عدد من الأعيان، ففي رسالة من أحمد بلا فريج إلى الإخوة آل حجي ببيروت مؤرخة في 8 فبراير 1931 يخبرهم بأن السيد محمد بن مبارك من الرباط قد تكلم معه في شأن إرسال ابنين له إلى بيروت قصد الدراسة، طالبا منهم إفادته عن سير التعليم عندهم وكيفية الالتحاق بالمدرسة المذكورة [244].

على أن بيروت ستعرف إشعاعا علميا متميزا بتأسيس الجامعة الأمريكية والتي قصدها عدد من المغاربة بغية استكمال دراستهما العليا بها وفق مناهج عصرية ... وهكذا بعد أن أحرز الطالب الطيب بنونة على الشهادة الابتدائية بمدرسة النجاح في يونيو 1932 إلتحق هذا الأخير بالكلية الأمريكية ببيروت في السنة الموالية 1933م ثم كلية روبير باسطنبول .. ونفس الشيء بالنسبة لمحمد بن عبد السلام الفاسي وكلاهما حصلا على شهادة الهندسة والتي اعتبرت أول شهادة تمنح للطلبة المغاربة أنداك[245].

عموما يمكن القول أن هذه البعثات الدراسية كانت بمثابة قنوات سواء كانت مباشرة أو غير مباشرة، ساهمت في إعادة اكتشاف المشرق بعد أن مزق الاستعمار أواصر العلاقات بين جناحي العروبة والاسلام، وحاول قدر الامكان منع قيام أي تلاحم بين الطرفين، وحتى قوافل الحجيج كان يتخذ دائما عدة تدابير لكي لا يكون اتصالها بالدول العربية إلا في أقل دائرة ممكنة.

24- حجي (عبد الرؤوف) ، عبدالكريم حجي، الحلقة المفقودة من تاريخ الحركة الوطنية ، مرجع سابق، ص225.

25- نفسه، ص 153.

245 - l'Afrique Française, 48éme Année, N° 8 et 9, Août et septembre 1938. P, 339

ولهذا يلاحظ قلة عدد الرحلات التي كانت تجمع بين المشرق والمغرب باستثناء فئة قليلة التي تحدت الصعاب وتمكنت من زيارة المشرق والاتصال به للقيام بنشاط سياسي والالتحاق بجامعاته...



التراث المادي





لمحات من التراث المادي بمدينة مراكش

محمد أقسقوس
طالب باحث في التاريخ

تعد مدينة مراكش من بين أطول المدن المغربية عمرا، وأعرقها حضارة وأكثرها إنتاجا للعلم والعلماء، وقد لعبت منذ تأسيسها على يد الأمير المرابطي أبي بكر بن عمر اللمتوني أدوارا بارزة في الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية، كما كانت بحكم موقعها على عهدي المرابطين والموحدين مصدر إشعاع كبير، ومركزا ثقافيا مهما نتج عنه تراث حضاري زاخر صمد لعصور طويلة وتوارثته أجيال مختلفة.

وإذا كان التراث بمفهومه البسيط هو ما خلفته الأجيال السالفة للأجيال اللاحقة، أو بالأحرى علاقة تبادلية بين الإنسان ومحيطه[246]، فإن مدينة مراكش حقا ورثت تراثا زاخرا أضحت بفضله

[246]- هاني هياجنة، **نقل التراث الثقافي والمعنوي وتحديات العولمة**، مجلة أقلامنا الثقافية، 2010/01/08، الأردن.

الوجهة السياحية الأولى في المغرب، بل الأكثر من ذلك أول وجهة سياحية على صعيد القارة الإفريقية. إنها مكانة احتلتها منذ عقود وأصبحت حقيقة لم تعد تخفى على أحد، وقد وصفت مراكش بأنها المدينة الحمراء، الفسيحة الأرجاء، الجامعة بين حر وظل وظليل وثلج ونخيل عاصمة دولة المرابطين والموحدين والسعديين، وقد قال فيها ابن خلكان صاحب كتاب "وفيات الأعيان وأنباء أبناء هذا الزمان": "مراكش مدينة عظيمة بناها الإمام يوسف وهي قاعدة بلاد المغرب وقطرها ومركزها وقطبها، فسيحة الأرجاء، صحيحة الهواء، بسيطة الساحة ومستطيلة المساحة، كثيرة المساجد، عظيمة المشاهد، جمعت بين عذوبة الماء واعتدال الهواء، وطيب التربة وحسن الثمرة، وسعة الحرث وعظيم البركة..."[247].

ومعلوم أن التراث التاريخي يلعب دورا فعالا في التنمية المستدامة لكل المدن العريقة في العالم، بما فيهم مدينة مراكش، التي عرفت في الآونة الأخيرة انتعاشة سياحية غير مسبوقة، حيث استقطبت وفي عز الأزمة الاقتصادية التي تضرب العالم استثمارات عربية ودولية بملايير الدولارات، اتخذت شكل مشاريع سياحية ضخمة، وتمت تقوية شبكة البنيات التحتية السياحية، وواكب ذلك برنامج دعائي على الصعيد الدولي للتسويق والترويج عالميا تجاوزت كلفته 150مليون درهم.

إن المؤهلات الطبيعية والاستثمارات الضخمة في قطاع السياحة جعلت مراكش تعيش طفرة عقارية وسياحية لم تشهد لها باقي المدن المغربية الأخرى مثيلا، فحولتها في سنوات قليلة إلى مدينة عالمية بامتياز، تستقطب مشاهير العالم في السياسة والفن والرياضة ونساء ورجال المال والأعمال...

ومما لا شك فيه أن الخبراء والمتتبعين أرجعوا الفضل في الإشعاع الدولي الذي حققته مدينة مراكش، إلى مآثرها التاريخية وتراثها الثقافي اللامادي الذي أسهم بشكل كبير في إغناء الهوية الثقافية للمغرب عموما ومدينة مراكش على وجه التحديد، فعندما نقول أن هذه الأخيرة تزخر بتراث مادي عريق، فهي تتوفر كذلك على تراث شفهي منقطع النظير يؤثر بالإيجاب على قطاع السياحة ويشجع على زيارة المدينة، فالكثير من السياح تستهويهم الثقافة الشفهية، لذلك فهذا الجنس الثقافي ساهم هو الآخر في إعطاء زخم جديد لمفهوم التراث الإنساني.

وبناء على آخر إحصاء أجري سنة 2006 من طرف مفتشية المباني والآثار التاريخية التابعة للمندوبية الجهوية لوزارة الثقافة بمراكش، أوضح أن المدينة تتوفر على 951 بناية تاريخية، وأن جميع مصنفات العمارة الإسلامية ممثلة في المدينة الحمراء، كما أن مآثرها تشرف عليها إما وزارة الثقافة أو

[247]- ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، حققه الدكتور إحسان عباس، بيروت، 1994. الجزء السابع، صص. 112-130.

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية أو الجماعة الحضرية لمراكش، بالإضافة إلى عدد من البنايات التاريخية التابعة لبعض الخواص. ومن هنا نتساءل إلى أي حدٍّ صمد التراث المادِّي الذي تزخر به مدينة مراكش؟ وما هي الإجراءات التي اتخذها الجهات المسؤولة لحمايته من الاندثار؟

إن الحديث عن المآثر التاريخية التي تتوفر عليها مدينة مراكش هو موضوع طويل ذو شجون، لا يمكن حصره في بضع صفحات، وبالتالي يصعب استدراجها كاملة، لذلك سأقتصر على أهمها، والتي تتوزع بين المآثر الدينية والمدنية، بالإضافة إلى تلك التي كانت لها وظيفة أمنية وعسكرية.

- **المساجد والمدارس**

إذا كان المسجد بمثابة المعلمة الأولى في العمارة الإسلامية؛ فإنه يشكل كذلك البنية الأساسية لتكون المدينة الإسلامية، ولا غرابة أن يكون البناء الأساسي الأول لمدينة مراكش قد انطلق من المسجد، لكن إذا كانت آثار المسجد المرابطي المجاور لقصر الحجر حيث وجدت نواة المدينة، قد زالت، فإن بقايا الصومعة المرابطية لمسجد علي بن يوسف مازالت موجودة إلى حدود اليوم داخل فضاء المقبرة المجاور للمسجد المذكور.

ويعد مسجد الكتبيين أهم بناية دينية في تاريخ مدينة مراكش، ويعود بناؤه إلى العهد الموحدي، وقد شيد على أنقاض القصر المرابطي لعلي بن يوسف، الذي دمره الموحدون بعد سقوط المدينة في أيديهم سنة 1147م. وقد كشفت التنقيبات الأثرية التي قامت بها مديرية التراث الثقافي ما بين 1995و1996 عن بنيات وأسس هذا القصر مكملة بذلك ما سبق وأن كشفت عنه حفريات بداية الخمسينيات.

فبأمر من الخليفة عبد المومن(1130-1163م) شيدت الكتبية على مرحلتين، برز من كل واحدة مسجد لتأتي المعلمة مزدوجة وبصومعة واحدة، ولتبقى كذلك بضع سنوات قبل أن يتم التخلي نهائيا عن الجامع الأول الذي تم تشييده ما بين 1147 و 1157م، والذي لم يتبق منه سوى الأرضية، وبقايا أعمدة بيت الصلاة وجزء من حائط القبلة وخزان الماء. وقد تم الكشف عن هذه البنايات خلال الحفريات الأثرية التي تمت ما بين 1948 و 1952م من طرف مصلحة الفنون الجميلة بإشراف هنري تيراس وجاك مونيي.

أما صومعة الكتبية فتعد من روائع البنايات الإسلامية، حيث تم بناؤها بالحجارة المنجورة، يوجد بداخلها منحدر للصعود إلى أعلى الصومعة عبر قاعات مزينة بقباب يختلف شكلها من قاعة إلى



أخرى. ويبلغ علو الصومعة 77 متر تقريبا، وهي مزخرفة في واجهاتها بنماذج من الأقواس والزليج الملون .

وإلى جانب مسجد الكتبية يوجد مسجدان آخران يشهدان أيضا على عراقة العمارة الدينية التي تزخر بها مدينة مراكش، الأول منهما هو مسجد القصبة، ويعرف أيضا بجامع مولاي اليزيد، وقد شيده الخليفة الموحدي يعقوب المنصور ما بين سنتي 1185 و 1190م، وهو متوجه إلى الأندلس في غزوته الشهيرة الأرك، ولما عاد مظفرا سنة 1197م، وجد الجامع قد تم تشييده على أحسن صورة، وبقي معماره صامدا بفضل الترميمات التي طرأت عليه في العهدين السعدي والعلوي والتي غيرت شيئا ما من ملامحه الأصلية.

أما المسجد الآخر فهو مسجد ابن صالح، الذي أسسه السلطان أبو الحسن المريني المعروف بالسلطان الأكحل في سنة 718هـ/ 1318م، وأوقف عليه أوقافا كثيرة، وفي سنة 1080هـ/ 1669م، جدده السلطان مولاي الرشيد العلوي، وأمر بتأسيس المدرسة التي بإزائه، ثم رممه السلطان سيدي محمد بن عبد الله كما جدد قبة الشيخ سيدي محمد بن صالح[248].

تدل هذه اللمحة التاريخية حول أهم المساجد العريقة بمدينة مراكش، على عراقة المعمار الديني بالمدينة وزخمه، لكن يبقى التساؤل: هل حافظت هذه المساجد على طابعها الأصيل؟ أم التهمها شبح الإسمنت المسلح؟ صحيح أن جل هذه الجوامع منذ تشييدها خضعت لإصلاحات سيما في العصر الوسيط، بحيث تختلف الأذواق المعمارية من دولة إلى أخرى أو من حاكم إلى آخر، لكن في السنين الأخيرة هدّدها شبح الانهيار بعدما طالها الإهمال والنسيان، إلى أن جاءت فاجعة انهيار صومعة مسجد باب البردعيين في مدينة مكناس سنة 2010، أودى بحياة 11 من المصلين الذين كانوا يصلون داخله، مما دقّ ناقوس الخطر أمام رمز العمارة الدينية في تاريخ العالم الإسلامي التي كان المغرب مضرب الأمثال في الحفاظ عليها، فكان ذلك سببا مباشرا في إعلان وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية عن حملة إصلاح للمساجد العتيقة سيما في مدن فاس، مكناس، ومراكش التي نحن بصدد الحديث عنها، وتم بذلك تخصيص غلاف مالي مهم للحدِّ من ظاهرة انهيار المساجد.

[248]- ابن المؤقت المراكشي، **السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية**، تحقيق حسن جلاب وأحمد متفكر، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش 2002، ج1، ص66.

لكن بالرغم من المراقبة الصارمة لعمليات الترميمات إلا أنه كانت مجموعة من الهفوات بخصوص الاستعمال المفرط وغير المهيكل للإسمنت المسلح الذي يحول دون إظهار الطابع المعماري القديم والزخرفة الأصيلة التي اشتهرت بها مساجد مدينة مراكش على مر العصور.

وإلى جانب المساجد لا يفوتنا الحديث عن المدارس العتيقة التي كانت تبنى بجوار المساجد، ولعل أشهرها وأعظمها مدرسة ابن يوسف التي بنيت على مقربة من مسجد ابن يوسف، وتعتبر من روائع المدارس المغربية، تم بناءها في عهد السلطان السعدي عبد الله الغالب خلال الفترة الممتدة بين سنتي 1564-1565م، فيما عزا بعض المؤرخين تشييد هذه المعلمة إلى أبي الحسن المريني، لكنه أضحى من المؤكد في الوقت الراهن أنها تعود إلى السعديين، خاصة بعد اكتشاف ست كتابات عربية منقوشة تدعم هذا الطرح.

تحظى مدرسة ابن يوسف بأهمية بالغة، نظرا لموقعها الجغرافي الكائن بحي ابن يوسف، الذي يحمل دلالة تاريخية كبيرة، فضلا عن كونه النواة الأصلية لمدينة مراكش وقد أعاد السعديون الحياة لهذا الحي ببنائهم للمدرسة وترميمهم للمسجد المرابطي ثم تشييدهم للمارستان بعدما أصابه النسيان من جراء تقهقر الدولة المرينية.

شكلت المدرسة ذات الشكل المربع والتي تصل مساحتها إلى حوالي 1680 مترا مربعا على امتداد أربعة قرون معقلا للعلماء ومقصدا للطلبة المتعطشين للعلم والمعرفة في مختلف العلوم خاصة منها الدينية والفقهية. تم إيقاف الدراسة والإقامة بالمدرسة بعد بناء معهد ابن يوسف للتعليم الأصيل (دار البارود سابقا) سنة1940م. وقد خضعت المدرسة لأول عملية ترميم خلال فترة الخمسينيات ثم تحولت إلى مزار سياحي يحرص زوار مراكش على الاستمتاع بهذه التحفة المعمارية المتميزة. وتشرف على تسييرها في الوقت الراهن مؤسسة ابن جلون منذ سنة 1999م في إطار الاتفاقية التي سبقت أن أبرمتها مع وزارة الثقافة خلال نفس السنة.

وبنفس القيمة التي ذكرنا بها مدرسة ابن يوسف، هناك معلمة أخرى لا تقل عراقة ألا وهي مدرسة ابن صالح التي أفادتنا الإشارات التاريخية أنها شيدت في عهد المولى الرشيد العلوي بإزاء جامع ابن صالح سنة 1081هـــ/ 1670م.[249]

[249]- أحمد متفكر، **مساجد مراكش عبر التاريخ من التأسيس إلى العهد العلوي**، المطبعة والوراقة الوطنية مراكش، ط3، 1431هـ/ 2010م.

وقد كانت هذه المدرسة كنظيرتها الأولى مقصدا للطلاب من كل صوب وحدب، يحفظون بها القرآن ويدرسون العلوم الشرعية واللغوية على يد أشياخهم، لذلك كانت تعتبر أهم مكان ذا إشعاع علمي بالمغرب في أواخر القرن 17م، لكن بعد مرور السنين طالها النسيان و لم تعد تؤدي وظيفتها التعليمية التي كانت شيدت من أجلها، وبقيت على حالها إلى أن بادر المسؤولون في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بترميمها لكي تصبح متحفا للزوار المغاربة والأجانب، وستوضع به تحف نادرة ومتنوعة تجسد التراث الديني الذي كانت ولا زالت تتوفر عليه مدينة مراكش.

- **سور مراكش وأبوابه**

بنيت مدينة مراكش في مكان غير محصن طبيعيا عكس فاس وغيرها من المدن العتيقة، حيث ظلت منذ تأسيسها محاطة بسياج من النباتات الشوكية، فاستمرت على هذا الحال إلى أن احتدم الصراع السياسي والمذهبي بين المرابطين والموحدين، حيث برزت ضرورة حماية المدينة وتحصينها، وذلك ببناء سور يحيط بكل ما اشتملت عليه واحتضنته من تجمعات سكنية ومعامل وأسواق تجارية وعمائر دينية واجتماعية.

إن الهاجس الأمني كان من أقوى الأسباب التي دفعت الأمير المرابطي علي بن يوسف إلى تسوير مراكش لحمايتها من تهديدات المهدي بن تومرت وأتباعه الموحدين بعد استشارة الأمير المرابطي لبعض العلماء، من أبرزهم أبو الوليد ابن رشد، وكان ذلك مابين 1126 و1127م حيث تم انجاز أشغال البناء في وقت قياسي: 8 أشهر وكلف 70 ألف دينار ذهبي مرابطي[250].

يمتد السور المرابطي على مسافة 9 كيلومترات، وقد عرف بعد الزيادات في واجهته الجنوبية حيث شيدت حومة القصبة في عهد الموحدين أواخر القرن الثاني عشر ميلادي، ومن جهة الشمال أضيفت حومة الزاوية العباسية، وقاع المشرع التي تم إحداثها في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله في القرن 18م. وعلى غرار الأسوار التاريخية، شيد السور من مواد ترابية " التابوت"، يتم خلطها بالجير بمعايير مضبوطة، بمعدل 3/2 من الرمل الأحمر و 3/1 من الجير ثم يوضع الخليط داخل قوالب مستطيلة مكونة من لوحتين تشدهما أخشاب للاحتفاظ بسمك الجدار المراد صنعه ويطلق على هذه العملية "تلواحت".

[250]- ابن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973، ص. 138

أصبح السور جزء لا يتجزأ من مورفولوجية مدينة مراكش، و لم يعد مقتصرا على أداء الوظيفة التي أحدث من أجلها بل تعددت وظائفه بتزايد حجمها وعدد سكانها؛ فكان من الضروري أن تتخلله عدد من الأبواب قصد تسهيل عملية الدخول من وإلى المدينة، وقد تضاربت الآراء حول عددها، إذ بلغت إلى حدود العهد الموحدي 26 بابا[251]، وكانت مقسمة إلى أبواب داخلية وأخرى خارجية، منها ما تعرض للاندثار، إلا أنه يمكن حصر عددها الحالي في 12 بابا خارجي فتحت في أماكن مدروسة بطريقة عقلانية.

وقد تعددت وظائف الأبواب التاريخية لسور مراكش مع اشتراكها في وظيفتي التنقل وتحصيل الجبايات (أداء المغارم)، وهكذا كانت بعض الأبواب تحمل أسماء تدل على وظائفها المتعلقة بالمكان الذي تستقبل منه السكان وتؤدى إليـــــــه:

- باب فاس تؤدي إلى الشمال
- باب دكالة تؤدي إلى الشمال والمحيط الأطلنطي.
- باب أيلان تؤدي إلى قبيلة هيلانة.
- باب أغمات تؤدي إلى أغمات
- باب نفيس تؤدي إلى مدينة نفيس المندثرة.

أما الوظائف الأخرى، فكانت حكرا على أبواب دون أخرى، فمنها ما ارتبط بالحرف الخاصة كباب الدباغين الذي توطنت بجواره حرفة الدباغة لقربه من وادي إسيل وإشرافه على هسكورة حيث وفرة الجلود ومنها ما ارتبط بالفلاحة خاصة باب الرُّب وهو عصير من العنب غير المسكر، حيث كانت هذه المادة تمر من هذا الباب أو تباع بجانبه.

كما شكلت الأبواب منفذا للمقابر والمصليات حيث قربها من السكان، هذا فضلا على أن بعضها لعب دورا في التشهير والترهيب في وجه المعارضين خاصة في عهد الموحدين والمرينيين كباب دكالة و باب فاس وباب الشريعة المرابطي الذي اختفت معالمه نهائيا بتأسيس حومة أكادير الموحدية. كما وكلت لهذه الأبواب وظيفة أمنية هدفها المساهمة في حماية المدينة من التهديدات التي قد تأتي من الخارج ومنع المتابعين في الداخل من الفرار.

[251]- محمد رابطة الدين، **مراكش زمن حكم الموحدين جوانب من تاريخ المجال والإنسان**، المطبعة والوراقة الوطنية، ط1، 2008.

وبالرغم من القيمة التاريخية لسور مدينة مراكش والأدوار التي لعبها على مر العصور إلا أنه يشهد اليوم في جزء كبير منه تدهورا يزداد استفحاله مع تفاقم وتعدد مشاكل المدينة كالتصدعات والشقوق العمودية والتآكل وعدم تجانس المواد المستعملة في الترميم مع المواد الأصيلة، وتراكم النفايات والسلوكيات اليومية التي تنم عن انعدام الوعي بما ترمز إليه هذه الأسوار من إرث حضاري كالتوجه نحو الأسوار للتغوط والتبول، وكثافة حركة المرور خاصة السيارات والشاحنات والحافلات، علاوة على أثر مياه السقي على الأسوار بفعل الرطوبة.

- **العمارة المائية:**

تحتل المنشات المائية في حقل الدراسات التاريخية والجغرافية وحتى الأنثروبولوجية أهمية كبرى، لأنها تلعب دورا محوريا في ضمان الاستقرار والاستمرار في استغلال المجال، وهي الوسيلة المثلى للحفاظ على توازن الموارد المائية وترشيد استغلالها للاستفادة منها على الوجه الأمثل في سقي المزروعات والأغراس في شتى المنظومات البيئية والظروف المناخية والبنيات التضاريسية.

ولا شك أن مدينة مراكش التي نحن بصدد الحديث عنها عرفت زخما كبيرا منذ تأسيسها بخصوص التقنيات المائية، التي لعبت دورا كبيرا في توزيع المياه واستقرار الإنسان بهذا المجال، إنه نظام أصيل لاستغلال المياه، ومن أولى التقنيات التي ظهرت بمراكش هي الخطارة التي تعتبر شبكة أو نظام من القنوات التي تعمل على التحريك الباطني للماء، ونقله على مسافات بعيدة دون تعرضه للتبخر.

حدد الشريف الإدريسي مصدر مياه السقي الذي اعتمدته الأراضي الفلاحية المجاورة للمدينة في آلية الخطارة قائلا "وماؤها الذي تسقى به البساتين مستخرج بصنعة هندسية حسنة، استخرج ذلك عبيد الله بن يونس المهندس"[252]، وقد استخلص مجموعة من الباحثين أمثال: George colin، Paul pascon و Gaston Deverdun من نفس النص، أن دخول المهندس المذكور إلى مراكش تم في زمن حكم علي بن يوسف المرابطي[253]، وبالتالي نفهم من إشارة الإدريسي أن تقنية الخطارة يعود استخدامها في مراكش إلى الربع الأخير من القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي.

[252]- الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، طبعة الجزائر، 1957، ص.43.

[253] - COLIN, G.S., ***La noria marocain***, *in* Hespéris, Tome XIV, 1er trimestre, 1932, p.38.
- Pascon, P., ***Le Haouz de Marrakech***, Rabat, 1977, Tome I, p.376.
- Deverdun, G., ***Marrakech des origines à 1912***,Rabat ,1959, T 1, p.86.

وبخصوص عدد أو استمرارية هذا الشكل من التقنيات المائية ليس لدينا بحث أثري يوضح لنا عدد الخطارات التي أنشأها المرابطون والتي أنشأها الموحدون والسعديون، هذه المسألة لا يمكن الحسم فيها بشكل كبير، لكون هذه الخطارات تعرضت مرارا وتكرارا لعمليات الصيانة والتجديد. فالعديد منها جف، بمعنى أن هناك إشكالية الاستمرارية. وحتى إن أمكن القيام بالبحث الأثري، فمن الصعب تحديد تاريخها وأهم خصائصها، اللهم ما وثقته وأشارت إليه المصادر التاريخية.

يرجع ظهور وإنجاح تقنية الخطارة المراكشية إلى تظافر مجموعة من العوامل الطبيعية، وتتمثل في دور مورفولوجيا السطح والتكوين الباطني والبنيوي لقشرة الأرض المكونة لمجال مراكش أو مجال الحوز المراكشي، إضافة إلى عامل المناخ ودور الموارد المائية السطحية والجوفية في تغذية السديمة المائية لخطارات مراكش .

إن من يلقي نظرة عامة على خطارات القنوات الجوفية داخل المدينة وضواحيها يعاين أن باطن الأرض المراكشي يكون صورة لشبكة عنكبوتية ذات اتجاهات مختلفة تمر تحت الدور والحدائق منها ما يدخل إلى داخل الحاضرة من الجنوب ومنها ما ينطلق عن العمق المراكشي ويخرج إلى الشمال، ومنها ما يجري موازيا للأسوار الشرقية والغربية لسقي البساتين المجاورة. فهي تجري في السهول الغربية المتصلة لجبال الأطلس الكبير نظرا لخصوصيات وضوابط وظروف طبيعية.

مبيان تطور الفرشة المائية بحوز مراكش[254]



[254] - الموقع الالكتروني لوكالة الحوض المائي لتانسيفت: http://www.eau-tensift.net/menu/nos-ressources-en-eau/eaux-souterraines.html?L=1

يلاحظ من خلال المبيان أن وتيرة التراجع كانت بشكل كبيرة وقوية خلال فترة زمنية قصيرة لا تتعدى الربع قرن، فقد انخفض مستوى الفرشة المائية إلى أكثر من ثلاثين مترا في سنة 2004، بعدما كان في سنة 1980 أقل من 15 متر. وهذا التراجع الهائل، أدى إلى تعطيل وموت جل الخطارات بمدينة مراكش. حيث إن السواقي الباطنية لهذه الخطارات لن تتمكن من جر الماء الموجود في "البئر الأم" بسبب تغوّره وتزايد عمق مياهه. والسبب في ذلك هو الاستغلال الكبير للفرشة المائية لأجل الري الفلاحي، وتوالي سنوات الجفاف أو بسبب تزايد الطلب على الماء بفعل التزايد السكاني الكبير. كما لا يجب أن ننسى أن المدينة أصبحت قطبا سياحيا مهما على الصعيد الوطني، مما زاد في حجم الطلب على هذا المورد[255]. أضف إلى ذلك الزحف العمراني على مجال الخطارات.

ردمت أغلب الخطارات الآن بالأزبال والأتربة والقاذورات، واستغل بعضها من طرف الساكنة كقنوات لصرف المياه العادمة. هذا من طبيعة الحال له أبعاد تراثية وبيئية سلبية، حيث يساهم أولا في تشويه المنظر العام للمجال وتلويثه، وتدمير هذا الموروث التاريخي لمدينة مراكش ثانيا.

وإلى جانب الخطارات شكلت السقايات واحدة من أهم المنشآت المائية التي طبعت تاريخ العمارة المائية بمراكش، وهذا دليل أن هذه الأخيرة كانت تمتلك نظاما متطورا لتوزيع المياه سيما تقنية السقاية التي تعتبر مرفقا حيويا يندرج ضمن النسيج الحضري للمدينة فهي تنتشر في مواقع متعددة كالحومات، وهناك بعض الدروب لازالت تحمل درب السقاية. والسقاية هي نهاية شبكة من الآليات والمنشآت التي كانت تزود المدينة بالماء وتجعله قابلا للاستهلاك بدء من مصادر استخراجه الطبيعية مرورا بالسواقي وتجميعه وتخزينه في الصهاريج وأخيرا توزيعه على المدينة عبر قنوات وسواقي ليصل إلى السقاية نقطة الالتقاء بين المستهلك وهذا النتاج الطبيعي الحيوي.

من المرجح أن المرابطين استخدموا السقايات في عاصمتهم، كمنشآت معمارية ذات نفع عام يتجمع فيها الماء ويستقى منها، وإذا لم ترد في المصادر المتداولة أية إشارة إلى هذه المسألة[256]، فإن اكتشاف بقايا مركب مائي مكون من خزان وثلاث سقايات بمقربة من جامع ابن يوسف من جهة وإشارة الإدريسي من جهة ثانية إلى إنشاء مجموعة سقايات قرب قصر الحجر في بداية حكم عبد المومن الموحدي، يمكن اعتبارهما مؤشرين مقبولين على هذا الترجيح.

[255] - Boujrouf, Said, ***Patrimoine hydraulique, patrimonialisation et valorisation touristique à Marrakech et région***, *in* Regional Campus of International Excellence, Compobell, S.L.Murcia, 2012, p.258.

[256]- محمد رابطة الدين، **آلية توزيع المياه بمراكش زمن حكم الموحدين**، ضمن أعمال ندوة الماء المتملك: الدول القسمة وحق التصرف في الحظ من الماء، المطبعة والوراقة الوطنية، ط1، 2002. صص. 131- 140.

وقد صمدت هذه المنشأة المائية لقرون من الزمن، بحيث إلى حدود سنة 1912 كانت مراكش تتوفر على 89 سقاية تزود أحيائها بالماء بدء بالقبة المرابطية النموذج الأصلي للسقاية، إلى السقايات السعدية المصنفة في عداد الآثار المغربية منذ 31 دجنبر 1921، ثم بعضا من السقايات العلوية المنتشرة بالمدينة. ولعل أبرز مثال لهذه التقنية داخل المدينة العتيقة بمراكش:

- **سقاية المواسين:** تنتمي سقاية المواسين إلى المجمع الديني الذي تم تشييده في عهد السلطان السعدي عبد الله الغالب مابين 1562 و 1563، ويتكون بالإضافة إليها من مسجد، وحمام وخزانة ومدرسة تحولت في مرحلة متأخرة إلى مدرسة قرآنية (المسيد). تقع هذه السقاية شمال قاعة الوضوء التابعة للمسجد، وتتميز بتصميم مستطيل تبلغ مقاييسه 10.18 متر طولا و 4.70 متر عرضا وهي تحتوي على ثلاثة أحواض مائية، وقد شيدت بهذا التصميم على نموذج سقاية علي بن يوسف المرابطي.

كان الحوض الأوسط يستعمل كخزان للماء أما الحوضان الجانبيان فكانا كمورد للدواب في حين أن السقاية كانت وما تزال مخصصة لاستعمال الإنسان. تزود بالماء عن طريق عين المواسين، وقد خضعت لترميمات في عهد السلطان العلوي محمد بن عبد الرحمان سنة 1867م كما يدل على ذلك بيت على إفريز داخل السقاية: **بشرى فقد أنجز الإقبال ما وعدا وكوكب المجد في العلا صعدا.** وسقاية المواسين من أهم السقايات التاريخية بالمدينة سواء من حيث الحجم أو الزخرفة وهي النموذج المقتدى به بالنسبة للسقايات المتأخرة.

- أما **سقاية شرب وشوف** فيبدو من خلال الطابع المعماري لهذه المنشأة المائية أنها قد أنجزت في عهد الدولة السعدية، وهي تتكون من شرفة تضم حوضا مبنيا بالحجارة. وقد أنجز جزؤها العلوي من خشب يحمل زخرفا وهي عبارة عن خلية نحل ويعلو مجموع هذه العناصر سقف مائل مغطى بالقرميد الأخضر أما النقيشة المكتوبة بالخط الأندلسي فتشبه نقيشة سقاية المواسين.

والملاحظ أنها مازالت تحافظ على زخرفتها المدهشة التي تستهوي المارة خاصة السياح الأجانب، كما أنها تشكل استثناء باعتبارها السقاية الوحيدة التي صمدت أمام الاستهلاك السلبي للإنسان، وقسوة العوامل الطبيعية الحرارة، التبخر.....في الوقت الذي اندثرت فيه جل سقايات المدينة سيما التي تقع في أماكن (حومات) ذات كثافة سكانية كبيرة ينتج عنها تبذير المياه وعدم الحفاظ عليها، و ربما هذا ما دفع بالجهات المسؤولة عن توزيع المياه داخل المدينة العتيقة بإقفالها وقطع تزويدها بالماء.

وبنفس القيمة التي ذكرنا بها تقنيتي الخطارة والسقاية، لا يمكن أن نغفل منشأة أخرى، ألا وهي الصهاريج التي تعد أحواضا مائية لاستقبال وتجميع وتخزين المياه القادمة من الجبل، وتنظيم توزيعها على المدينة ومحيطها، عبر سواق وقنوات مخصصة لذلك. ويستفاد من الإشارات الواردة من المصادر المتداولة بخصوص هذا الجانب. أن العاصمة الموحدية كانت محاطة بشبكة من الصهاريج، لا نعرف بالضبط عددها. كما تضاربت الآراء حول تاريخ إنشاء هذه التقنية هل في زمن حكم المرابطين؟ أم الموحدين؟ بالرغم من وجود إشارات تاريخية تتحدث عن هذه التقنية وحضورها في عهد الدولة الموحدية من بينها إشارة صاحب كتاب الاستبصار حين حديثه عن مدينة مراكش قائلا: **"وجلب الخليفة الإمام المياه من أودية درن ...وبنى فيها وخارجها صهريجين عظيمين كنا في تلك المدة نعوم فيهما فلا يكاد القوي منا يقطع الصهريج إلا عن مشقة..."**[257].

في هذا الصدد سنحاول تقديم جرد لأهم الصهاريج الموجودة بالمدينة من خلال المصادر والدراسات التاريخية التي تحدثت عنها، رغم قلتها ومجملها:

أ- صهريج البقر:

وردت إشارة عنه عند G. Deverdun، وهو يقع في الجنوب الغربي لمدينة مراكش، وربما قد يكون إحدى البركتين التي أمر عبد المومن الكومي بحفرها خارج مدينة مراكش لصالح مربي المواشي في المنطقة، وتبلغ مساحته حوالي 13200 متر مربع، بسعة قد تصل إلى 33000 متر مكعب[258].

فيما يخص مسألة إنشائه فالأمر غير محسوم في المصادر والدراسات التاريخية، ويتضح من خلال هذه الإشارة أنه يزود الضاحية الجنوبية لمدينة مراكش بالماء.

ب- صهاريج أكدال:

يشير عبد الواحد المراكشي في معرض حديثه عن المنشآت والتجهيزات والمرافق التي شيدها الموحدون بمراكش خلال فترة الخليفة عبد المومن بن علي الكومي حيث قال:"ثم سار حتى أتى مراكش فنزلها وأخذ في البناء والغراسة وترتيب القصور غير مخل بشيء مما تحتاج إليه المملكة من السياسة وتدبير الأمور وبسط العدل والتحبب إلى الرعية وإخافة من تجب إخافته[259]." تفيد هذه

257- مجهول **الاستبصار**، تحقيق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، الدار البيضاء، 1985، ص: 209-210.

258 - Deverdun, G, ***Inscriptions arabes de Marrakech***, Rabat, 1956, pp.210-211.
- ***Ibid***, pp.196-198, 531-532.

259- عبد الواحد المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب** ، مطبعة بريل، ليدن، 1881، ص. 108 .

الإشارة أن التجهيزات المائية كانت حاضرة لا محالة لسقي الغرس والحدائق، على اعتبار أن الدولة في حاجة إلى هذه التقنية لتدبير أمورها سواء في الفلاحة أو الشرب.

ومن جملة ما خلفه الموحدون بالمدينة صهريجا "دار الهناء" و"الغرسية" بحدائق أكدال فقد أشار الناصري إلى ذلك "قائلا: وذكر عبد الله أكنسوس أن غرق "الرشيد"(أحد خلفاء الموحدين توفي سنة 640هـ غرقا). كان في البركة الكبرى بدار الهناء من أجدال اليوم، قال: وكان يُقال لها البحر الأصغر لأن ملوك بني عبد المومن الذين أنشئوها كانوا يرسلون فيها الزوارق والفلك الصغار بقصد النزهة والفرجة والله تعالى أعلم[260]."

ت- صهريج بمقبرة باب أغمات:

أشار غاستون دوفردان، إلى وجود صهريج مرابطي بمقبرة باب أغمات[261] لا يمكن أن تظهر معالمه للعيان إلا من خلال الصور الجوية، وموقع المقبرة الحالي كان به "جنان الصالحة" الذي قال عنه الناصري:"والصالحة التي أضيف إليها هذا الباب هي بستان كبير من جملة بساتين أجدال دار الخلافة بمراكش، ومازال هذا البستان مشهورا بهذا الاسم إلى الآن، وهو من إنشاء عبد المؤمن بن علي رحمه الله"[262].

ث- صهريج المنارة:

بني هذا الصهريج في عهد السلطان عبد المؤمن بن علي الكومي في القرن الثاني عشر لكي يتدرب فيه جنود الموحّدين على السباحة وفنون القتال البحري، قبل التوجه إلى الأندلس، أو الانتشار لحماية السواحل المغربية من هجمات الأوروبيين. هناك الإشارة التي ذكرناها لمجهول الاستبصار يشير أيضا إلى أن عبد المومن قام في الجهة الغربية للمدينة في اتجاه نفيس، بغرس حديقة مقابلة لقصره وهو ما يدفع للاعتقاد بأن الأمر يتعلق بحديقة المنارة وصهريجها الكبير.

وقد كانت لتقنية الصهاريج مجموعة من الوظائف والأدوار يمكن إجمالها فيما يلي:

- تزويد المدينة بالماء الصالح للشرب.
- سقي الأراضي الفلاحية .
- تزويد المرافق العمومية بالمياه كالمساجد، الحمامات، السقايات .

260- أحمد بن خالد الناصري،**الإستقصا**، الجزء1، تحقيق أحمد الناصري، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، منشورات وزارة الأوقاف والاتصال،2001، ص.221.

261 - Deverdun, G., ***Marrakech des origines..***, op.cit., pp.538-536.

262- أحمد بن خالد الناصري، **المصدر السابق**، ص. 231 .

- تقديم الماء الشروب للحيوانات.
- وظيفة عسكرية بخصوص (صهريج المنارة) الذي كان يتم فيه تدريب الجنود وإعدادهم للقتال.

يتضح جليا أن تقنية الصهاريج تعتبر من بين التقنيات المائية المتجذرة في تاريخ المجتمع المغربي؛ إذ ساهمت في الرفع من اقتصاد المدينة المغربية عامة ومراكش خاصة على المستوى الفلاحي، فبفضلها تم التحكم في كمية كبيرة من الموارد المائية وتزويد الدور والساكنة وكل المرافق التي لها نفع عام بما تحتاجه من ماء، لكل هذه الأسباب كان لهذه التقنية إلى جانب باقي التقنيات الأخرى كالسواقي والخطارات والسدود التي شيدها الإنسان المغربي من أجل تلبية حاجاته إلى الماء، خصوصا في المناطق التي تتميز بالندرة والمناخ الشبه الجاف كمدينة مراكش، دور هام في تجميع المياه القادمة من جبال الأطلس الكبير، واستعمالها إما للشرب أو سقي البساتين والحقول.

كما نجد أيضا أن بعض الصهاريج استطاعت في جوانب كثيرة المحافظة على دورها التاريخي، ولا زالت تعتبر إرثا حضاريا مهما، في الوقت الذي نجد صهاريج أخرى اختفت بفعل التطور العمراني والحضاري ودمرت هذه المنشآت التي تعتبر من أهم مرتكزات التراث المدني والحضاري للمدينة المغربية والتي من المفروض الحفاظ عليها .

ومن نافلة القول إن مدينة مراكش تزخر بتراث حضاري مادي يعكس تاريخها على مدى قرون خلت، ولعل تصنيفها ضمن التراث العالمي خير دليل على ذلك، كما أنها أضحت قبلة للسياح من كل حدب وصوب.

لكن رغم المجهودات المبذولة من طرف مفتشية المباني التاريخية ووزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للحفاظ على هذا الموروث التاريخي إلا أنه لا زالت مجموعة من المعالم الأثرية في حاجة إلى الإصلاح والترميم لصونها من شبح الاندثار. ولهذا وجب على الإعلام أن يلعب دورا فعالا في حماية تراث مدينة مراكش، وذلك عبر بث برامج تلفزية خاصة ترمي إلى توعية الأطفال والشباب، وتوليد حس الفخر لديهم بتراثهم. إلى جانب تصميم مواد ومساقات في إطار المؤسسات التعليمية، والعمل على بيان الأبعاد الاقتصادية لحفظ التراث المادي، وتشجيع الوسائل والطرائق الرسمية وغير الرسمية للمساهمة في نشأة جيل من الشباب الواعي بتراثه.

لائحة المصادر والمراجع

بالعربية

- ✓ ابن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973.
- ✓ ابن المؤقت المراكشي، **السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية**، تحقيق حسن جلاب وأحمد متفكر، المطبعة والوراقة الوطنية،ج1، مراكش 2002.
- ✓ ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، حققه الدكتور إحسان عباس،ج7 بيروت، 1994.
- ✓ رابطة الدين محمد، **آلية توزيع المياه بمراكش زمن حكم الموحدين**، ضمن أعمال ندوة الماء المتملك: الدول القسمة وحق التصرف في الحظ من الماء، المطبعة والوراقة الوطنية، ط1، 2002. ص ص. 131- 140.
- ✓ رابطة الدين محمد، **مراكش زمن حكم الموحدين جوانب من تاريخ المجال والإنسان**، المطبعة والوراقة الوطنية، ط1، مراكش، 2008.
- ✓ الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، طبعة الجزائر، 1957.
- ✓ متفكر أحمد، **مساجد مراكش عبر التاريخ من التأسيس إلى العهد العلوي**، المطبعة والوراقة الوطنية مراكش، ط3، 1431هـ/ 2010م.
- ✓ مجهول **الاستبصار**، تحقيق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، الدار البيضاء، 1985.
- ✓ المراكشي عبد الواحد، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب** ، مطبعة بريل، ليدن، 1881 .
- ✓ الناصري أحمد بن خالد، **الإستقصا**، ج1، تح أحمد الناصري، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، منشورات وزارة الأوقاف والاتصال،2001.
- ✓ هاني هياجنة، **نقل التراث الثقافي والمعنوي وتحديات العولمة**، مجلة أقلامنا الثقافية، ، الأردن، 2010/01/08.ص ص. 1-5 .

بالفرنسية

- ✓ Boujrouf, Said, *Patrimoine hydraulique, patrimonialisation et valorisation touristique à Marrakech et région, in* Regional Campus of International Excellence, Compobell, S.L.Murcia, 2012, p.258.
- ✓ COLIN, G.S, *La noria marocain, in* Hespéris, Tome XIV, 1er trimestre, 1932, p
- ✓ Deverdun, G, *Inscriptions arabes de Marrakech*, Rabat, 1956.
- ✓ Deverdun, G., *Marrakech des origines à 1912*,Rabat, T 1 ,1959.
- ✓ http://www.eau-tensift.net/menu/nos-ressources-en-eau/eaux-souterraines.html?L=1
- ✓ Pascon, P., *Le Haouz de Marrakech*, Rabat, Tome I, 1977.

من تاريخ المغرب القرن ١٩





الحماية القنصلية الفرنسية بمغرب القرن التاسع عشر. دراسة إحصائية

سفيان حمومي

طالب باحث في التاريخ

بالرغم من كون المغرب استطاع أن يتغلب على المحاولات المتكررة من أجل السيطرة عليه من طرف الدول المسيحية على مسيرة قرون عديدة، إلا أنه سرعان ما دق ناقوس الدول الاستعمارية عليه خلال القرن التاسع عشر، بحيث تبنت ممارسة ضغوطات اعتمدت فيها على شتى الوسائل لشل حركة المخزن المغربي، بداية بعقد اتفاقيات لم يستوعب المغرب مضامينها، فضلا عن الأوضاع الداخلية التي تشهدها البلاد، حيث انتقل المغرب من سياسة العزلة والاحتراز إلى مرحلة الضغوط والتكالب. وصولا إلى تقديم تنازلات كانت من أهداف وحاجيات الأقطار الأوربية التي كانت تعاني من نزاعات سياسية وانقسامات دينية، بحيث انعكست خلافاتها على الوضع السياسي والاقتصاد الدولي في علاقتها بالدول الأخرى ، وإلى حدود سنة 1844 ظلت الدول الأوربية تترقب البلد المغربي من كل نافذة على أنه دولة ذو قوة عسكرية.،بحيث لم تجرأ دولة من

هذه الدول على أن تتجرأ عليه منذ تحقيق انتصاره في معركة وادي المخازن سنة 1578 الذين ظل يعيش المغرب على أنغامها. حتى أصبح دولة منهوكة القوى طوال هذه المدة لتأتي معركة إيسلي 1844 التي أبانت وكشفت النقاب عن ضعفه .

وخلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ارتبط المغرب مع الدول الأوربية بمعاهدات وافق عليها سلاطين البلاد تحت الضغط والتهديد باستعمال أسلوب القوة .

و من أخطرها ما تضمنته بنود منح حق الحماية القنصلية الأمر الذي انبلج عنه انعكاسات على واقع البلاد من الناحية المالية والاقتصادية والاجتماعية. التي كانت الموجه الأساسي لتطور أحداث البلاد خلال القرن التاسع عشر وسقوطه في براثن الحماية الفرنسية سنة 1912 م.

ونظر لما يحتله القرن التاسع عشر في تاريخ المغرب من أهمية، جاء البحث ليعالج قضية مهمة جدا في ظل هذه الفترة و محاولة إلقاء الضوء على بعض جوانبها وهي مشكلة الحماية القنصلية الفرنسية. كما عالج فترة زمنية بالخصوص تمتد من 1956 التي شكلت الإرهاصات الأولى التي تنازل فيها المغرب لبريطانيا عن عدة امتيازات منها الحماية القنصلية بشكلها الواسع، إلى حدود 1880 التي تم فيها عقد مؤتمر مدريد من أجل النظر في أحوال هذه القضية، وبالرغم من أهمية هذه الفترة في دراستنا هذه . إلا أن المنهج التاريخي اقتضى منا الرجوع إلى أحوال الملامسات السياسية مابين المغرب وفرنسا لمعرفة حيثيات العلاقة الموجودة بينهما منذ بداية القرن التاسع عشر وما شاهدته هذه العلاقة من تحولات على جميع الهياكل والمستويات إبان الضغوطات الممارسة عليه.

وفي مساق الموضوع حاولنا في هذا البحث الكشف عن نمط العلاقة ما بين المغرب وفرنسا مبرزين من خلال ذلك التكالب الفرنسي عليه، سياسيا وعسكريا سالكين في ذلك التدرج من الظروف الداخلية التي كانت تحيط بالمغرب الأقصى، إلى الظروف الخارجية باعتباره محيطا لم يكن منعزلا عن الخارج، الذي دخل معه في معاهدات لا متكافئة نتجت عنها مشكلة الحماية القنصلية

وجاء هذا البحث لمعالجة إشكالية مركزية تتمثل في فهم خصوصيات العلاقة مابين المغرب وفرنسا خلال القرن التاسع عشر، مابين الجذور والامتداد. والقيام بدراسة إحصائية لظاهرة الحماية القنصلية الفرنسية. وانطلاقا من كل هذا حاولنا أن نجيب عن الإشكالية التالية:

كيف تتحدد العلاقات المغربية الفرنسية خلال القرن التاسع عشر؟ هل هي علاقة تكامل أم تنافر وكيف جاء الاهتمام الفرنسي بالمغرب؟ ومن هم المغاربة الذين تبنوا هذه الحماية الفرنسية ؟

1- الاهتمام الفرنسي بالمغرب في بداية القرن التاسع عشر

اتسمت العلاقات ما بين المغرب وأوروبا خاصة الاقتصادية والسياسية منها، بنوع من التوازن والتكافؤ حتى أوائل القرن التاسع عشر. فلم يكن المغرب يشعر بأنه محط أطماع القوى الأوربية غير أن الوضع تغير في بداية القرن التاسع عشر وذلك عندما أصبحت المدنية الغربية، وعلى رأسها فرنسا تقوم بوضع خطط مرسومة من أجل غزو مجموعة من الدول الإسلامية، وهو الأمر الذي يتمثل في الحملة النابليونية على مصر263 ، وبهذه الصورة لم يكن المغرب بعيدا عن تطور الأحداث والنظرات الاستعمارية الفرنسية لترابه، بحيث كان الصراع الأوروبي على أشده حول المغرب264. ففي 16 ماي سنة 1808 وجه نابليون بونابرت رسالة إلى المارشال ميرا قائد الجيوش الفرنسية في إسبانيا مخاطبا إياه بقوله :

" أكلفكم بتعيين وتهيئة ضابط مهندس ذكي الذي سيذهب إلى سبتة ومنها إلى طنجة ليلتقي بقنصلنا هناك ويذهبا سويا إلى فاس حيث سيسلم رسالتنا مباشرة إلى سلطان المغرب .أريده أن يتفاهم جيدا مع قنصلنا حول كيفية اتخاذ الإجراءات الضرورية والصالحة لمحو التأثير الإنجليزي في المغرب وأريد منه أن يسجل ملاحظاته حول المدن ويعد لنا تقريرا حول وضعية الحصون الدفاعية، وطبيعة الميدان والقوة العسكرية وكذلك طبيعة السكان، وباختصار كل ما يهمنا في الميدان العسكري "265. في سياق هذه الرسالة نلاحظ أنها جاءت من أجل أن تضع خريطة سكانية، وتقوم بدراسة التراب المغربي على مختلف مستوياته خاصة العسكري منه. مما يدل على النسق الفكري الإمبريالي لنابليون بونابرت، بضم المغرب لمستعمراته إن اقتضت الضرورة، لكن سرعان ما باءت هذه البعثة بالفشل لأمرين اثنين .أولهما يتمثل في الأسلوب التهديدي المستعمل في الرسالة، وثانيهما تطور الأحداث العسكرية التي ستشهدها شبه الجزيرة الأيبيرية266. ويعتبر مؤتمر مدريد الانطلاقة الأولى لإعادة ترتيب الأوراق الأوربية من أجل فرض كيانها الوجودي على حوض البحر الأبيض المتوسط في منافستها الشرسة حول مراميها الاقتصادية .حيث تم النظر إلى بلدان شمال إفريقيا مرآة للشرق خاصة البلد الأول الذي سقط في يد السيطرة الفرنسية. والذي

263 سيمو بهيجة ، *الإصلاحات العسكرية بالمغرب (1844 – 1912)*، المطبعة الملكية، الرباط،2000،ص 15 .
264- بوزويتة سمير، *مكر الصورة: صورة المغرب في الكتابات الفرنسية 1832 – 1912* ، إفريقيا الشرق، المغرب، 2007، ص 11
265- حمان عبد الحفيظ، *المغرب والثورة الفرنسية*، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2002 ،ص 175 .
266- نفسه، ص ص 177- 178 .

ولد العامل معه، نضج التجربة الاستعمارية بشمال إفريقيا. فكانت كل من الجزائر والمغرب يشكل مشروع مرآة لفرنسا.267

لقد أدى احتلال الجزائر إلى انقلاب الموازين وتغير الأوضاع . وكان هذا الاحتلال أول سيف يدق في قلب المغرب، وكان نذير بتوسع النفوذ الفرنسي في هذا البلد.268 هذا من جهة ومن جهة آخرى، خلال النصف الثاني من القرن 19 أقيمت مجموعة من الدراسات الفرنسية والتقارير العسكرية ومنها كتاب" لمارتنيير". هذا الكتاب الذي يقدم إحصائيات للسكان وتقريرات للماشية، بالإضافة إلى ما خلفه الضابط الفرنسي "فوانو" بتغطية طويلة من 1852إلى 1907، فضلا عن لجنة إفريقيا الفرنسية التي قامت بنشر عدة تقارير حول المنطقة. هكذا جاءت هذه المصادر الاستعمارية تحمل في هيئاقا أفكارا مسبقة عن المغرب وشعبه، وقدف إلى تمهيد الطريق للتوسع الفرنسي.269

هكذا نلاحظ مدى الاهتمام الفرنسي بالمغرب ما بين الرؤية الإمبريالية له وطموحه في إدخاله لشبكته الاستعمارية، الذي ذاق طعم حلاوته إثر احتلاله للجزائر سنة 1830.

2 -أثر احتلال الجزائر على طبيعة العلاقات المغربية الفرنسية في القرن التاسع عشر

أدى الغزو الفرنسي للجزائر سنة 1830 إلى إعطاء بعد للعلاقات المغربية الفرنسية، هذه الأخيرة التي أرادت أن توضح أن الهدف من هذا الغزو ليس احتلال الجزائر وإنما عزل سلطة الدايات وتعويضها بحكومة جديدة .واستدراكا على الأمر فإن الهدف الحقيقي من هذه الحملة هو ضم الجزائر إلى ممتلكات الإمبراطورية الفرنسية .

" هكذا خلق احتلال الجزائر ارتباكا في النفوس وبلبلة في الأفكار تمخض عن ظهور حركة انبعاث جديدة . ويقظة في البلاد، كانت النواة الأولى والحجرة الأساسية للوطنية المغربية الحديثة " 270.

وبسقوط حكم الأتراك، ووصول القوات الفرنسية إلى غرب الجزائر، عزم أهل هذه المنطقة الاحتماء بالسلطان المغربي وقدموا له البيعة عن طريق وفد يمثل سكان منطقة تلمسان، ثم تلا ذلك وصول بيعة القبائل الأخرى لطلب حماية مناطقهم، وقاموا بتبرير موقفهم حول الدخول في طاعة

267- بوزويتة سمير ، ***مكر الصورة ...***، م.س ، ص 15.
268- جلال يحيى، ***المغرب الكبير: العصور الحديثة وهجوم الاستعمار***، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، الجزء 3، ، ص 348 .
269- برحاب عكاشة، ***شمال المغرب الشرقي قبل الاحتلال الفرنسي(1873_1907)***، مطبعة الجديدة، الدارالبيضاء، الطبعة الأولى، 1989,ص.ص 35_36.
270- بوزويتة سمير، ***مكر الصورة ...***، م.س ، ص43.

السلطان وذلك بأن حضور الإمام العثماني هو حضور اسمي بالبلد فقط271. ورغم رفض علماء فاس هذه البيعة وتردد السلطان إلا أنه في الأخير قبل هذه البيعة، فعين المولى علي بن سليمان على رأس هذه المنطقة .

وأمام هذا التكاتف الاجتماعي ما بين السلطان المغربي وأهل تلمسان" قامت السلطات الفرنسية بأعمال إجرامية ما زال التاريخ يتحدث عنها وذلك أن كل مغربي وقع في يد الفرنسيين يعدم بعد هذا التعذيب272 كبداية لتوتر العلاقات الفرنسية المغربية، وأمام قبول البيعة التلمسانية من طرف مولاي عبد الرحمان بن هشام جاء الرد الفرنسي عبارة عن ضغوطات دبلوماسية، ترجمت بإرسال بعثة دموربي إليه أرسلها الملك لويس فيليب لتجديد روابط الوداد واستتباب الأمن بين الدولتين، فوصلت في 15 مارس سنة 1832لمكناس . وكان استقبال السلطان للمقيم في 22 من الشهر وهو يومئذ بمكناس273. وفي هذا السياق قامت فرنسا بسياسة أخرى ترتكز على منهج الترهيب والترغيب، بإرسال بارجة حربية رست بطنجة تهديدا للمغرب274 وأمام تصلب موقف مولاي عبد الرحمان بن هشام من الضغوط الفرنسية، زادت هذه الأخيرة من حدة الممارسة العسكرية من أجل اتخاذ السلطان لموقف محايد تجاه ما يجري بالجزائر. وذلك بنزول الجيش الفرنسي بوهران سنة 1831 محاولا تهديد الوجود المغربي بتلمسان ومستغانم، ووضع السلطان أمام خيارين اثنين: إما المواجهة ضد الفرنسيين أو سحب جيشه من الجزائر275. هذه الضغوط الدبلوماسية شديدة اللهجة أبانت عن النية الفرنسية في محاولتها إحداث مواجهة عسكرية مع المغرب، الشيء الذي أبصره وأدركه السلطان المغربي مما جعله ينسحب من تلمسان إثر لغة التهديد الدبلوماسية والعسكرية من جهة، والوضع الداخلي من جهة أخرى.

لكن أسباب التوتر ما بين المغرب وفرنسا سرعان ما عادت إلى الواجهة بنهوض حركة المجاهد عبد القادر الجزائري الذي عينه السلطان واعتبره خليفة له بعدما زوده بالعتاد العسكري وجزء من جيشه والمجاهدين من المغرب الشرقي والقبائل المحلية بغرب الجزائر276 " ولما اتصل بالسلطان المولى عبد الرحمان رحمه الله ما عليه الحاج عبد القادر من جهاد عدو الدين وحماية بيضة المسلمين

271- بوزيان عمر، ***جذور اتحاد المغرب والجزائر (1832 1845)***، مطابع عكاظ،، 1988، ص74.

272- الركاب يوسف، "***معركة ايسلي، أسبابها، عواقبها التاريخية والسياسية***"، الجامعة الصيفية، المغرب منذ العهد لعزيزي إلى سنة 1912، الجزء الثاني، ص 298 .

273- بوزويتة سمير، ***مكر الصورة...***، م.س ، ص42 .

274- سيمو بهيجة، ***الإصلاحات ...***، م.س، ص 73 .

275- بوزويتة سمير ، ***مكر الصورة...***، م.س ، ص47.

276- العماري أحمد،"***خلفيات الحدود الجيو-سياسية للأتراك والفرنسيين تجاه وحدة المغرب الكبير***"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، فاس عدد خاص 1985، ص 185 .

أعجبه حاله وحسنت منزلته عنده لأنه رأى أنه قام بنصرة الإسلام على حين لا ناصر له .فصار السلطان رحمه الله يمده بالخيل والسلاح والمال "277 وفي نفس الوقت ظلت فرنسا تراقب تحركات السلطان على إثر مساعدته للأمير عبد القادر الجزائري، وهو ما عبر عنه القنصل دونيون بقوله :

" من المؤكد أن حمل عبد القادر للسلاح ولد لدى المغاربة شعورا عبروا عنه بالتعاطف، كما أدى إلى تصاعد واضح لنزعة التعصب، فتسابق المسلمون على كل المستويات إلى أداء الواجب الذي يفرضه عليهم دينهم للإسهام في نجاح الجهاد. وكانت بعض الشخصيات البارزة مثل أبناء السلطان هي التي كانت تتلقى خطابات الأمير عبد القادر وتبعث إليه بأجوبة السلطان278 وبمساعدة المقاومة الجزائرية أصبحت فرص الاصطدام كثيرة ما بين المغرب وفرنسا خاصة وأن هذه الأخيرة زادت من شدة ممارستها، وصعدت تهديدها باللجوء إلى القوة العسكرية وضرب المراسي المغربية إذا لم يقم السلطان بحياده للأمير عبد القادر.وهو ما يتضح من خلال البعثة التي وردت لدى مولاي عبد الرحمان في 28 يوليوز 1836 بقيادة السفير الكدونيل (دولارو) وهو آنذاك بمدينة مكناس محذرا السلطان من مساعدة الأمير وطالبا منه أن يكف رعاياه عن الانضمام لهذا الأخير وإلزامهم الحياد وإلا عليه المواجهة واللجوء للحرب ، وجاءت هذه الحملة حاملة لشروط سبعة منها :

الاعتراف باستيلاء فرنسا على الجزائر وان يلتزم الحياد في أمور فرنسا والجزائر كما عليه أن يمنع الجزائريين من الالتجاء للمغرب فضلا عن مطالبته بإطلاق سراح الأسرى الفرنسيين ، وإلا فإن فرنسا ستصبح عدوة له 279

بهذه الصورة وجد السلطان نفسه أمام ضغوط فرنسية قاسية ، فما كان عليه إلا أن يبرز موقفه الإيجابي من شروطهم ورغبته في إعادة الأمور إلى مجرى الهدنة والسلم وهو ما أكده السلطان في رسالة جوابية بقوله : " من عبد الله المتوكل علي الله المعتصم بالله أمير المؤمنين بالمغرب الأقصى الشريف العلوي الحسني (عبد الرحمان بن هشام): أيده الله عساكره وجنوده ...إلى وحيد عصره لويز فيليب عظيم جيش الفرنصيص أما بعد فقد وافق حضرتنا العليا بالله كتابك وعرفنا ما تضمنه خطابك ، وعلمنا ما أنتم عليه من رسوخ المودة والاعتقاد ..., فنحن بحول الله

277- الناصري ابن خالد أحمد، ***الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى***، تحقيق محمد عثمان، دار الكتب العلمية، طبعة 2010، ج 9، ص299.
278- سيمو بهيجة، ***الإصلاحات ...***،م.س، ص 76.
279- ابن زيدان عبد الرحمان، ***إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس*** ، مطابع إديال، الدار البيضاء، 1990، ج 5 ص 160.

وقوته في حسن الوفاء بالعهود والمحافظة على الشروط وفق ما تظنون...وإتباع سبيل المعهود، أكثر مما تأملون، إذ نحن أولى برعي الذمام وأحق بالمحافظة على الألفة والالتئام ...فكل من ورد لإيالتنا، لا يرى إلا ذلك وزيادة عموما وخصوصا جنسكم فإنه أثر الأجناس لدينا لقديم عهده ووصلته ...واهتمامكم بإيالتنا لاتوجهون لخدمتنا من حاشيتكم إلا أهل العقل والرزانة ...ليسعوا في الألفة بين الإيالتين ويحسنوا الوساطة بين الدولتين ...".280

من هنا نرى بأن هذه الرسالة تحمل في طياتها خطابا سياسيا قائما على قبول السلطان المغربي للشروط الفرنسية ومحاولة إعادة علاقة الود ما بين الدولتين، وذلك عن طريق جعل فرنسا تنتبه لجذور العلاقة وقدمها. هذا إن دل إنما يدل على أن سفارة "دولارو" قد أعطت أكلها وفق ما أرادت فرنسا الحصول عليه ، وهكذا فرضت بعثة "دولارو" أن يحافظ السلطان المغربي على حياده تجاه المقاومة الجزائرية إلى حدود 281.1842 وبالرغم من هذا الموقف المغربي فإنه ظل حبرا على ورق بحيث استمر السلطان في مساعدة الأمير ماديا ومعنويا مما جعل الموقف الفرنسي لم ينحصر على حدود التهديد بل تطور بتعيين الجنرال بيجو الذي قام بممارسة سياسة "الأرض المحروقة"، هذه العملية التي أفقدت الأمير عبد القادر وسائل المقاومة وأرغمته على التقهقر داخل التراب المغربي282، هذا التراب الذي تعرض بدوره إلى مبدأ القوة في تحقيق الأهداف السياسية من طرف فرنسا التي قامت باكتساحها لأراضي مغربية غرب تافنا سنة 1843 يبلغ عرضها حوالي 60 كلم .كما قامت 1844 باحتلال ميناء الغزوات ومركز مغنية283،وذلك ربما لما لها من أهمية من حيث الموقع من أجل مراقبة الأحداث على مستوى مدينة وجدة.

لكن النقطة التي أفاضت الكأس على مسار توتر العلاقات المغربية الفرنسية هي أن هذه المنطقة أصبحت عرضة لنقمة الجيش الفرنسي، الذي اقتحمها لأول مرة في 19يونيو 1844 دون أن يواجه أدنى مقاومة خصوصا وأن العامل وقائد المحلة قد انسحبا إلى قصبة العيون، وقد كان قرار احتلال وجدة يسعى لتأكيد رغبة فرنسا وتصميمها على تحقيق مشروعها الهادف إلى عزل الأمير عبد القادر وفرض حدود جديدة مع المغرب .284

280- نفسه، ص 161 .

281- بوزويتة سمير، ***مكر الصورة...***، م.س ، ص52 .

282- سيمو بهيجة، ***الإصلاحات...***،م.س، ص80.

283- العماري أحمد، "خلفيات الحدود الجيو-سياسية للأتراك و الفرنسيين تجاه وحدة المغرب الكبير"، مجلة كلية الأداب فاس، عدد خاص، 1985، ص ص 188-189 .

284- برحاب عكاشة ، ***شمال المغرب الشرقي قبل الاحتلال الفرنسي (1873-1907)***، مطبعة الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 1989، ص 176



ومما زاد الطين بلة هو استمرار فرنسا في ضغوطها العسكرية وتوغلها بالمغرب عن طريق حملات تأديبية حسب تعبير دانييل شروتر، في ظرفية 15 يوما قامت بقذف مدينتين مغربيتين أولهما تتمثل في :

- قصف مدينة طنجة يوم 9 غشت 1844 بقيادة الأمير دوجوانفيل

- ثانيهما قام الأسطول الفرنسي برمي مدينة الصويرة بالقنابل يوم 15 غشت 1844 وكانت المقاومة المغربية قصيرة المدى .ورسالة دوجوانفيل إلى بوجو الشاهد على ذلك بقوله " أبعث إليك بمائة و نيف من الأسرى لأبين لك عنف توبيخنا للمغاربة ".285

هكذا نلاحظ بأن الأوساط الاستعمارية الفرنسية استغلت الأوضاع الداخلية للمغرب وما فرضه الواجب الديني على السلطان المغربي من مساعدة للأمير الجزائري ،كما استغلت تفوقها العسكري من أجل فرض وجودها على الحزام المغربي مما أدى بهذا الأخير نتيجة الممارسات العسكرية إلى الدخول في مجابهة مباشرة مع القوات الفرنسية .

3ـــ الحضور الفرنسي بالمغرب:

تعتبر الجالية الفرنسية بالمغرب أقل تواجدا وعددا مقارنة مع الجالية الانجليزية سنة 1866 خصوصا بمدينة طنجة ، فلم يكن بمدينة الدار البيضاء سنة 1872، سوى 31 تاجر، وتقهقر عددهم إلى 27 شخصا سنة 1885، أما بطنجة فلم يتجاوز عددهم 77 من البالغين سنة 1866، أما الصويرة وأسفي لم يكن يعيش بهما إلا اسر تشتمل على 30 شخصا ، وكان مجموع الفرنسيين بالمغرب لا يتعدى 166 شخصا سنة 2861879.

4ـــ لوائح المحميين المغاربة الذين تبنو الحماية القنصلية الفرنسية

تعتبر الحماية القنصلية من أهم الأنظمة السياسية التي ربطت المغرب مع الدول الأوربية وأثرت عليه سلبا، باعتبارها خطة سياسية جديدة للتدخل الأجنبي. ويمكن اعتبار العقد الثالث من القرن التاسع عشر الانطلاقة الحقيقية لمباشرة هذه السياسية، والتي وصلت قمتها في النصف الثاني من هذا القرن. وقد اعتمدت هذه الدول على مجموعة من الوسائل للوصول إلى مبتغاها، إما عن طريق القوة العسكرية وإما عن طريق الأسلوب الدبلوماسي بعقد مجموعة من الاتفاقيات اللامتكافئة، كل هذا من أجل إضعاف الكيان المغربي، وجعله غير قادر على مواجهة مطالبه وإذا كانت هذه

285- شروتر دانييل ،***تجار الصويرة: المجتمع الحضاري و الإمبريالية في جنوب غرب المغرب (1844-1886)***، خالد بنصغير، منشورات كلية الأداب، الرباط، ط1997،1، ص ص 226 -227 .

286- بوشعراء مصطفى ،***الاستيطان و الحماية بالمغرب (1863-1894)***المطبعة الملكية، الرباط، طبعة 1987، ج4، م.س، ص 1520.

الاتفاقيات نصت على مجموعة من الامتيازات فإن أخطرها تكمن في ظاهرة الحماية القنصلية، فمن هم المغاربة الذين تبنو هذا النظام خلال القرن التاسع عشر؟

أسماء المحميين	تعريفهم	الانتماء الديني مسلم/يهودي	الدولة الحامية	المدينة التي حصل فيها على الحماية
عبد الرحمن بناني سميرس	من فئة كبار الرحالة كان له مركزان تجاريان بمنشيستر[287]	مسلم	فرنسا	ــــ
محمد بن عبد القادر بنيس	سافر إلى الخارج وكانت له تجارة نشيطة مع مدينة ليون[288]	مسلم	فرنسا	ــــ
مردوخي أبي سرور	المولود حوالي 1830 بقرية أقا، كان قد حج إلى فلسطين ثم عاد إلى مسقط رأسه حوالي 1855[289]	يهودي	فرنسا	ــــ
محمد بن المدني التازي	يعتبر من الزبائن الكبار لمدينة جنوة الإيطالية حيث انتقل إليها في 1906[290]	مسلم	فرنسا	ــــ
محمد بن زيد برادة	يعتبرون من الزبائن الكبار لمدينة جنوة الإيطالية حيث	مسلم	فرنسا	ــــ

287 بوشعراء مصطفى، ***الاستيطان والحماية بالمغرب (1863-1864)***، المطبعة الملكية، الرباط، 1984، ج. 1، ص،70 و315.
288 نفسه ، ص ص 75 و116.
289 نفسه ، ص ص 6 و89.
290 بوشعراء مصطفى، ***الاستيطان و الحماية...***،ج1، م.س ، ص ص 6 و312.

	انتقل إليها سنة 1906[291]			
علي بن الطيب بناني	كان تاجرا بفاس ثروته 350 مليونا سنة 1930[292]	مسلم	فرنسا	——
العربي بنيس	كان تاجرا ومستوردا للمنسوجات[293]	مسلم	فرنسا	——
الطيب بناني	تاجربالقيسارية كان له 8 مفاتيح بفاس (70 مليون فرنكا سنة 1910)[294]	مسلم	فرنسا	
محمد بنونة	تاجر بالقيسارية ومن كبار مستوردي النسيج وكان له 7 شركاء وثروته فاقت 200 مليون فرنكا سنة 1927[295]	مسلم	فرنسا	——
الحاج[296] عبد السلام الوزاني	——	مسلم	فرنسا	——
محمد بن العربي امقشد	كان كاتبا بالقنصلية[297]	مسلم	فرنسا	طنجة
سيدي محمد	——	مسلم	فرنسا	طنجة

291 نفسه ، ص 313.
292 نفسه ،ص 313.
293 نفسه، ص 313.
294 نفسه ، ص 313.
295 بوشعراء مصطفى، ***الاستيطان و الحماية ...***،ج1، م.س ، ص 313.
296 مذكور في نفس المصدر في صفحات عديدة (379-397-421). أنظر كذلك محمد كنبيب، المحميون، دار أبي رقراق للطباعة و النشر، الرباط، 2011، ص171.أنظر كذلك جان لوي مييج ، المغرب و أوربا، ج4، ص50.
297 بوشعراء مصطفى ، ***الاستيطان والحماية بالمغرب (1863-1894)***، المطبعة الملكية، الرباط، 1987، ج. 2، ص 571.

الدرقاوي				
أحمد بن عمر الصغير		مسلم	إسبانيا	طنجة
موشي بنشيمول	كان حوالي 1853 ترجمانا بالمفوضية، وعنه ورد استثناء في التسوية المغربية الفرنسية لسنة 1863... كانت حمايته وراثية[298]	يهودي	فرنسا	طنجة
محمد المصوري	كان كاتبا وجاء في رسالة سلطانية أنه كان لا يسعى إلا في فساد بين الدولتين[299]	مسلم	فرنسا	طنجة
دابيط ازنكوط	توفي قبل سنة 1879[300]	يهودي	فرنسا	طنجة
أرملة محمد المصوري	ــــــ	مسلمة	فرنسا	طنجة
ابنتا محمد المصوري	ــــــ	مسلمتين	فرنسا	طنجة
عبد القادر ابن المصوري	ــــــ	مسلم	فرنسا	طنجة
يهوذا الصائغ	تاجر بمدينة طنجة[301]	يهودي	فرنسا	طنجة

298 بنمنصور عبد الوهاب، ***مشكلة الحماية القنصلية بالمغرب*** ، ص 26 .أنظر مصطفى بوشعراء، الاستيطان و الحماية بالمغرب ،الجزء 2 ،ص 619.

299 بنمنصور عبد الوهاب، ***مشكلة الحماية ...***، م.س ، ص26.

300 بوشعراء مصطفى، ***الاستيطان والحماية ...***،ج2، م.س، ص 619

301 نفسه ، ص 619.

حاييم بن إبراهيم بنشيمول	كان ترجمانا وتاجرا ذا سماسرة وهو من أكبر المحميين[302]	يهودي	فرنسا	طنجة
دابيد بنشيمول	ترجمان بالمفوضية[303]	يهودي	فرنسا	طنجة
شلومو بنشيمول	كان صيدلي المستشفى الفرنسي بطنجة[304]	يهودي	فرنسا	طنجة
الهاشمي السوسي	ــــــ	مسلم	فرنسا	طنجة
الحاج قدور ولد حية	ــــــ	مسلم	فرنسا	طنجة
العربي التطواني	ربما هو العربي البوتوي[305]	مسلم	فرنسا	طنجة
الحاج أحمد سعود	ــــــ	مسلم	فرنسا	طنجة
أحمد الشرقي	ــــــ	مسلم	فرنسا	طنجة
المختار العماري	ــــــ	مسلم	فرنسا	طنجة
عبد الله التوزاني	ــــــ	مسلم	فرنسا	طنجة
محمد ولد حدو	ــــــ	مسلم	فرنسا	طنجة
فريحة بنت اليسم	ــــــ	مسلم	فرنسا	طنجة
أحمد بن العياشي	ــــــ	مسلم	فرنسا	طنجة
محمد ولد إدريس	ــــــ	مسلم	فرنسا	طنجة1
سالمون بن عسولين	ــــــ	يهودي	فرنسا	طنجة
محمد بن عمرو	ــــــ	مسلم	فرنسا	طنجة
عبد السلام بن سموط	ــــــ	مسلم	فرنسا	طنجة
أحمد الدكالي	ــــــ	مسلم	فرنسا	طنجة

302 نفسه ، ص 620.
303 نفسه ، ص 620.
304 نفسه ، ص 620.
305 بوشعراء مصطفى، ***الاستيطان والحماية ...***،ج2، م.س ، ص 620.

ولد الحاج قاسك بن محمد بوعود	ـــــ	مسلم	فرنسا	طنجة
محمد التوزاني	ـــــ	مسلم	فرنسا	طنجة
محمد ولد التهامي كرواس	ـــــ	مسلم	فرنسا	طنجة
جلول	ـــــ	مسلم	فرنسا	طنجة
احميدة بن محمد بن العربي	ـــــ	مسلم	فرنسا	طنجة
سارة بوطبول	ـــــ	مسلمة	فرنسا	طنجة
عبد الله الدكالي	كان كاتبا[306]	مسلم	فرنسا	طنجة
محمد السوسي	ـــــ	مسلم	فرنسا	طنجة
محمد سعيد	ـــــ	مسلم	فرنسا	طنجة
القائد القلعي	ـــــ	مسلم	فرنسا	طنجة
العياشي بن الحاج مبارك	ـــــ	مسلم	فرنسا	طنجة
فطوم بنت النونيو	ـــــ	مسلمة	فرنسا	طنجة
شيمي مورينو	ـــــ	يهودي	فرنسا	طنجة 1882
سلطانة أبي قايس	ـــــ	يهودية	فرنسا	طنجة 1882
محمد التمسماني	رئيس الأعوان[307]	مسلم	فرنسا	طنجة من 1879 إلى 1885
الحاج محمد مصباح	حارس بنك طرانز أطلانتيك[308]	مسلم	فرنسا	طنجة من 1879 إلى 1885
علال الدكالي	كان سنة 1837 كاتبا بالمفوضية. لكن يحتمل أن اسمه هو علي الدكالي الحسيني	مسلم	فرنسا	طنجة

306 بوشعراء مصطفى، ***الاستيطان والحماية ...***،ج2، م.س ، ص621.
307 بوشعراء مصطفى، ***الاستيطان والحماية ...***،ج2، م.س، ص 621.أنظر كذلك مييج، المغرب و أوربا، ج4، ص55.
308 بوشعراء مصطفى، ***الاستيطان والحماية ...***،ج2، م.س، ص 621.

	الذي كان كاتبا سنة 1888[309]			
إسحاق كويهن	كان سنة 1888 كاتبا[310]	يهودي	فرنسا	طنجة
محمد البقيوي الطنجي	كان عونا التمس كذلك الإنعام عليه بحانوت حبسية بطنجة[311]	مسلم	فرنسا	طنجة
سلام الرغيف	كان عونا التمس كذلك الإنعام بحانوت حبسية سنة 1981 فاكريت له[312]	يهودي	فرنسا	طنجة
عبد السلام أيوب	طلب كراء حانوت حبسية فوقع الإنعام عليه بها سنة 1891[313]	مسلم	فرنسا	طنجة
الجيلالي بن بوشعيب الريفي	ـــــ	مسلم	فرنسا	طنجة
عبد السلام ابارودي	وهو محمي متنطع كانت عليه قبل سنة 1889 ديون من قبل الناس والدولة. لكنه كان معتديا في نونبر 1891 خرج إلى الشارع وبدأ يطلق	مسلم	فرنسا	طنجة

309 نفسه ، ص 621
310 نفسه ، ص 621
311 بوشعراء مصطفى، ***الاستيطان والحماية ...***،ج2، م.س، ص 621
312 نفسه ، ص 621
313 نفسه ، ص 622

	النار فجرح أشخاصا وقتل آخرين ومنهم ولد أحمد غسال الذي صرع أمام داره[314]			
بينحاس الصايغ	كان صحافيا[315]	يهودي	فرنسا	طنجة
مناحيم ناهون	اتهم سنة 1862 بأنه كان لديار المسلمين ويتعرض لنسائهم صحبة يهودي من تلمسان اسمه إسرائيل بنياشو[316]	يهودي	فرنسا	تطوان
موسى أزولاي	كان سنة 1866 ترجمانا[317]	يهودي	فرنسا	تطوان
هلال بن ناهون	كان كاتبا للوكيل القنصلي[318]	يهودي	فرنسا	تطوان
موسى بنطوليلة	كان ترجمانا[319]	يهودي	فرنسا	تطوان
عبد الغفار خرخول	ـــــ	مسلم	فرنسا	تطوان
الحاج عبد القادر الزكي الرباطي	كان كاتبا[320]	مسلم	فرنسا	سلا والرباط
يعقوب ابن سعيد ابن الصائغ	كان ترجمانا[321]	يهودي	فرنسا	سلا والرباط

314 نفسه ، ص 622
315 بوشعراء مصطفى، ***الاستيطان والحماية...***،ج2، م.س، ص 622
316 نفسه ، ص 666.
317 نفسه ، ص 666.
318 نفسه ، ص 666.
319 نفسه ، ص 666.
320 نفسه ، ص 786.
321 نفسه ، ص 786.

محمد الداودي	——	مسلم	فرنسا	سلا والرباط
بوشعيب الجديلي[322]	——	مسلم	فرنسا	سلا والرباط
عبد السلام القصري[323]	——	مسلم	فرنسا	سلا والرباط
الحاج عبد الله اليوسفي	عون بدار الوكالة سنة 1883[324]	مسلم	فرنسا	سلا والرباط
عبد العلي حسون	——	مسلم	فرنسا	سلا والرباط
الطاهر السهلي	——	مسلم	فرنسا	سلا والرباط
بوحبوط	كان محميا سنة 1866 وكان يسكن بالرباط[325]	يهودي	فرنسا	سلا والرباط
محمد بن الشرقي الأودي	عون بالقنصلية سنة 1887[326]	مسلم	فرنسا	سلا والرباط
إبراهيم أوحنا	قتل سنة 1891 بأحواز المدينة[327]	يهودي	فرنسا	سلا والرباط
أحمد الغربي	——	مسلم	فرنسا	سلا والرباط
الشافعي بن الطيب	كان كاتبا في القوائم الفرنسية العامة حتى سنة 1883[328]	مسلم	فرنسا	الدار البيضاء
ابن الطالب بن محمد	كان عونا في القوائم الفرنسية	مسلم	فرنسا	الدار البيضاء

322 ابن زيدان عبد الرحمان، ***العز و الصولة في معالم نظم الدولة***، المطبعة الملكية، الرباط، 1961،ج.1،ص 315
323 نفسه ، ص 315.
324 بوشعراء مصطفى، ***الاستيطان والحماية ...***،ج2، م.س ، ص 786
325 نفسه ، ص 787.
326 نفسه ، ص 787.
327 نفسه ، ص 787.
328 بوشعراء مصطفى، ***الاستيطان والحماية ...***،ج2، م.س ، ص 908.

	العامة حتى سنة 1833[329]			
الحاج محمد بن محمد الحبشي الخليفي الحريزي	كان مستخدما في القوائم الفرنسية العامة حتى سنة 1882[330]	مسلم	فرنسا	الدار البيضاء
يوسف عميل	كان مترجما[331]	مسلم	فرنسا	الدار البيضاء
محمد ابن إبراهيم الشلح	ــــــ	مسلم	فرنسا	الدار البيضاء
محمد بن حمادي	كان مستخدما[332]	مسلم	فرنسا	الدار البيضاء
علي بن أحمد	مستخدم بدار القنصل من 1880 إلى 1883[333]	مسلم	فرنسا	الدار البيضاء
محمد بن عبد الله الحباري الحبشي الحريزي	مستخدم بدار النائب القنصلي من 1881 إلى 1882[334]	مسلم	فرنسا	الدار البيضاء
ابن الدهان	كان سنة 1893 وسيط في بيع السلاح على يد أولاد زارو المحميين الإنجليزيين بالجديدة، ومنهم كانت تصله	يهودي	فرنسا	الدار البيضاء

329 نفسه ، ص 907.
330 بوشعراء مصطفى، *الاستيطان والحماية ...*،ج2، م.س ، ص 907.أنظر كذلك عبدالرحمان ابن زيدان، العز و الصولة ،ج.1، ص 320.
331 نفسه ، ص 907.
332 نفسه ، ص 907.
333 نفسه ، ص 908.
334 بوشعراء مصطفى، *الاستيطان والحماية ...*،ج2، م.س، ص 908.

			الأسلحة عن طريق طنجة[335]	
الدار البيضاء	فرنسا	مسلم	كان سنة 1886 سمسارا أو محميا للقنصل فيريو[336]	ولد بنيس الفاسي
أزمور والجديدة	فرنسا	مسلم	ــــــ	محمد بن أحمد[337]
أزمور والجديدة	فرنسا	مسلم	ــــــ	عبد الله بن محمد
أزمور والجديدة	فرنسا	مسلم	ــــــ	النويني بن شمعون بورجل
أزمور والجديدة	فرنسا	مسلم	كاتب[338]	المعطي بن أمينة
أزمور والجديدة	فرنسا	مسلم	ترجمان[339]	إبراهيم بيكو الزناتي
أزمور والجديدة	فرنسا	مسلم	عون وسمسار[340]	مسعود بن قدور
أزمور والجديدة	فرنسا	مسلم	ــــــ	حكي الشلح
أزمور والجديدة	فرنسا	يهودي	ــــــ	الحزان دوايد كويهن
أزمور والجديدة	فرنسا	يهودي	كان ترجمانا بالقنصلية الإسبانية[341]	هارون بن بيكو
أزمور والجديدة	فرنسا	مسلم	ــــــ	يوسف بن عدي
أزمور والجديدة	فرنسا	يهودي	ــــــ	نسيم بن شمعون
آسفي	فرنسا	مسلم	كان كاتبا سنة 1882 لكنه سيصير سمسارا[342]	الحاج أحمد بن المحجوب بن ناصر

335 بوشعراء مصطفى، ***الاستيطان والحماية...***،ج2، م.س، ص 908.أنظر كذلك مييج، المغرب و أوربا، ج5.ص24.
336 نفسه ، ص 908.
337 ابن زيدان عبد الرحمان، ***العز و الصولة...***، ج1، م.س، ص320.
338 بوشعراء مصطفى، ***الاستيطان والحماية...***،ج2، م.س، ص 1012.
339 نفسه ، ص 1012.
340 بوشعراء مصطفى، ***الاستيطان والحماية...***،ج2، م.س، ص 1012.
341 ، نفسه، ص 1012.
342 بوشعراء مصطفى، ***الاستيطان والحماية...***، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1988، ج. 3، ص: 1046.

الحاج اليزيدي بن الحاج المسفيوي	كان كاتبا سنة 1881 و1882[343]	مسلم	فرنسا	آسفي
سالومون عطية	ترجمان مساعد سنة 1880 و1881[344]	مسلم	فرنسا	آسفي
عبد القادر بن عبد الله المراكشي	كان طباخا للوكيل القنصلي سنة 1881[345]	مسلم	فرنسا	آسفي
مخلوف آوحيون	——	يهودي	فرنسا	آسفي
مولاي التهامي بن مولاي إدريس	كان كاتبا بعد سنة 1882 ولعله أصبح "طالب" القنصلية لما غدا الحاج أحمد بن ناصر سمسارا[346]	مسلم	فرنسا	آسفي
الحاج حميد بن علال المصلوحي	كان عون سنة 1880 و1881[347]	مسلم	فرنسا	آسفي
أحمد الكراوي	كان كاتبا للقنصل وقد صار سمسارا لمحمي برازيلي[348]	مسلم	فرنسا	آسفي
الفيلالي	كان مستخدما عند آلار ولم يرد بيان اسمه[349]	مسلم	فرنسا	آسفي

343، نفسه، ص 1046.
344 نفسه ، ص 1046.
345 نفسه ، ص 1046.
346 بوشعراء مصطفى، *الاستيطان والحماية...*،ج3، م.س ، ص 1046.
347 نفسه ، ص 1046.
348 نفسه ، ص 1046.
349 نفسه ، ص 1046.

هارون بوكدادة	——	يهودي	فرنسا	آسفي
إسحاق الليوي	——	يهودي	فرنسا	آسفي
نسيم الليوي	——	يهودي	فرنسا	آسفي
مردوخي ابن العيار	——	يهودي	فرنسا	آسفي
مردوخي الليوي	——	يهودي	فرنسا	آسفي
الإخوة لالوز الأربعة	——	يهودي	فرنسا	آسفي
محمد جعادة	كان سنة 1890 كاتبا قنصليا قبل أحمد الكراوي [350]	مسلم	فرنسا	آسفي
حاييم بن مساس	——	يهودي	فرنسا	الصويرة
مردوخي افيلال	——	يهودي	فرنسا	الصويرة
دابيد أوحنا	——	يهودي	فرنسا	الصويرة
زوجته لونا	——	يهودية	فرنسا	الصويرة
إبراهيم قرقوز [351]	——	يهودي	فرنسا	الصويرة
ابن إبراهيم سالهون وموشي	——	يهودي	فرنسا	الصويرة
ساوول كوهين صولال	——	يهودي	فرنسا	الصويرة
مردوخي عطية	——	يهودي	فرنسا	الصويرة
زوجة مردوخي عطية	——	يهودية	فرنسا	الصويرة
ابنا مردوخي عطية عزوز ويامنة	——	يهوديان	فرنسا	الصويرة
يعقوب المليح	——	يهودي	فرنسا	الصويرة
زوجة يعقوب المليح حسيبة	——	يهودية	فرنسا	الصويرة
ابنا يعقوب المليح أبراهام وحاييم	——	يهوديان	فرنسا	الصويرة
الحزان ناهوشي	——	يهودي	فرنسا	الصويرة

350 بوشعراء مصطفى، *الاستيطان والحماية ...*،ج3، م.س ، ص 1046.
351 انظر كنبيب محمد، المحميون، ص142 و 306.

بينطو				
زوجة موشي بينطو	ــــــ	يهودية	فرنسا	الصويرة
ابنا موشي بينطو يعقوب والعالية	ــــــ	يهوديين	فرنسا	الصويرة
إلياس بن سعدون	ــــــ	يهودي	فرنسا	الصويرة
زوجة إلياس بن سعدون مسعودة	ــــــ	يهودية	فرنسا	الصويرة
أبناء إلياس بن سعدون: سلطانة وزهرة ومسعود	ــــــ	يهوديون	فرنسا	الصويرة
إبراهيم الليوي	كان ترجمانا للدكتور تيفنان[352]	يهودي	فرنسا	الصويرة
سميحة زوجة إبراهيم الليوي	ــــــ	يهودية	فرنسا	الصويرة
أبناء إبراهيم الليوي: ميشال ونحمان وسيميون وسلطانة	ــــــ	يهوديون	فرنسا	الصويرة
إبراهيم بن أحمد	عون ورد في القوائم من 1880 إلى 1883[353]	مسلم	فرنسا	الصويرة
يعقوب الليوي	طباخ[354]	يهودي	فرنسا	الصويرة
الجيلالي بن الجيلالي	ــــــ	مسلم	فرنسا	الصويرة
أبراهام بن شلوم	ــــــ	يهودي	فرنسا	الصويرة
ميمون بن الصحابي	ــــــ	مسلم	فرنسا	الصويرة
محمد بن أحمد	خادم موشي قرقور[355]	مسلم	فرنسا	الصويرة

352 بوشعراء مصطفى، ***الاستيطان والحماية...***،ج3، م.س ، ص 1107.
353 نفسه ، ص 1107.
354 نفسه ، ص 1107.
355 نفسه ، ص 1107.

بلعيد العيساوي	خادم سالومون قرقوز[356]	مسلم	فرنسا	الصويرة
دابيد عطية	خادم ساوول كوهين صولال[357]	يهودي	فرنسا	الصويرة
إسحاق بن يعيش الليوي	ــــــ	يهودي	فرنسا	الصويرة
الحاج عمارة بن الجيلالي	مستخدم بالقنصلية منذ سنتين[358]	مسلم	فرنسا	الصويرة
يشوع بن سوسان الليوي	ترجمان بالقنصلية إلى اللغة العبرانية منذ 14 سنة[359]	يهودي	فرنسا	الصويرة
محمد بن الركيك المسفيوي	كاتب بالقنصلية منذ 15 سنة حتى توفي قبل 1892 ونزعت منه الدار التي كان يسكن بها وأعطيت لأغا العسكر بالصويرة[360]	مسلم	فرنسا	الصويرة
علال بن الحاج عبد الله الأقاوي	ــــــ	مسلم	فرنسا	الصويرة
أبراهام قورياط	ترجمان القنصلية منذ سنة 1880[361]	يهودي	فرنسا	الصويرة
دابيد الشوراقي	ــــــ	يهودي	فرنسا	الصويرة
يوسف ديليبانتي	كان سنة 1869		فرنسا	الصويرة

356 نفسه ، ص 1107.
357 بوشعراء مصطفى، ***الاستيطان والحماية...***،ج3، م.س ، ص 1107.
358 نفسه ، ص 1108.
359 نفسه ، ص 1108.
360 نفسه ، ص 1108.
361 نفسه ، ص 1108.

			ترجمانا بالقنصلية[362]	
الصويرة	فرنسا	يهودي	ــــــ	إسحاق بن شالوم
الصويرة	فرنسا	يهودي	ــــــ	الياهو حاشويل
الصويرة	فرنسا	يهودي	ــــــ	عزاز حاشويل
الصويرة	فرنسا	يهودي	ــــــ	عزاز بن فرايم
الصويرة	فرنسا	يهودي	ــــــ	عزاز بن يعقوب
الصويرة	فرنسا	يهودي	ــــــ	شالوم بن خلوف
الصويرة	فرنسا	يهودي	ــــــ	شلومو أفرياط
الصويرة	فرنسا	يهودي	ــــــ	يوسف الترجمان
الصويرة	فرنسا	يهودي	ــــــ	موشي سويسة
الصويرة	فرنسا	مسلم	ــــــ	عمر الرجراجي
الصويرة	فرنسا	يهودي	ــــــ	يوشع بن سوسان
الصويرة	فرنسا	يهودي	ــــــ	مخلوف بن مسعود بن موحو
مراكش	فرنسا	مسلم	كان سنة 1893 مراسلا وكان محميا لشقيق كونط دوبيني سفير فرنسا بطنجة، وكان نائب فرنسا يروم جعله وكيلا سنة 1893 فرفض المخزن[363]	أحمد رزنة التلمساني
مراكش	فرنسا	مسلم	كان في مطلع القرن 20 وكيلا بقنصل فرنسا	عمر المجاد

---

362 بوشعراء مصطفى، ***الاستيطان والحماية...***،ج3، م.س ، ص 1108.
363 بوشعراء مصطفى، ***الاستيطان والحماية...***،ج3، م.س ، ص 1135.

	بالصويرة وكان ملاكا غنيا يتمتع بسمعة طيبة في المدينة[364]			
حاييم قرقوز	——	يهودي	فرنسا	مراكش 1883
موشي قرقوز[365]	——	يهودي	فرنسا	مراكش
مخلوف أوحيون	——	يهودي	فرنسا	مراكش
دابيد بن حجوط	——	يهودي	فرنسا	فاس
سعدية بن مارسيانو	——	يهودية	فرنسا	فاس
الابن حاييم	——	يهودي	فرنسا	فاس
الياهو بن شلومو بن عمور	——	يهودي	فرنسا	فاس
المخلوف ابن المسلم	——	يهودي	فرنسا	فاس
أب مخلوف ابن المسلم	——	يهودي	فرنسا	فاس
يعقوب الليبي	——	يهودي	فرنسا	فاس
شاويل بن شطريت	——	يهودي	فرنسا	فاس
ميمون بن ماما	——	يهودي	فرنسا	فاس
ميمون بن سوسان	——	يهودي	فرنسا	فاس
بنيامين بن زازون	——	يهودي	فرنسا	فاس
يمين كويهن	——	يهودي	فرنسا	فاس
الياهو بيطون	——	يهودي	فرنسا	فاس
مسعود أخ بيطون	——	يهودي	فرنسا	فاس
إسحاق بن ميمران	——	يهودي	فرنسا	فاس
الحزان يعقوب بن هارون كويهن	——	يهودي	فرنسا	فاس
الحبيب بن علي الدسولي	كان كاتبا في القائمة العامة سنة	مسلم	فرنسا	فاس

364 نفسه ، ص 1135.
365 أنظر محمد كنبيب، المحميون، ص142.



	1883[366]			
أسير الليبي	ـــــــ	يهودي	فرنسا	فاس
أبي قاسيس	كان من يهود الجزائر كان سكيرا ومشاكسا[367]	يهودي	فرنسا	فاس
التهامي بوجنان	كان سنة 118 مستخدما[368]	مسلم	فرنسا	فاس
الحاج علي بوطالب الحشمي	الذي كان سنة 1885 ترجمانا لوكيل فرنسا بفاس[369]	مسلم	فرنسا	فاس
شلومو عطية	من يهود الجزائر اغتيل بأحواز فاس سنة 1885 وكان مرابيا[370]	مسلم	فرنسا	فاس
الحسن بن الطيب الوزاني	المولود بفاس سنة 1865 وكان من كبار الملاكين[371]	مسلم	فرنسا	فاس
محمد ماني الصنهاجي	كان من سراد الحديث بالحضرة الشريفة وأصبح هو وإخوانه محميين[372]	مسلم	فرنسا	فاس

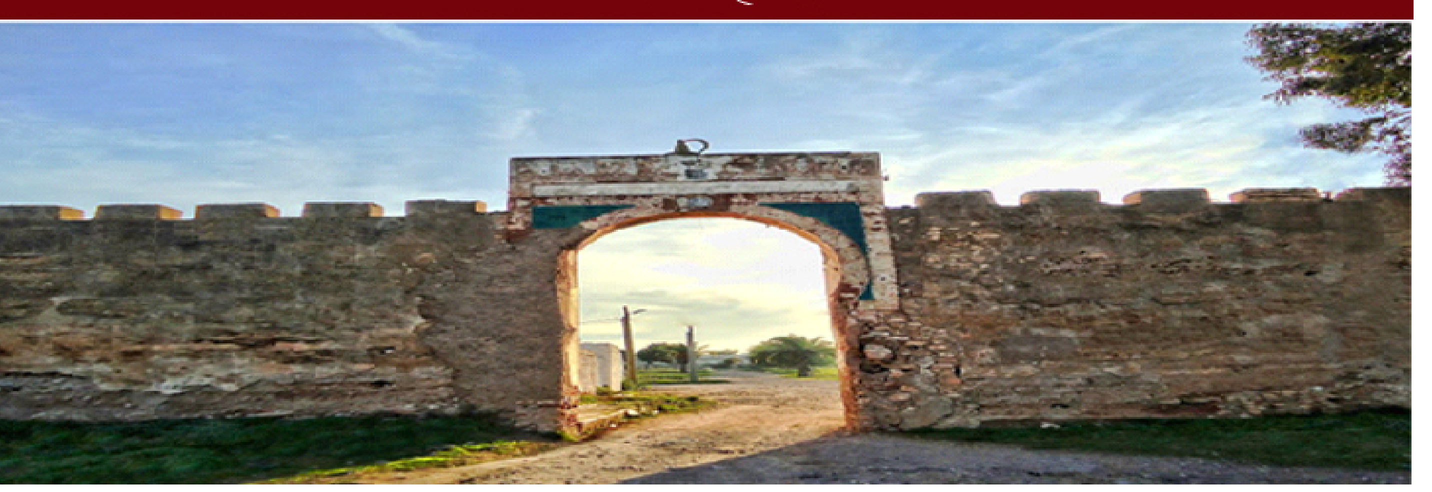
366 بوشعراء مصطفى، ***الاستيطان والحماية...***،ج3، م.س ، ص 1174.
367 نفسه ، ص 1174.
368 نفسه ، ص 1174.
369 نفسه ، ص 1174.
370 نفسه ، ص 1174.
371 بوشعراء مصطفى، ***الاستيطان والحماية...***،ج3، م.س ، ص 1174.
372 نفسه ، ص 1174.

ميير بن موشي كوهن	هجم على محتسب مكناس وأغلط له القول وسبه وسب أصحابه وكان المحتسب هو المختار بادو[373]	يهودي	فرنسا	مكناس
شامويل ابن اللويري		يهودي	فرنسا	مكناس

حاولنا من خلال هدا العمل المتواضع أن نقف على بعض القضايا المتعلقة بالعلاقات الدولية و المتمثلة بالأساس في علاقة الدولة الفرنسية بالمغرب، هذه العلاقة التي يطغى عليها نمط المد و الجزر، باعتبار الأولى دولة واقعية قائمة، حاولت الهيمنة على الثانية، ككيان يستمد شخصيته و قوته من إرثه التاريخي أكثر من حاضره و يعيش على أنغامه، و العلة في ذلك ما شهده القرن التاسع عشر من حضارة أوربية بلغت ذروتها على جميع المستويات، فانتقلت من مرحلة التطور إلى مرحلة القيادة. في حين أن المغرب في ظل هده الفترة ظل يعاني شللا وضعفا من الناحية الإدارية و المخزنية.

373 نفسه ، ص 1191.

مواقع تاريخية



أنوار ساطعة على أركان دامسة من تاريخ تاعرعارت المنسية.



عدي الراضي.
باحث في التاريخ والتراث.

لقد كان جبل العياشي حاضرا بقوة على مسرح الكثير من الأحداث التي عرفها المغرب وساهم بشكل فعال في تكوين والتأثير على أهم مسارات تاريخ المغرب خلال جميع الحقب والعصور ويظهر ذلك جليا من القرى التي تحتضنها سفوحه الشمالية والجنوبية والمتناثرة فوق الربا بين شعابه باحتوائها لمآثر تاريخية ومعالم طبونيمية .ولعل قرية تاعرعارت خير شاهد على هذا الحضور المتميز والقوي لوجودها في قلب الجبل وقربها من الفجاج والمسالك المؤدية إلى تافيلالت وقصور اوطاط وأعالي ملوية.وفي هذا البحث المتواضع سنحاول قدر المستطاع العمل لإنارة زوايا مظلمة من تاريخ هذه القرية المنسية بين الشعاب رغم تاريخها المجيد والمتجذر في أعماق التاريخ..

لقد اقتصرت الدراسات التاريخية الحديثة على دراسة حياة السلاطين و الأعلام التاريخية.وتناول الجوانب الاجتماعية والاقتصادية لمجالات شاسعة خلال حقب طويلة .وانصبت على دراسة المدن

وأحوزها وتم اهما ل المناطق النائية من المغرب العميق رغم أنها سجلت حضورا قويا في جل الأحداث والوقائع التي عرفها المغرب خلال العصر الوسيط والحديث . وإجابة على هذه المعضلة المنهجية في تاريخ المغرب ولتجاوز العقبات القائمة في وجه المؤرخين ظهر البحث المجهري التاريخي(micro-histoir).في شكل دراسات منوغرافية .في اطار منحى جديد في البحث التاريخي المحلي للوحدات الإقليمية(1.)بقناعة مفادها ان كتابة تاريخ شمولي ينطلق من تناول تاريخ الوحدات المحلية .وبعبارة أوضح ضرورة الانطلاق من الجزء الى الكل.وقد دشن هذا المنهج في الدراسات التاريخية منذ مطلع الستينات من القرن الماضي من قبل أحد أعلام الفكر المغربي المعاصر المؤرخ والعالم المغربي محمد المختار السوسي في كتابه "سوس العالمة "وايليغ" وغيرها من المؤلفات النفيسة التي خلفها رحمه الله.وسيرا على هذا النهج ارتأينا في بحثنا البسيط التأريخ لقرية تاعرعارت التي احتضنت مقابرها رموس أجدادنا ورفات العلماء والفقهاء وأجداث العامة والمجاهدين.والفكرة العامة والمحورية التي ينبغي الانطلاق منها أن تاريخ جبل العياشي ومشاهده من وقائع وأحداث لاينفصل عن القرية المعنية. وللبحث في تاريخ الجبل من الضروري البدء من تاعرعارت لأن قراءة تاريخ البلدة ليس مجرد ضرورة علمية منهجية تستوجبها المقاربة المونوغرافية المعتمدة في هذا البحث وإنما اعتبارها جوهر الأحداث نظرا لوجودها في قلب الجبل.

*التعريف بقرية تاعرعارت: تقع بين شعاب جبل العياشي بمنابع واد ملوية على علو يناهز 2300م فوق سطح البحر تنتمي إداريا لجماعة "أكديم" قيادة تونفيت بإقليم ميدلت وتنقسم إلى شطرين يفصل بينهما "واد تيسار" أيت عياش" القسم العتيق من القرية استوطنته قبائل أيت عياش منذ زمن بعيد والقسم الثاني يعرف ب"مندايور"على الضفة اليمنى للواد السالف الذكر وقد استوطنتها قبائل أيت موسى وحدو أواخر القرن19م في أطار نظام"تكورت" لحماية القرية من هجومات أيت يحي القبيلة الطامحة لاستحواذ على مراعي منابع ملوية وزيزانسجاما والعقدة العرفية المنظمة للرعي بين أيت جرهور وأيت عياش تعرعارت حول الانتجاع بين المراعي الصيفية ب"أقا ن تعرعارت"لأيت جرهور والشتوية ب"أسامر ن الغمان" لرعاة تاعرعارت ومع الأسف الشديد تم نسيان المعاهدة ووقع الخلاف وتغيرت الأجيال وكل طرف تشبث بمراعيه صيفا وشتاء وقد نتج هذا التحول في العلاقات اثر التحولات السوسيواقتصادية وغلبت وحدة القصر على الوحدة القبلية . وتتواجد القرية المعنية بالبحث والدراسة بحدود مقسم الماء بين ملوية وزيز؛و تفصلها بعض القمم فقط عن القرى والأصقاع الواقعة على السفوح الجنوبية لجبل العياشي بمنابع زيزوتشكل قمة

"افرح" وماوضفود"وازرو"بوعبان" مقسمات مائية بعد ذوبان الثلوج المتهاطلة شتاءا على هذه المرتفعات تتجه كميات منها نحو السفوح الشمالية عبر الانحدارات الشديدة نحو الشعاب لتصب في روافد ملوية وأخرى نحو الجهة الجنوبية وتضاف إلى روافد زيز وبكميات متساوية.وما يميز هذه القرية كونها تحتل النقطة العالية من سفوح العياشي أسفل أعلى قمة "تدرارت المعروفة ب"تكونت"الدائمة البياض . بفعل الثلوج التي تسقط عليها بكثافة.

*تاعرعارت البحث في أصل التسمية:بتأمل أسماء القصور بالأطلس الكبير الشرقي ؛مع القيام بدراسة تفكيكية ؛تحليلية وطوبونيمية لجذور التسمية نستنبط أنها تختزل في محددات رئيسية تحكمها عوامل تاريخية؛ ؛جغرافية؛ طبيعية واثنيه.ونجد جل التسميات تعود في أصلها الي اسم قبيلة (أيت علي ويكو؛ ايت يعقوب.....)أو مصدر مائي (تطيوين....بوتغبالوت.....)أو نسبة الى ضريح مشهور(زاوية سيدي حمزة؛موش قلال.....)أوموقع القصر بالنسبة للشمس حسب الشميس والظليل(تسامرت؛ تما لوت......)أو انطلاقا من موقعها بين الأودية (أموكر؛ تكرسيفت.....)وإما وجودها في الخوانق والمضايق والفجج الجبلية(توغاش؛تاغيا....)وأقدم نقطة عمرانية (قصر أقديم...)ويلاحظ أيضا أن بعض القصور تستمد اسمها من الغطاء النباتي السائد (تزارين....).بعد هذه التوطئة الوجيزة ما.ذا تعني لفظة تاعرعارت؟و أي من المحددات اكتسبت القرية الاسم؟

إن كلمة تعرعارت هي تأنيث أمازيغي لأعر عار (توالت ؛ووال بالأمازيغية).وإذا تمعنا في اللفظة نجدها متداولة بالاسمين الأمازيغي والعربي بالأطلس الكبير الشرقي والعرعار شجرة متوسطية معمرة من فصيلة السرويات دائمة الاخضرار وذات الأوراق المستديمة .وهي أنواع كثيرة منها العرعار ينتج حبات حمراء شبيهة بالنبق وهو السائد بجبل العياشي ومنها يصنع عصير" الرب" شبيه بالعسل شديد المرارة ويعتبر الدواء الفعال لعلاج عدة أمراض خاصة الروماتيزم. ويشكل هذا النوع مأوى أساسي لنوع لطيور سوداء اللون بريش أبيض حول العنق والصدر(ابرطال بالأمازيغية). تفرخ في الصحراء حيث النخيل ومع بداية الخريف بعد جني التمر وخلو الأشجار من حباتها؛ تهاجر هذه الطيور نحو الأطلس الكبير الشرقي خاصة الى غابات العياشي بداية فصل الشتاء موسم نضج الحبات الحمراء للعرعار.والصنف الآخر يثمر حبوب صغيرة خضراء ويسمي محليا بأعرعاروالنوع الثالث الموجود بالمنطقة يتميز بأوراق حادة وشوكية على شكل سيوف يسمي "تاقا"ومنه يستخرج" القطران""أودي ن الغمان" المادة الأساسية المستعملة قديما لتنظيف

القرب والأوعية المعدة لجلب وتخزين المياه (أيديد بالأمازيغية) ويتم تحضيره بإشعال لهيب نار قوية على الأغصان الخضراء لهذه الشجرة في أفران خاصة تعرف محلياب"تفيروت" كما يوظف القطران حاليا في الأواني الفخارية بهدف أعطاء مذاق جيد للماء . ومن خلال قصيدة لمحمد بن احمد بن ابي بكر العياشي نجد بيتا يلخص نوعية الغطاء النباتي السائد بأحوازالقرية الحاضنة للزاوية العياشية وبكلمات أمازيغية معبرة جد"ا-2-".ونعلم إن المحيط والارتفاع يؤثران على المناخ ومن ثمة على الغطاء النباتي ويظهر التشجير متفاوت الكثافة بين القمم والمنحدرات المطلة في الغالب على الأودية .في النقط الجبلية المتوسطة العلو البالغ حوال1500م حسب معطيات مصالح المياه والغابات فان شجر العرعار ينمو بكثرة على هذا النوع من السفوح .يضم جبل العياشي غابات كثيفة من العرعار بكل أصنافه وفي العقود الأخيرة من القرن الماضي اضمحلت هذه الشجرة الى درجة الانقراض نتيجة عوامل بشرية . فقد كان المادة الأساسية المعتمدة لسقف القري والقصور بالأطلس الكبير الشرقي والقبلة حيث كانت العديد من الأضرحة والمساجد بسجلماسة مسقوفة بالعرعار لأن خشبه صلب ومقاوم للتأثيرات المناخية من الحرارة والرطوبة. .والرواية الشفوية المتواترة بين الأجيال تؤكد بان الموقع الذي تأسست عليه القرية يضم دوحة من العرعار كبيرة الحجم يشكل ظلها الوارف لقاء و مترل الظواعن والمسافرين من القوافل عبر الطريق الرابطة بين تادلة وسجلماسة مارا بالند وزاوية سيدي حمزة وكانت شجرة مقدسة يحترمها الجميع الى أن تم قطعها من طرف أحد الرعاة من جروان فكان مصير القبيلة هوا لهلاك نتيجة عاصفة ثلجية دامت أربعين يوما بدون توقف.وكان مصيرهم الإجلاء من المنطقة-3- .وبإجراء معاينة ميدانية يتبين أن الجبل الذي تقع القرية في سفحه أجرد صخري.خال من الغابة وقليل التشجير؛باستثناء شجيرات عرعار منتشرة بين الشعاب القريبة. لهذا فان تسمية القرية بتعرعارت راجع الى هذه الصنف من الغطاء الغابوي الذي يكسو سفوح العياشي المتوسطة الارتفاع.ولايمكن بتاتا دراسة تاريخ قرية وبقعة من الأصقاع بالمنطقة .بمعزل عن العياشي وتد من أوتاد المنابع والأنهار بالمغرب.

*جبل العياشي :يرتبط تاريخ هذا الجبل بالقرى المتواجدة بين شعابه مثل تاعرعارت ؛الند ؛ أفراسكو ؛ ايت يعثوب ؛تازروفت.؛تاوراوت......والمصادر التاريخية تشير في تناولها للقبائل في إطار صراعها مع السلطة ومادام أن جل المؤرخين كتبوا تاريخ المغرب الوسيط والحديث بين أسوار البلاطات السلطانية فان الكثير منهم يصف جبل العياشي بالحصن المتين للكثير من القبائل لاسيما ايت يدراسن بكل فصائلها وجروان وغيرهم.والاسطوغرافية التقليدية غنية بعبارات تؤيد هذا

الاستنباط. وتاريخ هذه القصور يختزل تاريخ جبل العياشي .كان يسمى قديما والى يومنا هذا ب"تدرارت " من طرف الساكنة المحلية للجبل .ويعرف عند الغير ب"عاري وعياش"بالأمازيغية وجبل العياشي بالعربية.وبالعودة الى الطوبونيمية فان أ"درار" هي اللفظة الأمازيغية المرادفة للجبل بالعربية الفصحى والدليل التسمية القديمة للجبل.لكن الفصائل الصنهاجية تطلق كلمة" عاري " على الشاهق من الجبال.وبتمعن في كلمة"عاري" اما أنها مشتقة من العلو أي"عالي" حيث أن الكثير من القبائل الصنهاجية تنطق اللام راءا.واحتمال ثاني فالقمم الباسقة من الجبال تكون عارية بدون الغابات الكثيفة والأجمات المخيفة نتيجة البرودة الشديدة التي تميزها فتكون غير ملائمة لنمو الأشجار وتكون مجالا ملائما لنباتات شوكية. فإذا كانت "تدرارت"هي التسمية الداخلية للجبل فان التسمية الخارجية تعود في بدايتها الأولى إلى القرن 16م عندما استقرت قبائل بني معقل العربية بزيز الأوسط وكانت تحمي القوافل التجارية بين فاس وسجلماسة. بينما كانت قبائل أيت يدراسن تغير عليها من حين لآخر .وتظهر التسمية الجديدة للجبل من خلال المصادر التاريخية الحديثة عندما تحديد الجبل بمثابة الحد الفاصل بين العلويين والدلائيين بعد معركة القاعة حيث انبرم الصلح بينهما على أن ماحازت الصحراء إلى جبل بني عياش فهو للمولى محمد ومادون ذلك إلى ناحية الغرب فهو لأهل الدلاء -3-كما تذكر المصادر التاريخية وعممت التسمية الخارجية بدل الداخلية بعد تأسيس الزاوية الحمزاوية بالمنطقة المنسوبة إلى ابن العالم الكبير والرحالة المشهور ابو سالم العياشي .ونرجح كون الجبل ينسب الى قبيلة ايت عياش التي استوطنت سفوحه الجنوبية والشمالية منذ عهود غابرة.وليس الى"تعياشت" كما ورد عند بعض الباحثين-4-. ومع مرور الزمن غلبت التسمية الثانية على الأولى خصوصا مع مجيء الاستعمار الفرنسي الذي وضع الخرائط الطبوغرافية للمغرب فتم تغيير الكثير من المعالم الطوبونيمية وطمس الرموز الثقافية والهوياتية للساكنة لهذا فان تعريب جغرافية المغرب إساءة لتاريخ البلد. .وبالعودة إلى كتب الرحلات سراجنا بين أنفاق الماضي القاتم.من منافذها تتسرب خيوطا مضيئة عبارة عن بصيص من الأشعة تنير أنفاق التاريخ البعيد لقرية تاعرعارت موضوع دراستنا .فالإشارات الواردة من خلالها إذا استحسن استغلالها سوف تساهم في تبديد غياهب العتمة الجاثم حول ثنايا تاريخ جبل العياشي وكل القرى الواقعة بين سفوحه وتلال شعابه ؛ بمنابع ملوية وزيز.

يعرف الأطلس الكبير قديما بجبل" درن" الجبل الحي بالعربية.ولاغرو فقد كان رمز للحياة لما يزخر به من عيون لاتنضب وجداول مائية متدفقة بين شعابه وأنهار جارية .فهو فضاء المياه

والخيرات والثروات لما يحتويه من فواكه وأشجار مثمرة ومعادن نفيسة ويقصده السكان كلما اشتدت الأزمات الطبيعية من قحط ومسغبة؛ وبشرية من حروب وفتن فهو الحصن المتين خلال فترات انعدام الأمن وسيادة الفوضى والقلاقل. ونجد تسميات السلاسل الجبلية الأخرى قد اختفت رغم أنها أعلام أصلية تحمل بين طياتها رموز ثقافية ولسانية تشكل مفاتح أساسية لحل ألغاز تاريخ "بلاد تيموزغا" المنسي.فالأطلس المتوسط يعرف ب"فزاز".ونجد أن "أفزا"وتفزا" تعني الصخر الشديد الصلابة .و الأطلس الصغير يعرف حاليا"الهقار" أو الهكار.وهو تحريف لفظي لكلمة"أهقار" الغراب بالعربية .والى يومنا هذا نجد أسراب من الغربان تحتل الأجراف العالية والصخور الشاهقة للجبال المكونة من الصخور الكارستية البيئة الملائمة لهذا النوع من الطيور خاصة الواقعة على مشارف الواحات حيث وجود التمر الغذاء الرئيسي للغربان حيت يختزن منها كميات مهمة في كهوف ومغارات الجبال المحصنة.وفي الجزائر نجد جبال"لأوراس"مقر الملكة الأمازيغية"تهيآ".والجذر اللساني للفظة هي" أوراس".كلمة أمازيغية تعني "البني" المائل الى الحمرة؛لون الصخور المكونة لهذه السلاسل الشبيه لصنف من الخيول .-5- وهذه مجمل التسميات المعروفة قديما .وتم تغيير الألفاظ وقلب المعاني للأعلام المكانية سيما مع تطاول الأزمان وتبدل الأحوال والتركبة القبلية القاطنة للمجال.ونفس الوضع ينطبق على جبل العياشي والقرى التي يحتضنها بين فجاجه.

أمام غياب المصادر وشحة المعلومات التاريخية حول المناطق النائية والبعيدة من المغرب العميق .من الواجب على الباحث الحاذق تسخير بذكاء وحزم كل الإمكانيات المتاحة لاستخراج المادة الأولية من جميع الإشارات المباشرة والغير المباشرة قصد إزاحة الستار وكشف النقاب ونفط الغبار عن الماضي البعيد لقرى الأعالي؛ مثل قرية تاعرعارت المعنية بالبحث والتنقيب.

رغم وجود بعض المكتبات الخاصة عند بعض العائلات الفقهية المتأصلة بالبلدة فالاستفادة منها أمر مستحيل لاعتبارات عدة.فالرواية الشفوية وبعض الإشارات النادرة بين دفة بعض كتب المناقب والتراجم .إضافة إلى بعض الأعلام من أسماء الأضرحة والأمكنة وهي في الغالب ذات دلالات عيمقة.وتشكل هذه الأسماء رصيدا تاريخيا ينبغي دراسته بطرق علمية واعتماد مقاربات وأحدث القواعد العلمية في العلوم الإنسانية من سيميولوجية واللسانيات لفك رموز وألغاز وطلاسم هذه المعلمات الطبونيمية التي تعود إلى أزمنة غابرة.وكل الشعاب والربا والممرات بالمنطقة تكتتر ماض

تاريخي عريق؛ وتختزن بين ثنايا صخورها أحداثا لعبت أدوار حاسمة في تاريخ المغرب الوسيط والحديث على أبعد تقدير.

*تاريخ تاعرعارت من خلال الأعلام :

تاوريرت ن وعيرم: وبالعربية تعني كدية أو ربوة" اوعيرم " رغم إن الترجمة لاتفيد في شيء إلا لتقريب معنى اللفظة لغير الناطقين الأمازيغية.تقع على الجهة اليمنى لواد"تسيار" . وتشرف على" أغروض" القرية الجديدة بتعرعارت والتي استقرت بها أسر غادرت منازلها القديمة بكل من "منديور" وأيت عياش استجابة للتحولات الاجتماعية والاقتصادية الطارئة على كل قرى الأطلس الكبير الشرقي. . فمن هو اوعيرم؟تروي الرواية الشفوية أن وعيرم كان قائدا لعبد المؤمن بن على الكومي.وتحتوي على بقايا عمران مندرس .وقد عثر من بين هذه الأطلال على عدة أجزاء من ألأرحية ا لحجرية المستعملة قديما لطحن الحبوب وإعداد الدقيق. هذه شواهد تاريخية تؤ كد إن الربوة المعنية كان حصنا قديما. سمي الوادي الذي يشرف عليه "تيسار" نسبة إلى المطاحن المائية الموجودة بكثرة على ضفافه-7-.ولا تستعمل اليدوية منها إلا في فترات الحروب واشتداد الحصار .وتحرص القبائل على تمتين بناء مخازن الحبوب وإحضار اللازم والوافر من الأرحية الحجرية استعدادا لكل الطوارئ حيث تتوزع الأدوار الرجل للحراسة وجلب الماء والنساء تهيئ المؤن. وبالعودة إلى أهم المصادر التاريخية التي تناولت غزوات عبد المؤمن بن علي نقف على بوثيقات نور يتسرب منها بصيص أمل يكاد يزكي المتداول بين الأجيال عبر الرواية الشفوية.في غزوته الشهيرة التي امتدت سبع سنين(534ه-541ه).كان خروجه من تينمل عن طريق الجبل وهو ينتقل بين الجبال في سعة من الفواكه للأكل والحطب للدفء. وخرج تشافين بن علي في أتباعه من مراكش على طريق السهل -6- فالخطة العسكرية اللوجيستيكية المتبعة من قبل عبد المؤمن بن على لإخضاع الجهات المغربية ناجحة وساهمت إلى جانب ظروف أخرى في تسهيل وتسريع توحيد المغرب الكبير.وجعل من الجبال منطلق ومسلك غزوته و ضمن الأولويات في عملياته الحربية ؛ باحتوائها للكثير من الحصون وصعوبة مسالكها لإبعاد الخصوم والأعداء الملثمين من القلاع والمعاقل .ولاشك أن الأطلس الكبير قد نال نصيبه في هذه الغزوة الطويلة المدى.وتذكر المصادر التاريخية التي ألفها "أبو علي الصنهاجي"المعروف بالبيدق الرفيق المخلص والصديق الحميم لعبد المؤمن بن علي مسجلا الأحداث والوقائع التاريخية لغزوات هذا الأخير مشيرا بأن الخليفة جند عمر بن ميمون وخرج لتازروفت ن يملوان فقتلهم في موضع يقال له تيفسرت وساق غنائهم

ونساؤهم إلى تادلة وشفع أبو بكر بن الجبر عند الخليفة في نسائهم و لم يبعن-7-.وبإجراء معاينة ميدانية نجد بقصر تازروفت والغير البعيد عن تاعرعارت بقايا حصن قديم على قمة جبل بسفوح العياشي يضم أطلال مبنية بالحجر والطين تعرف محليا بعبد المومن.وبمقاربة تقييد البيدق باسم هذه المعلمة الطوبونيمية.يتبين من خلال هذه الإشارة إن جيوش الخليفة الموحدي الذي اكتسح كل الأصقاع المغربية قد وصلت إلى المنطقة . لكن طول المدة وعدم معرفة الكاتب لأعلام الأماكن بدقة يجعل الغموض يكتنف الحدود الجغرافية للمناطق التي يسجلها.ومن المحتمل ان المقصود بتازروفت ن يملوان لايقتصر على القرية الحالية المتواجدة بمنابع زيز؛وانما يشمل جميع القرى التي تحتضنها السفوح الجنوبية والشمالية لجبل العياشي.وقد ورد في نفس الكتاب بأن جيش الموحدين قتل من صنهاجة وجراوة ألفا في موضع يسمى بالعمري-10-بينما دفع جريدة أخرى الى تادلة لعمر بن ميمون وعبدا لله بن داوود الجراوي ومحمد بن تفاوت وسليمان بن تيزنكاط وقتلوا منهم خمسمائة في موضع يقال له"نظير" .وهل للمكان علاقة بقبيلة أيت نظير؛وكما هو معلوم فان أبي وكيل المسعودي الولي المقدس عند القبيلة قد وصل إلى زيز سنة 537ه وهو الذي شفع للقبيلة من بطش جيوش عبد المؤمن بنعلي لأنه كان مرافق له في غزوته الطويلة . تتفق المصادر بكونها قد استقرت بأعالي زيز وغريس منذ القرن12م- -8- ذكر أبو علي الصنهاجي بعد العودة من تدغا وأسامرنايت اسنان ترك بها بن وطبيب ثم منها راجعين لموضع يقال تيزي نتلغمت ثم منه إلى موضع يقال له زيز وهو ليحيا بن محمد-9- .والحقائق التاريخية المستنبطة من هذه الإشارات ان الجيوش الموحدية قد وصلت الى فحج ومسالك وقمم جبل العياشي الذي يحتضن القرية المعنية لهذا فالرواية الشفوية بعد تمحيصها وإزالة التعميم المميز لفصولها صحيحة بدعم من الأحداث المذكورة في الاسطوغرافية القديمة التي تطرقت الى غزوات الموحدين وهذا يفيدنا بكون القرية حاضرة في الوقائع التاريخية منذ العصر الموحدي. ولاغرو فالخليفة من الممكن جدا أن يعين قائدا له بالمنطقة لحساسيتها باعتبار جل القبائل التي قتل فيها تلك الأعداد بالرغم من المبالغة في الأرقام تبين بأنها قاومت الجيوش الموحدية بقوة وعنف.ومن المسلمات البديهية كون القبائل الصنهاجية المستقرة بهذه الناحية من المغرب بمثابة العمود الفقري للدولة المرابطية. ولا ريب أن تكون من بين القبائل التي تعرضت لعملية التمييز أسلوب الموحدين في إبادة الأعداء وقمع الخصوم.ورغم أن المصادر لم تشير الى اسم اوعيرم. من المرجح أن يكون شخصية مخلصة لعبد المؤمن بن علي

فخلفه بالمنطقة إحدى بؤر التوتر المخيفة للموحدين.ونفس النهج اعتمده في جميع الأنحاء المشمولة بالغزو الموحدي.

*أقا ن تعرعارت: شعبة تاعرعارت: عبارة عن مروج ومراعي صيفية غنية بالعشب والكلأ..يبدأ الرعي فيها انطلاقا من شهر مايو إلى حدود منتصف شتنبر حيث موسم الترحال نحو المراعي الأكثر دفئا. والذاكرة الجماعية بالقرية تحتفظ بروايات مهمة حول الماضي المجيد لهذه البقعة التي تحتضن في القرون الماضية عددا من الخيام ؛وتستقطب العشرات من التجار"أعطار"القاصدين لها محملين بالسلع الأكثر تداولا بين الساكنة خاصة الملابس ووسائل الزينة للنساء مثل تازولت(الكحل) والحناء وغيرها من مواد التجميل.ويتم الاحتفال بيوم العنصرة في أجواء تملأها السعادة والفرح بإقامة رقصات أحيدوس وتنظيم الشعر؛والمناسبة تشكل فرصة للتعارف بين الشباب المقبلين على الزواج.وخلال شهر غشت تنعقد الأعراس .وتحتوي المنطقة على مقابر قديمة تضم أجداث لعدة أولياء مثل" سيدي وأعياد"و"لآلا مرزوقة".وهذا يؤكد بأن المنطقة تعاقبت عليها هجرات بشرية ومكونات أثنية عبر التاريخ. ولايمكن فهم تاريخ أقا نتعرعارت إلا بعلم أخر يرتبط به ويشكل في نفس الوقت جزء منه.

*تداوت ن وودي:تل السمن بالعربية .المكان المخصص لتنصيب الخيام .وبوفرة العشب الجيد والماء تدر ضرع الأنعام وديانا من اللبن بينما يجمع السمن في أواني فخارية وخزفية لأيام الشدة لمقاومة قساوة ومسغبة الشتاء.ولكثرة مايجمع منه سمي المكان بالسمن تيمنا بالخيرات واعترافا بالجميل للمكان .وشكل معلمة تاريخية مفيدة لتأريخ للقرية لما تحتويه من معلومات وحقائق تاريخية بإمكانها تسليط أضواء كاشفة على غياهب ا لدجى المكتنف على المنطقة.نظرا للأهمية الرعوية للمنطقة فقد كانت محل الصراعات القبلية ومحطة انتجاع الكثير من الاثنيات والاتحاديات القبلية مثل أيت يدراسن الحاضرة بقوة في المجال منذق12م .والى يومنا فبعض فصائل الاتحادية تقطن بسفوح العياشي.

*سيدي أمحمد ن تعرعارت أو سيدي الشيخ.أحد الأولياء المشهورين بالقرية والمبجلين من قبل الساكنة.هاجر إلى القرية بعد معركة بطن الرومان النقطة الحاسمة في تاريخ المغرب.والتي غيرت مسار تاريخ البلاد حيث اندحار القوى الصنهاجية والقبائل المتحالفة حول السلطة الدلائية.وفي نفس الوقت حسم السلطان الرشيد الأمر فكان القضاء على الدلائيين المفتاح السحري الممهد لتوحيد المغرب بعد الصراع القوي بين قوى جهوية وإمارات محلية.لما استولى الرشيد على الزاوية

أخرج من كان فيها من السكان وأجلاهم عنها فرجع العلماء والطلبة والتجار إلى مساقط رؤوسهم وتفرقوا في جبال الأطلس وعلى ضفاف ملوية 10--.وقد لجأ العديد من العلماء والفقهاء إلى جبل العياشي لحصانة قصور سفوحه وعودة القبائل المنضوية تحت صفوفها نحو تاعرعارت .وقد استوطن بالقرية سيدي محمد المعروف سيدي الشيخ وقد اتفقت الرواية الشفوية بأنه أقسم على البحث عن مكان تغيب فيه سلطة المخزن فوجد بالقرية هذا المبتغى وتحتفظ الرواية الشفوية والذاكرة الجماعية على عدة مناقب من سيرة هذا الولي. رفقة صديقه سيدي أحمد أبو الطيب أحد العلماء سليل زاوية سيدي الغازي بالريصاني الذي هاجر صحبة أخويه إلى الزاوية الدلائية أيام إشعاعها العلمي والفكري والسياسي ليتولى مهمة التدريس بها .وبعد النكبة توجه إلى تاعرعارت ودفن بالمقبرة القديمة إلى جانب رفيقه سيدي الشيخ-11-.

*"تاركا ن الشيخ": معلمة تاريخية بقرية تاعرعارت وهي ساقية لتحويل كمية مهمة من الماء من واد تيسار نحو مزرعة الجهة الشرقية من شطر أيت عياش وتقريب المياة إلى الساكنة.وقد ارتبط اسم الساقية بالولي الصالح سيدي "محمد ن تعرعارت أو سيدي الشيخ" وسميت باسمه إلى يومنا هذا لأنه خطط بأسلوب هندسي رائع تحديد المجرى المائي للساقية في موضع يستحيل حسب طبوغرافية المجال ونسبة علو المكان إن تمر عبره المياه التي تتجه عادة نحو المنحدرات من السفوح والشعاب.وببراعة هندسية تبين ذكاء هذا الشيخ تمكن من توصيل المياه قريبا من المنازل بالقرية. وأهل تاعرعارت يعتبرون تحويل مجرى الماء من المنحدر نحو العلو كرامة من كرمات الشيخ العديدة.

*الحفير:كلمة عربية وتعني الخندق العميق.وسيلة حربية لمنع العدو من الولوج إلى الحصون بحفر متاريس لإعاقة والإحالة دون وصول الفرسان إلى المعاقل المتينة .وهذه المعلمة الطوبونيمية الواقعة بغرب تاعرعارت في الطريق المستوية المؤدية إلى"ماسو"القرية المجاورة.تحمل دلالة تاريخية فقد كانت الناحية الغربية للقرية الجهة الأكثر خطورة على الحصن منذ أقدم العصور باعتبارها المنفذ الوحيد للخيل لوعورة المسالك بباقي الجهات.مما جعل الساكنة تعتمد حفيرا دائما لضمان الأمن والاستقرار بتعرعارت.

*مندايور. كلمة مركبة من كلمتين أمازيغيتين.لفظة مندا أيور والأصل الغوي فيها "منيد" ن"وايور".وتعني الربوة المقابلة للهلال.وهي ربوة على الضفة اليمنى لواد "تيسار"هبوطا. و كانت في القديم ربوة مستوية بالجهة الغربية يتم مراقبة الهلال من خلالها من طرف أعيان وعلماء وفقهاء

القرية.وابتداءا من أواخر القرن19م استقرت بها قبائل أيت موسى وحدو مع معاهدة الحماية "تكورت" الموقعة بين أهل القرية والقبيلة المجاورة بالسفح الجنوبي للعياشي.بإسكان حوالي ثلاثون محاربا مستقرا لحماية أيت عياش من غارات القبائل المهددة والطامحة للاستيلاء على المراعي المهمة المتواجدة شرق تاعرعارت والتي تم الإشارة إليها سالفا.

*"أماز ير" ن "وكرا": حظيرة الجرواني بالعربية.وأما زير باللغة الأمازيغية لفظة من المعجم الرعوي الغني بالكلمات ذات مدلولات كثيرة والتي تحمل رموز ثقافية وأنتربولوجية وسوسيولوجية.وتعني الحظيرة المخصصة للأنعام من الغنم والماعز في سفح جبل مصنوعة من الأحجار وبعض أغصان الأشجار وفوقها الخيمة وكوخ للحراسة ينام فيه الراعي وتحرصه كلاب مدربة لاتكف عن النباح طوال الليل كلما أحست بخطر محدق من البشر والحيوان. وقد كان "أماز ير" إحدى المراحل الحاسمة في النظام الرعوي إذ ارتبط ببداية تدجين الحيوانات وانتقال البشرية حسب أنماط الإنتاج من المشاعة البدائية نحو الشكل الأول للملكية الخاصة لوسائل الإنتاج.ومن الترجال إلى بوادر الاستقرار.

أكرا وتعني الجر واني وهذه المعلمة المكانية تؤكد الإشارات الواردة في بعض المصادر التاريخية بكون قبيلة"جروان استقرت بجبل العياشي ردحا من الزمن بعد معركة "زيان"المشهورة بعد هروبها من الإبادة الجماعية التي استهدفتها من طرف المخزن بعد الواقعة الحربية السالفة الذكر.

ومن نافلة القول فان التعريف بمعالم وأعلام القرى النائية في الأعالي والشواهق من الجبال بجبل العياشي وغيره من المد اشر النائية والمعزولة بين الشعاب ؛مسألة أساسية ومادة خامة للتأريخ للمغرب العميق. من أجل إنصافه في الماضي والحاضر.. وهذه مقدمة ضرورية لتنمية المنطقة بتشجيع السياحة التاريخية والايكولوجية؛بإبراز المآثر التاريخية .والمزارات الطبيعية والجيولوجية التي تزخر بها سفوح وقمم جبل العياشي مثل "مغارات جعفر" وبحيرات قمة العياشي المعروفة محليا "بتيجان". مع تشجيع البحث والتنقيب الأركولوجي لبلوغ حقائق تاريخية تشكل حلول علمية للكثير من الألغاز المعتمة في صيرورة التاريخ المغربي . وقد حاولنا في هذه الأوراق تقريب تاريخ قرية تاعرعارت من خلال أسماء الأعلام. وبمزج الرواية الشفوية بالشذرات القليلة التي توقفنا عليها على متون بعض كتب الاسطوغرافية التقليدية . وفي غياب المادة المصدرية التي يمكن اعتمادها لاشك أن علم الآثار كمين بكشف النقاب عن الجوانب المظلمة والمنسية من تاريخ القرية المعنية بالدراسة وغيرها من القرى المتناثرة فوق الربا بجبل العياشي.ولا ندعي أننا بلغنا المراد وأصبنا

الهدف وإنما المحاولة كانت بالأساس إثارة الانتباه؛وتسجيل العناوين . أملنا في شباب القرية من الطلبة والمهتمين للعمل على تنوير الزوايا المظلمة وتسليط الأضواء على الجوانب القاتمة .وإلقاء ومضات كاشفة حول الفترات المعتمة من تاريخ المنطقة المنسي والمهمل.ولكتابة تاريخ شامل لجبل العياشي ينبغي الانطلاق من القيام بدراسات تاريخية تهم كل القرى والقصور والمد اشر المتواجدة بسفوحه الشمالية والجنوبية على حد سواء. واليد في اليد لتحقيق هذه الغاية النبيلة.

المصادر والمراجع:

1-أحمد عبد اللوي علوي .مدغرة واد زيز:إسهام في دراسة المجتمع الو احي خلال العصر الحديث.الجزء الأول .

2-قصيدة لأحد علماء الزاوية العياشية منظمة بعربية ممزوجة بالأمازيغية.وأشار في أحد الأبيات.

أجنتكم جبالكم وثلوجها *** أوجطم تلفقن أعز عشوبنا.

غياضكم سنوبر وأعر عر*** والسيدة تقى ومولنا ادرنا .

ومصدر القصيدة مكتبة أخينا وصديقنا وحبيبنا العلامة سيدي عبد الوحيد بنطا لب .ونشكره جزيل الشكر على هذه الهدية الثمينة.

3-أبي العباس أحمد بن خالد الناصري.الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى.طبعة 2010م.دار الكتب العلمية.بيروت.المجلد الثالث.

4-الحسن أيت الفقيه.ملوية العليا وإشكال أسس العلاقة بين الإنسان والأرض .الحوار المتمدن.العدد2013/4253.

5-ألوان الخيل بالأمازيغية.أوراس:خيل لونه بين القهوي والأحمر (قرفي).إلى جانب ألوان أخرى مثل أحدادي: الأبيض.ثم أحمامي :الأسود وغيرها .

6-أحمد بن خالد الناصري.م.س.

7-أبي بكر بن علي الصنهاجي المكنا البيدق.أخبار بن تومرت وبداية دولة الموحدين.دار المنصور للطباعة.طبعة 1971م..

8- المهدي اكنينح. أثار التدخل الأجنبي في المغرب على علاقات المخزن بالقبائل.في القرن التاسع عشر.نموذج قبيلة بني نظير.

9-البيدق.م.س.

10-محمد حجي .الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي.المطبعة الوطنية 1964م.

11- عن الشيوخ المعمرين بقرية تاعرعارت.

*-تيسارجمع تيسيرت وتعني الطاحونة المائية وهي تقنية قديمة لصحن الحبوب وإعداد الدقيق وتتواجد على جوانب أنهار ذات صبيب قوي وعلى مجاري شديدة الانحدار.



ذاكرة مدن



مدينة ترنانة في عيون الرحّالة والجغرافيين



بن عبد المومن ابراهيم
أستاذ مؤقت – قسم التاريخ- جامعة
أبي بكر بلقايد تلمسان

ملخص:

ترصد هذه الدراسة تلك الأسس والمنطلقات ورموز الثقافة المحلية البربرية التي تشكلت منها مدينة ترنانة وضواحيها تحت حكم بني يلول، ووصولا إلى التأثر والتأثير والتثاقف الحاصل بعد الخضوع لحكم الأدارسة والسليمانيين ،واكتسائها الطابع العربي الجديد ولو شكليا في مرحلة أولية من اعتناق البربر الدين الاسلامي ، فمن خلال كتابات الرحالة والمؤرخين والجغرافيين ،نحاول نفض الغبار عن هذه المدينة من خلال ما قيل عن عمرانها وحياتها السياسية والاقتصادية كمادة أولية خام هذا من جهة، ومن جهة أخرى نعتمد على بحوثتنا الميدانية واضطلاعا تنا المتعددة لكثير من الكتب والمصادر والمراجع و كذا سبرنا أغوار الذاكرة الشفوية للساكنة الجبلية والترنانية ، وهي التي تكلّمت عن ترنانة وأساطيرها في عدة مناسبات حبا في المعرفة ، أو تعبيرا منها عن تخوفات تمجد ماضيا خالدا يكاد أن ينسى نهائيا .

الكلمات المفتاحية:

جبالة، ترنانة، بني يلّول، عبد الله الترناني،السليمانيين.

Abstract:
This study monitors the basics and the starting points and the symbols of berber local culture from which tarnana city and its suburbs were,were formed under the rule of « beni illoul » and doun to the vulnerable and winning influence after submitting to the rule of idrissid and sulaymani .

The men arab character in the initial and through writing of travelers and geoghraphse, we attempt to dust off highhight what has been said about this city and its architecture and economics and to a lesser extent its political career as a ram material in one hand and on the other hand, we rely on our field researches and multiple familiarity and knowledge of various sources and references and looking at the oral memory of djbala and tarnanas population, which told about tarnana and its legends on serval occasions thirsty for knowledge or their expression of their expression of their fears for the loss immortal past entered the stage of oblivion.

Key words:
Djebala, tarnana,bni yelloul,abd allah aternani,solaymani

تمهيد:

تطرقت العديد من المصادر وكتب الجغرافيين والرحالة والتراجم للمجالات السياسية والحضارية والمذهبية بحواضر ومدن المغرب الاسلامي بصفة عامة ومدن المغرب الأوسط بصفة خاصة على غرار تلمسان و بجاية و مازونة و قسنطينة...فتحدثت بإسهاب عن أدوارها المنوطة بها وحراكها عبر مرّ العصور والأزمنة ونقلت لنا تواريخ حكم الملوك و أيام الدول المتعاقبة. و لكن ما يجدر بنا الاشارة اليه أن ذلك لم يكن ليتم لولا ذكر نواحيها وبواديها وأحوازها والمدن الصغيرة القريبة منها والتي ساهمت بشكل فعال ولعبت أدورا خطيرة في أكثر من مناسبة في صنع الأحداث من جهة والتحكم في اقتصاديات تلك الحواضر وحركات الهجرة منها وإليها من جهة أخرى.

فبصفة أن هذه المدن الثانوية والتي باتت مهمشة في الدراسات التاريخية الحديثة كانت تتحكم في طرق التجارة ومسالك العبور كانت تنمو فيها بالموازاة مع ذلك مؤسسات اقتصادية صغيرة تساهم في المنتوج المحلي وتصدر منتوجاتها للحواضر الكبرى في مختلف أقطار المغرب كما تعتبر ملاذا لمختلف الحركات المذهبية والأفكار الجديدة التي عادة ما يتلقفها البربر فيتبنونها ويدافعون عنها بحماس. لذلك قمنا بالتطرق لموضوع عيني كهذا فتطرقنا لمدينة "ترنانة" المدينة المنسية، والتي تكلم عنها الجغرافيون والرحالة والمؤرخون في عديد الكتب والتي لم تنل حظها من الدراسة الحديثة حسب علمنا في أي مؤلف سوى بعض الإشارات السريعة إليها هنا وهناك.

1- ترنانة في كتب الرحالة والجغرافيين العرب والمغاربة:

لعل أول من تكلم عن ترنانة هو الجغرافي ابن حوقل في كتابه المسالك والذي ذكرها في الطريق الرابط بين فاس والمسيلة فقال عنها: " ..ومن صاع إلى جراوة أبي العيش، وبينها وبين البحر ستة أميال[i]، وكانت عامرة آهلة مرحلة، ومنها إلى ترنانة مدينة عليها سور وأنهار مطردة وفواكه واسعة عظيمة وكروم جسيمة"[ii].

ثم تكلم عنها بعد ذلك الجغرافي الشهير الإدريسي في كتابه نزهة المشتاق قائلا عنها:".. وبين جراوة والبحر ستة أميال وكانت عامرة، ومنها إلى ترنانة مرحلة وهي قلعة عليها حصن منيع ولها سوق عامرة وبها مياه كثيرة ولها جنّات وكروم.."[iii].

ثم يذكرها بعد ذلك أبو عبيد الله البكري(ت487ه) نقلا عن مومن بن يومر الهواري وهو الذي ذكر ترنانة و المراسي قائلا:".. وبين مرسى ماسِّينْ وتَرْنَانَا عشرة أميال، وهي مدينة مسورة ولها سوق ومسجد جامع وبساتين كثيرة وبينها وبين ندرومة ثمانية اميال، ويسكن مدينة تَرْنَانَا فخذ من بني دمّر يسمون بني يلّول، وكان بها عبد الله التَّرْنَانِي بن إدريس بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وعلى ساحل ترنانا حصن تاونت، وهو حصن منيع في جبل منيف قد أحاط به البحر من ثلاث جهات وله مرتقى وعر من ناحية الشرق لا يطمع فيه أحد، وينزله قبيل من البربر يعرفون ببني منصور وفي جبال الحصن معدن الأثمد و بساتين وشجر كثير يحمل من زبيب تينه إلى ما يليه من النواحي وعلى هذا الساحل أيضا حصن أبي جنون وحصن كاربيوا"[iv].

كما يذكرها صاحب كتاب الاستبصار(ق6ه/12م) قائلا: "مدينة ترنانة، كانت مدينة كبيرة مشهورة على ساحل البحر، وكانت محطّا للسفن ومقصدا لقوافل سجلماسة وغيرها، وكان سكّانها من قبائل البربر ومطّغرة وهم أعدل من هناك من البربر، وعلى هذا السّاحل مدن كثيرة قد خربت وكانت في سالف الأزمان آهلة كثيرة الخصب، مثل مدينة تابحريت.."[v].

كما تطرق إليها المؤرخ التونسي محمد مقديش (ت1813) في مؤلّفه نزهة الأنظار فأعاد نفس النص الذي كتبه الإدريسي حرفيا فقال:".. وبين جراوة والبحر ستة أميال وكانت عامرة، ومنها إلى ترنانة مرحلة وهي قلعة عليها حصن منيع ولها سوق عامرة وبها مياه كثيرة ولها جنّات وكروم.."[vi].

2- ترنانة في كتابات الغربيين:



ومن بين الذين يذكرون ترنانة أيضا المؤرخ والخبير بالدّراسات الإثنية و الشعوب البربرية الفرنسي "روني باصي René Basset والذي قام بعملية مسح شاملة لقبيلة اترارة، فتحدث عن أهم مدنها العتيقة ومساجدها وعلمائها في مهمته الجغرافية والتاريخية التي انتهت في أفريل 1900،فقد ذكر ترنانة على أنها تدخل ضمن "مْسِيفةْ" إحدى فروع بني يلول ،كما ذكر بعض المساجد والأحواش المحيطة بها وهو الذي استعان في ذلك بمصادر كابن خلدون وابن حوقل ،كما ارتكز أيضا على الدراسة التي قامت بها الجمعية الأثرية والجغرافية بوهران حول المنطقة ونشرتها سنة 1887[vii]،فيقول عنها: "هي مدينة عتيقة ذكرها بهذا الاسم ابن حوقل، لها سوق، ونهر، وفواكه بكثرة، وخضرة وروضات، كانت مسورة بحائط، كما كانت مركز إقامة عبد الله التّرناني ابن ادريس ابن محمد ابن سليمان من نسب علي. في وقت أشار البكري إلى انها تقع على عشرة اميال من مرسى ماسين(نمّور= مدينة الغزوات حاليا) تحتوي على سوق، مسجد جامع وعدد كثير من البساتين، كان يسكنها بنو يلّول فرع من قبيلة بني دمر"[viii].

هذه هي تقريبا النصوص الجغرافية الشائعة التي كتبها الرحالة والجغرافيون عن مدينة ترنانة وهي النصوص التي من شأنها أن تعطينا دلائل وإشارات نستنبط منها جوانب مهمة من تاريخ هذه المدينة.

3- أصول الساكنة التّرنانية عبر التاريخ:

من خلال نصّي البكري، نستطيع أن نكتشف وبسرعة النسيج الاجتماعي الغالب الذي كان يشكل ترنانة فيقول أنها مسكونة من طرف بني يلّول فخذ من دمّر، وبها أيضا عبد الله الترناني.

يقدم لنا في هذا الصدد ابن خلدون شرحا مفصلا عن فروع قبيلة زناتة ويذكر بني يلّول من كوميّة[ix] وفروعهم قائلا: "كوميّة وهم المعروفون قديما بططفورة إخوة مطاية و مطّغرة، وهم من ولد فاتن كما قدمنا وهم ثلاثة بطون منها تفرعت شعوبهم وقبائلهم وهي ندرومة صغارة وبنو يلّول فمن ندرومة مفوطة وحرسة ومردة ومصمانة ومراتة، ومن بني يلّول مسيفة ورتيوة وهشبة وهيوارة ووالغة، ومن صغارة ماتيلة وبنو حباسة ،وكان منهم النسابة المشهور ماني بن مصدور بن مريس بن نقوط هذا هو المعروف في كتبهم، وكانت مواطن كوميّة بالمغرب الأوسط لسيف البحر من ناحية أرشكول وتلمسان، وكان لهم كثرة موفورة وشوكة مرهوبة وصاروا من أعظم قبائل

الموحدين لما ظاهروا المصامدة على أمر المهدي وكلمة توحيده، وربما كانوا رهط عبد المؤمن صاحبه وخليفته"[x].

إذن فحسب نص ابن خلدون فبنو يلّول هم من بين الذين شكلوا كومية مع اخوتهم صغارة ومطغرة والفروع الأخرى ومنهم أفخاذ كثيرة ولعل هذا يستوقفنا لكي نشرح بعض المفاهيم:

جبالة: لانعرف تحديدا متى سميت بهذا الاسم ،نعتقد أنه في فترة متأخرة من العصر الوسيط، اصولهم من زناتة وبالضبط من كومية التي عرفت تغييرا في الاسم في فترة متأخرة هي الأخرى فسميت بترارة وهي الكلمة التي تعني "الترارس" ،يرى الباحث "كنال" أن جبالة جاؤوا إلى المنطقة قبل دخول الإسلام تحت قيادة زعيمهم دُريس "ادريس" في 790م[xi]،لكن لا نعتقد أن هذا الاسم كان لشخصية بربرية في الأيام الأولى للإسلام ببلاد المغرب ، فربما تقديس جبالة لإدريس الأول وآل البيت جعلهم ينسبون أنفسهم لهذا الاسم حتى ولو لم يكن هو نفسه ادريس العلوي. وقد عرفت جبالة في فترة بالريف الصغير تيمنا ببلاد الريف بالمغرب الأقصى لكثرة كتاتيبها ومساجدها وعلمائها[xii].تزعمت جبالة كونفيدرالية ترارة بقيادة سيدي عبد الرحمن اليعقوبي سنة 1548م وقاومت الاسبان كما كانت في عراك مستمر مع الاتراك بالمنطقة والذين أثقلوا كواهل الرعية بالضرائب، وتنقسم إلى أربعة فروع: مسيفة- العيون- ماتيلة- زاوية اليعقوبي. وهي تتربع حاليا على مساحة 115 كلم2 .

مسيفة: إحدى أهم وأقوى فروع بني يلول وهي القطب الروحي والعرقي لترنانة وضواحيها، لا زالت لحد الساعة تسمى بهذا الاسم عُمّرت وهُجرت عدة مرات عبر التاريخ، ذكرها ابن خلدون لما تعرض لحملة أبي يعقوب يوسف المريني على تلمسان فقال:".. خرج أبو يعقوب من فاس سنة695ه(=1295م) غازيا إلى تلمسان ومر بوجدة فهدم أسوارها وتغلب على مسيفة والزغاوة (=أو الزغارة ضواحي بوطرق حاليا) وانتهى إلى ندرومة ونازلها أربعين يوما ورماها بالمنجنيق وضيق عليها وامتنعت عليه"[xiii] عُرفت أيضا على أنها مركز علمي بامتياز تخرج منها كبار العلماء من الجزائر والمغرب الأقصى خاصة في الفترة العثمانية، ينتسب اليها العلامة عبد القادر البودخيلي البوتشيشي الذي توفي بتلمسان يوم 03جانفي2012، كانت فيها مساجد وأحواش وبيوتات علم كثيرة ، لعبت دورا كبيرا في فترة الثورة التحريرية بأن تخرج من جامعها العتيق كبار قادة الثورة في المنطقة و هي التي لا زالت قائمة إلى يومنا هذا ، ولطالما عرفت صراعا حادا مع نظيرتها ماتيلة فكان لها قوة وسلطان منذ القدم فالروايات الشعبية تروي أن مسيفة كانوا يدخلون إلى

ماتيلة وبساتينها وجناهّا فيأكلون ويشربون فلا يتعرض لهم أحد، وأهالي ندرومة كانوا يتوسطون لليهود مع أعيان ماتيلة (الحوانت وضواحيها حاليا) ومسيفة لكي يمروا بتجارتهم إلى المغرب مقابل دفع الفدية[xiv]ولا زالت العادات في ندرومة تحتفظ في ذاكرتها بأن بني يلّول هم سادة كل من ندرومة وامسيردة وترارة منذ القدم[xv] .

العيون: إحدى فروع جبالة فهي ومسيفة السالفة الذكر القبيلتان اللتان تنتشر فيهما جموع بني يلول وقصورهم ومصادر قوتهم، المصادر الشفوية في جبالة تقول بان غالبية الأعراق من العيون، وقد تفرقت في جبالة اشتهرت العيون بمساجدها وتعليمها المميّز وكثر بها الطلبة والمسافرون، ويقال انها كانت محطة هامة لاستراحة قوافل التجارة وعابري السبيل خاصة بدشرة دار الناصر كما أن مداشر العيون كانت محاطة بأسوار وفيها أبواب كباب الدّشَرْ مثلا، ولازال جامع العيون شاهدا على فترة تاريخية جد عريقة والذي كان يعتبر الجامع الوحيد الذي كانت تقام فيه صلاة الجمعة من بين جميع مساجد ومصليات فرع العيون.

ماتيلة: من فروع صغارة من كوميّة كما ذكر ابن خلدون قومها يسمّون "زرارة" وهم الذين بنوا مداشر وقرى ماتيلة كالحوانت والحواطة وأولاد العباس وهي القرى المقابلة للبحر بموقع جد استيراتيجي لعبت ماتيلة دورا هاما في تاريخ المنطقة تخرج من كتاتيبها علماء وفقهاء كعائلة منصوري وطالب[xvi].

ترنانة: حاليا انحصرت في قرية صغيرة لا يتجاوز عدد سكانها 500نسمة،تغير نسيجها الاجتماعي كثيرا ومازالت محافظة على طابعها الفلاحي والزراعي/خاصة زراعة الكروم والأشجار المثمرة.

إذن ومما لا شك فيه أن بني يلول هم الذين بنوا مدينة ترنانة ونرجح إلى أنهم قد بنوها قبل الفتح الإسلامي، لأن الإمارات البربرية والزعامات المحلية كانت كثيرة بالمنطقة وعادة ما كانت تتحكم في طرق التجارة وحركة القوافل ، ولعلنا نجهل كثيرا عن تاريخ البربر في ظل تحيز كثير من المؤرخين الغربيين لحضارة الرومان والمبالغة في إشادتهم بحركة الرومنة، ولكن حسب رأي الدكتور عبد الحميد حاجيات أنه إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الرومان والبيزنطيين اقتصروا في بسط سيطرتهم على الموانئ والمدن المحصنة التي كانت تتواجد فيها فئات الأفارقة والروم بموريتانيا القيصرية والطّنجية، فلا يستبعد وجود مواقع أمازيغية في المناطق الجبلية على الخصوص، ومنها تلمسان القديمة (أجادير)، وندرومة التي تقع في سفح جبل تاجرة[xvii].ولذلك فباعتبار أن عرش جبالة هو

منطقة جبلية محظة فقد سكنها بنو يلول منذ القدم وبنوا فيها مدنا كثيرة ودليل ذلك وجود عدد هائل من مقابرهم، فكل المقابر تقريبا مسمّاة باسمهم هناك مثل مقابر:(دار عبد الله، العري، الميار، زورانة، العيون، العجائجة..) وهي كلها مقابر قديمة امتلأت عن آخرها ، فلا زال المثل الشعبي يقول "ذاك الشيء من عهد بني يلّول" دلالة على قدمهم في المنطقة كما ننوه بأنه توجد قوّيرة[xviii] تسمى باسم رجل صالح اسمه "سيدي علي بن يلّول" بالقرب من دشرة أولاد السّي علي كانت تقام عليها وعدة(=محفل فنتازيا) من طرف ثلاث عائلات هي: طالبي، كحيلي، مشماش. وقد وجد أحد أهالي المنطقة[xix] خاتما قديما في مقبرة بني يلّول بمقبرة الميار يعود لفترتهم منذ سنوات لكننا للأسف لم نستطع الوصول إليها.

ولكن صاحب الاستبصار يذكر مطغرة أيضا من ساكنة ترنانة ويسكت في نفس الوقت عن بني يلول، فهو يكتفي بذكرهم على أنهم شعوب عادلة من البربر وفقط، وربما كان ذلك لمعرفته بمطغرة كقبيلة كان لها حكم وتاريخ في المغرب الأقصى في سالف الزمن، فمطّغرة استقروا في جبالة وأسسوا مع الفروع الأخرى كومية وهذا ما يؤكده ابن خلدون عندما يقول أن مطغرة اختلطوا في فترة خمود شوكتهم بكومية فيقول عنهم: "..بعد ذلك ركد ريح مطغرة من بعد ذلك وافترق جمعهم وجرت عليهم أذيالها واندرجوا في عمال البربر الغارمين لهذا العهد بتلول المغرب وصحرائه، فمنهم ما بين فاس وتلمسان أمم يتصلون بكومية ويدخلون حلفهم، واندرجوا من لدن الدعوة الموحدية منهم ورياستهم لولد خليفة كان شيخهم على عهد الموحدين، وبنى لهم حصنا بمواطنهم على ساحل البحر سميّ تاونت"[xx] .

وشعوب مطغرة حاليا تتضمن فروعا عدة في امسيردة وجزءا من السواحلية ،وقد هاجر الكثير منها إلى جبالة واستقروا خاصة في ضواحي ترنانة وذلك على فترات مختلفة، فجاءوا من البخاتة، وآغرم..الخ وملكوا الأراضي واشتغلوا بالفلاحة والزراعة. ولعل جموع بني يلّول ورغم التراعات التي كانت تنشب بينهم وبين إخوقم المطغريين بعض الفترات فإنهم كانوا يشكلون بالنسبة لندرومة السدّ الحامي والدرع الواقي فعنهم يقول الحسن الوزان المعروف بليون الإفريقي(ت ق16م) وهو بصدد ذكر ندرومة ونواحيها :"يمكن أن يعتبر السكان أنفسهم تقريبا أحرارا لكونهم تحت حماية جيرانهم الجبليين، فالملك لا يستطيع أن يحصل على أي خراج من هذه المدينة لأن العمال الذين يوفدهم إليها إنما يقبلهم السكان إذا رضوا عنهم، وإلا رفضوهم وردّوهم على

أعقابهم ومع ذلك فإنهم يرسلون أحيانا إلى الملك هدية بسيطة ليتمكنوا من إدخال سلعهم إلى تلمسان"[(xxi)] ويقول عن جبل مطغرة وأقوامه التي امتزجت مع بني يلول اخوتهم" هذا الجبل شاهق جدا شديد البرودة لكنه كثير السكان، يقع على بعد ستة أميال من ندرومة، وسكانه أشداء لكنهم فقراء إذ لا ينبت في جبالهم حب غير الشعير، لكن فيه أيضا كثير من الخروب وأهل ندرومة متحالفون مع هؤلاء الجبليين يؤازر بعضهم بعضا ضد ملك تلمسان"[(xxii)].

فهذه النصوص توضح لنا القوة التي كانت مشكلة في جبالة خاصة بعد تداخل جموع مطغرة معهم في الفترة الموحدية، فقد شكلت تلك الأحلاف شوكة في حلق ملوك بني زيان خاصة فيما يخض دفع الضرائب والجزية التي كانت تثقل كواهل الرعية، فقبائل جبالة وحضر ندرومة بالرغم من المشاحنات التي كانت بينها في عدة فترات كانت لا زالت ناقمة على عرش بني زيان الذي أطاح بحكم بني عمومتهم وأسلافهم الموحدين.

4- التاريخ السياسيّ والعسكري لترنانة وضواحيها:

عرفت ترنانة وضواحيها حراكا سياسيا منذ القدم كما سبق وأن ذكرنا، فملوكها بني يلّول الأمازيغ المعروفين بقوتهم دخلوا الإسلام في أيامه الأولى وكانوا مع الفاتحين ، كما عُرفوا بمحاربتهم حركات الردّة، التي كانت تظهر بين البربر خاصة بعض القبائل في المغرب الأقصى، ولقد أشار ابن خلدون إلى مطغرة إخوة بني يلول والذين عُرفوا بقوة شوكتهم ونشاطهم الحثيث في نشر الإسلام[(xxiii)]،وقد انتقل كثير من أقوام بني يلّول إلى الأندلس ومما لا شك فيه أنّ كثيرين منهم قد بقي هناك، وخاصة وأن معظم البربر الفاتحين ينحدرون من المناطق الشمالية للمغربين الأوسط(الجهة الغربية) والأقصى(الجهة الشرقية).فحكام ترنانة من مسيفة الفرع الأقوى لليلوليين أقاموا القصور والدور ووطدوا نظام حكمهم فحكموا المنطقة قبل دخول الإسلام فكثير هي المقابر في جبالة وضواحي ترنانة غير مقبّلة وتارة غريبة الشكل مثل مقبرة سيدي بيريم (=بيرين)[(xxiv)] في أعالي جبال "آوجيان" والتي وحسب الروايات الشفوية لأهالي المنطقة تعود لبني يلّول ما قبل الاسلام والذين كانوا على الدين اليهودي، وعمروا تلك الجبال ولازالت أسامي القلعة، والحوانت وبقايا منازلهم (في جبال وجيان وطوماي) تعبر عن أسلافهم[(xxv)] وتبقى هذه الأقاويل مجرد كلام ما لم تظهر دلائل صحيحة أو نصوص صريحة تفيد بذلك، وربما علم الآثار هو الوحيد الكفيل بسبر أغوار تاريخهم.

من جهة أخرى توجد قصور بربرية تعود لهم اندثرت وبقيت فقط آثارها هنا وهناك ،والتي كانوا يقومون ببنائها في المراكز الحساسة والاستراتيجية على غرار قصر ملك بني يلّول ،الذي يروى أنه كان قريبا من منطقة باب تازة وبالضبط في أرض بن حمدون حاليا، كما يوجد هناك بئر كانوا يشربون منها و تروي الروايات أيضا انهم كانوا كثيري الأموال والجاه والخيرات والسلاح[xxvi] والذهب، فعديد هي مناطق جبالة التي اكتشفت فيها الكنوز المكونة من الحلي وصناديق (اللّويز)[xxvii] كمناطق مثل: زورانة، ترنانة، تيزاغين.. ويقال أن الكتر الأكبر الذي لا زال مخبئا وتحرسه الجن موجود قرب الحجرة الطويلة في مكان ليس ببعيد عن ضريح الرجل الصالح سيدي علي بن يلّول، والذي حاول الكثيرون استخراجه خاصة أهل السوس من المغرب الأقصى لكن دون جدوى[xxviii]،فبالرغم من الكلام الكثير الذي قيل عنهم والذي يحتمل الخطأ والصواب إلا أنه توجد عدة اشارات تدلّ على أنهم عمّروا المنطقة وحكموها بقوة.

حكم الأدارسة ترنانة بعد الفتوح الإسلامية كما حكموا مناطق أخرى مجاورة لها كجراوة (مدينة في امسيردة حاليا) وتاونت (مدينة في السواحلية حاليا) والعلويين (صبرة)، وأرشكول (رجقون حاليا) وتلمسان، وذلك في عهد ادريس الاول، وكذلك في عهد ابنه ادريس الثاني، ولكن المصادر التاريخية لا تروي عن حروب مع بني يلول لإدخالهم في كنف السلطة الجديدة، فغالبية الروايات تحدثت عن طريقة دخول ادريس الى تلمسان(173ه/790م) بهيبته التي كانت كافية لخضوع محمد بن خزر المغراوي دون قتال و الذي أسرع ببيعة ادريس وطلب الأمان هو ومن معه من قبائل زناتة بالإمامة[xxix] ولكن لا بد من الإشارة إلى انه كان قد مرّ قبل ذلك بمطغرة وجموعهم في نفس السنة ،ومن المؤكد أن الجموع تعني اخوتهم وأقاليمهم وجيرانهم فلا نستثني بني يلول إذن، ثم إن ادريس أقام بتلمسان حوالي ثلاث سنوات لتأمين حدوده الشرقية من خطر الخوارج خاصة القادمة من تيهرت الرستمية، فالروايات تشير إذن إلى أن بني يلول كانوا ضمن ممالك تلمسان، فأكيد لم يعرفوا أية ثورات ولو كانت موجودة لتحدث عنها المؤرخون آنذاك، وبما أن قبائل مغراوة وبني يفرن من أقوى القبائل قد أطاعتا وسلمت الأمور لإدريس وهو الذي أقام بتلمسان إلى غاية (174ه/794م) لما لا يكون بنو يلّول هم أيضا سلموا بحكم ادريس؟ خاصة وأن ابن عذارى المراكشي أشار إلى أن رجوع ادريس إلى تازة من تلمسان قد كلّل بطاعة جميع القبائل هناك والذي يضيف إلى أن الإمارة كملت له في تلك السنة[xxx]، ثم إننا أشرنا انهم

كانوا من أوائل قبائل البربر دخولا في الاسلام ثم لمكانة آل البيت الكبيرة عند البربر الذين سئموا من جور وظلم حكام بني أمية، ثم لو لقيّ ادريس معارضة أو مقاومة من مطغرة وبني يلّول لما وصل إدريس في نفس السنة إلى تلمسان قادما إليها من وليلي في المغرب الأقصى، ولكن هذا لا ينفي بوجود حروب بالمنطقة أبدا سوآءا في هذه الفترة أو بعدها ولعلنا نستدل على ذلك بوجود قرية اسمها حدّادن تابعة لترنانة لا زالت موجودة لحد الساعة تروي الروايات عن انها كانت مصنع حدادة وذلك لصنع الحديد والمعادن الاخرى والأسلحة من سيوف وحراب(xxxi).

بعد وفاة ادريس الأول الذي يروي أهل التاريخ أنه قتل مسموما بزجاجة عطر من طرف هارون الرشيد في القصة المعروفة للشماخ سنة 175ه/792م،بويع ابنه ادريس بعده سنة 188ه/804م والذي اختلفت الأقاويل في طريقة بيعته وطول فترتها والتي ليس هنا مجال ذكرها فقد حكم إلى غاية 213ه/828م تاريخ وفاته، فلا نعرف أيضا من كان بترنانة كوالي عليها أو حاكم لها، فالمصادر سكتت عن ذكر حكام الادارسة الأوائل بالمنطقة وذكرت فقط عبد الله الترناني بن ادريس بن محمد بن سليمان من السليمانيين، ونرجح إلى أن بني يلّول الحكام المحليين ظلوا يحكمون ترنانة إلى فترة متأخرة خاصة وأن الدولة الإدريسية كانت لا تزال مترامية الأطراف تحاول توطيد حكمها وتحارب حركات الردة والخوارج هذا إذا علمنا أن الأدارسة اعتمدوا اللاّمركزية في الحكم ، فحكومتها كسائر الحكومات الإسلامية قضاة وإدارة، ولكن تخلفها حسب المؤرخ الميلي في كونها حكومة لا مركزية فكل عامل من الأدارسة أو العلويين يستقل بإدارة أعماله وجباية الخراج بها وخوض الحروب وإنما يمتاز الإمام بذكر بذكر اسمه في السكة و الخطبة(xxxii)، وقد ولّى ادريس الثاني لبني عمومته من السليمانيين أقاليم المغرب الأوسط، وفي تلك الفترة عرفت ترنانة أرقى عصورها من جميع النواحي ،وذلك حسب ما أوردت نصوص الرحالة والجغرافيين ولكنها تكلمت فقط عن فترة عبد الله الترناني ولم تورد أي حاكم آخر من السليمانيين، ونرى أنها لم تذكر بعد ذلك لا هي ولا حكامها بسبب الأوضاع السياسة التي تردّت وتدهورت خاصت بعد ظهور الدولة الشيعية الفاطمية والصراعات التي حدثت بعد ذلك.

5- ترنانة على عهد السليمانيين:

ترك ادريس الثاني تلمسان وأحوازها لمحمد بن سليمان بن عبد الله الكامل بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، والذي استقر بعين الحوت .بعد وفاته بجبل وهران ترك أبناء



اقتسموا مملكته فترك: أحمد وعيسى وادريس وعلي وابراهيم والحسن وعبيد الله وعبد الله ،فكانت تلمسان لولده ادريس بن محمد، وارشكول لولده عيسى بن محمد، وتنس لولده ابراهيم بن محمد(xxxiii)، وكان بترنانا عبد الله ابن ادريس بن محمد بن سليمان، ولكن رواية التّنسي وابن خلدون تختلف وعنهم نقل الميلي فيقولون ان ادريس كان بجراوة جنوب مليلة شرقي نكور، وتزوج ابن له احمدام بنت صالح بن سعيد(xxxiv)وهي امرأة بربرية ،والله اعلم.

من يتبادر إلينا السؤال التالي، لماذا سمي عبد الله الترناني بهذا اللقب؟ هل لأنه وُلِّيَ على ترنانة أم لأنه يكون قد تزوج زوجة ترنانية من بني يلّول كما فعل أخوه الذي تزوج أحمدام بنت صالح أحد زعماء المنطقة ؟ ومن المعروف أن علاقات المصاهرة كانت كثيرة مع شيوخ القبائل وأعيانها لتوطيد العلاقة وبسط النفوذ؟

لا نملك دلائل قويّة تثبت أو تنفي ما نريد قوله ،ولكن نرجح أن عبد الله حتى لو لقّب بالترناني لأنه حكمها كما لقب أخوه عيسى بالأرشكولي يكون قد تزوج من ترنانة امرأة من بني يلّول للهدف الذي ذكرناه ، وربما يكون قد ترك معها أولادا ولكن لا نعلم اسامي أي أحد فيهم ولا مصيرهم ، ولكن ما نرجحه هو أن يكون عبد الله الترناني دفين ترنانة أو مسيفة القطب العرقي والدّيني ولكن في مكان لسنا بعارفيه تحديدا، ذلك لاعتبارات نحاول تبيينها كالآتي:

ولعلنا نتساءل أيضا مدة الحكم التي حكمها السليمانيون بصفة عامة لترنانة وعبد الله الترناني بصفة خاصة، فلم تحدثنا النصوص الجغرافية ولا التاريخية عن ذلك رغم أهمية المدينة، ونرجع ذلك إلى حركة التدوين والكتابة التي كانت محتشمة نوعا ما خصوصا في الأيام الأولى للدّولة الإدريسية أمام اقبال غالبية البربر على تعلم مبادئ الدين الصحيح والفتاوى الجديدة وانتظار ما هو قادم من المشرق في ظل عدم وجود علماء أكفاء ومفتين خاصة الضّالعين في اللغة العربية وعلومها. وربما من دلائل ذلك استقبال ادريس الأول لعدد لا بأس هائلة من الوافدين من الحجاز والذين عين معظمهم كقادة وأعوان له(xxxv).

فلا نعلم متى ولد عبد الله ومتى توفي وفترة حكمه بالتحديد وماذا حدث بعده ومن كان قبله؟ فبالرغم من أهمية مدينة ترنانة لم يحكى عنها الشيء الكثير، وربما لأن بني سليمان أنشأوا إمارات ليست لها صفة الدولة ولا مقوماتها الأساسية ولم يكن انشاؤها استجابة لواقع البلاد القومي والتاريخي والجغرافي، إلا أننا نعتقد أن حكم عبد الله في ترنانة يكون قد حكم مدة طويلة ما بين

(290هـ /971م) إلى غاية (310هـ/920م)، فعيسى عمّه الذي كان في جراوة حكم إلى غاية (295هـ/976م) وترنانة بالنظر الى أرشكول ليست بالمسافة البعيدة إن هذا إن قسناها على ساحل البحر. ولكن لا زلنا لا نعلم نهاية إشعاع المدينة فجأة والذي سكتت المصادر عنه أيضا والسؤال الذي يبقى مطروحا هو كيفية تعامل ترنانة وعبد الله الترناني مع الصراع العبيدي الأموي؟

فالمصادر تحدثت مثلا عن ادريس بن ابراهيم بن عيسى بن محمد بن سليمان صاحب مدينة أرشكول والذي ابتدأ بمكاتبة الناصر لدين الله في الأندلس سنة 316هـ/928م يترجى وده وعطفه ورضاه مخالفا بذلك وخارجا عن طاعة عبيد الله المهدي، وقد تعرض لهجوم عنيف من بني عمومته لموالاته الأمويين في الاندلس فثاروا عليه وقاطعوه ونبذوه واخفروه من ذمته[(xxxvi)]، فما يا ترى ما كان موقف ترنانة من ذلك التجاذب الأموي العبيدي؟ وهو الأمر الذي يحتاج إلى دراسات أدق وأعمق قد نخوض غمارها في مستقبل الأيام انشاء الله .

6- العمارة في ترنانة:

تكتسي العمارة في ترنانة بالطابع البربري الذي يطبع كل بلاد المغرب الكبير تقريبا فلا اختلافات وفوارق كبيرة في الأشكال والأحجام بين البيوت البربرية وحتى طرق تزيين البيوت وطلائها، وقد وصفها الجغرافيون والرحالة والمؤرخون عبر مراحل مختلفة في التاريخ و لم تحدث تغييرات كبيرة بها فالجبلي أو الترناني يسكن في منزل يسمى عادة ب"آخّام" والتي تعني بالعربية المنزل أو المسكن، وتبنى غالبيتها في مواقع دفاعية استراتيجية، أو في مرتفعات ممددة أو مستطيلة، أو عادة في مرتفع صخري بين وادين، أو مكان مفتوح للرؤية[(xxxvii)]،ولكل منزل أربعة أوجه، تبنى عادة بالطين والحجارة المتراصة الذي تستخرج من الجبال أو الوديان[(xxxviii)] ، كما يبنى السقف بالأخشاب القوية كشجر العرعار كما يعزز بالقصب مشدودا إلى بعضه البعض، وتفرش الأرض بنفس مادة البناء ثم يحصّن الكلّ بخليط من الطين وروث البقر أو قشور البيض والحلزون لمنع تسرب المياه ،وعلى السطح عادة ما تنبت نباتات الديس، ولا ترتفع المنزل عادة كثيرا عن قامة رجل، وتأوي في الغالب هذه المساكن حتى الحيوان الأليفة من ماعز، وأغنام، ودواجن فوجودها في المنزل هو بمثابة مدفئة طبيعية في فصل الشتاء البارد، وامام هذه المساكن نجد عادة وديان تجري او آبارا وذلك لطبيعة الإنسان الذي يحتاج الماء ليسقي حديقته أو بستانه الصغير الذي يحوي أشجارا مثمرة

أو نباتات وأعشاب للاستعمال اليومي، ونفس الشيء بالنسبة لمساجد ومصليات القرية فإنها مبنية على نفس منوال المساكن إلا أنها عادة ما تختلف عن الأولى بالبياض التي تكسيه من الخارج(xxxix).

6-1- المسجد الجامع بترنانة:

لم تعطنا النصوص الجغرافية بالتحديد تاريخ تأسيس المسجد الجامع ولكن ذكرت انه كان موجودا في فترة عبد الترناني أي في أواخر القرن الثالث وبدايات القرن الرابع للهجرة، ولكن نرجح أن المسجد يكون قد ابتني بعد الفتوحات الإسلامية بقليل بدليل خضوع البربر للإسلام في هذه المنطقة في أول أيامه على شكل مصلى صغير، ولكن بدأ يتطور بناء هذا المسجد شيئا فشيئا حسب التطور العمراني لترنانة وكذا التزايد السكاني ولا يوجد بالمنطقة(جبالة) أي مسجد جامع والذي تقام فيه صلوات الجمعة والأعياد والمناسبات الدينية سوى جامع العيون أو مسيفة والذي نعتقد انهما قد بنيا بعد مسجد ترنانة بفترة، وقد وجد أهل منطقة ترنانة مؤخرا جدارا ضخما أثناء عملية التوسعة الأخيرة في 2014 طوله حوالي13متر وارتفاعه حوالي مترين كنا يبلغ سمكه حولي 70سم ولكن للأسف تمت تغطيته من جديد والذي لم نتمكن من رؤيته للأسف الشديد، و لم تصلنا حتى صور واضحة عنه باستثناء واحدة فقط(أنظر الملحق03) رقم وهو حسب شهود عيان مبني بالطابية وليس بالأحجار على شاكلة الجدران الدفاعية الحربية كالتي هي موجودة في مدينة المنصورة المرينية بتلمسان، ونحن نأمل أن تكون هناك مستقبلا حفرية على الّأقل في محيط المسجد الجامع لكي تتضح الامور اكثر فأكثر عن تاريخه وتاريخ ترنانة.

وقد أيضا وجد أحد أشخاص المنطقة في مكان الترميمات قنديل صغير كان يستعمل في الإضاءة هو حاليا موجود بمتحف الخط الإسلامي وسط مدينة تلمسان والراجح أنه يعود إلى تلك الفترة(xl).

6-2- السور أو الحصن:

إن النصوص التي تعرضت لترنانة بالوصف تعطينا فكرة عن ترنانة المدينة القوية المحصنة فابن حوقل قال عنها:"... مدينة عليها سور" والادريسي قال:" وهي قلعة عليها حصن منيع" أما البكري قال:" :".. وبين مرسى ماسِّينْ وتَرْنَانَا عشرة أميال، وهي مدينة مسورة" فهذه النصوص كلها تثبت الموقع الجغرافي المميز لترنانة، كما تبرز مدى أهمية المدينة كحاضرة شيدت عبر فترات وما

السور الذي أقيم عليها إلا دليل على تربص الأعداء بها خاصة العبيديين في أواخر حكم السليمانيين هذا من جهة ومن جهة أخرى لحماية الساكنة من هجومات قطاع الطرق والسراق خاصة وهي المدينة المعروفة بخيراتها وجناتها والتي كانت تحتاج لرعاية وحراسة مستديمة، ويرى بعض الدارسين الفرنسيين أنه شيد في القرن 7م(xli) ونحن نعتقد أن السور يكون قد ابتني قبل دخول الإسلام بفترة ولكن عزز فيما بعد في عهد الدولة الإدريسية وبعدها السليمانية التي حكمت في المغرب الأوسط لنصف قرن آخر، خاصة وأنها كانت مدينة فلاحية تجارية بامتياز وهذا ما سنبرزه في الحياة الاقتصادية للمدينة، وما يجب أن نشير إليه أيضا هو أن السور ظل باقيا إلى غاية الفترة الزيانية ولكنه يكون قد انهار بفعل الضربات المتتالية لبني مرين والذين حاصروا مدينة ندرومة لعدة مرات فكانت ترنانة وفرعها مسيفة في القبيلة الأولى التي تتصدى لهجمات بني مرين في المنطقة الحدودية بعد وجدة ولعل ابن خلدون قد ذكر غير مرة عمليات الإحراق والدمار التي كان يقوم بها بنو مرين بايعاز من أبي يعقوب يوسف قبيل حصاره الشهير لتلمسان 1298إلى1307م،وحتى المصادر المختلفة التي تناولت الصراع الزياني المريني لم تكن موضوعية إلى حد كبير وذلك ما جعل كثيرا من الأحداث تختفي من تلك المؤلفات(xlii)

ولكن حتى تلك المصادر لا تصف ترنانة في الفترة المرابطية أو الموحدية أو الزيانية كما وصفتها في حكم بني سليمان بل لا نكاد نجد لها أثرا ونرجع ذلك لظروف:

- يؤرخ إبن أبي زرع الفاسي(ت741ه) لعديد الأحداث قد تكون سببا في اندثار آثار الادارسة والسليمانيين بالمنطقة فهو يقول: "في سنة344ه كان الوباء العظيم بالمغرب والاندلس هلك فيه أكثر الخلق وفيها ملك الناصر لدين الله مدينة تلمسان من أرض العدوة"(xliii).

- ويقول أيضا:" سنة485ه كانت الرياح الهائلة التي هدمت المباني بمدينة تلمسان وأحوازها واقتلعت الأشجار العظام ونظر الناس البهائم تمر بين السماء والأرض، تعوذ بالله من سخطه"(xliv).

- بروز ندرومة في الفترة المرابطية وهي التي أخذت تدريجيا تأخذ مكان ترنانة لأن المرابطين اختاروا تلك المدينة لاعتبارات عدة نعتقد أن الدمار الذي أصاب ترنانة من بينها ، ثم أنه من الواضح أن بني يلّول قد أحكموا قبضتهم على المنطقة فأضحى الحكم محليا بربريا خاصة وأنهم جربوا حكما ليس من بني جلدتهم. بعدها تقوت المنطقة في ظل حكم الموحدين فترنانة بني يلول كانت من بين المراكز والمدن الكومية بالرغم من أنها أصبحت مدينة ثانوية مقارنة بندرومة وهنين ولكن هذا لا يعني أفول نجمها نهائيا أما عن الفترة الزيانية فهي التي تضررت فيها المنطقة أكثر نظرا

للصراع المريني الزياني الشرس والذي دام لمدة طويلة لم تعرف فيها مسيفة خصوصا وجبالة عموما سكينة، وعن الخراب والدمار والرعب الذي زرعه بني مرين في هذه الفترة يقول صاحب الاستقصا عن حملات أبي يعقوب يوسف المريني:" ..حتى نازل تلمسان فتحصن منه عثمان وقومه بأسوارها فحاصره السلطان يوسف وضيق عليه ونصب عليه المجانيق، وكان حصاره إياها من السنة المذكورة ثم سار في نواحيها ينسف الآثار ويخرب القرى ويحطم الزروع، ثم نزل بذراع الصابون من ناحيتها ثم انتقل الى تامت وحاصرها أربعين يوما وقطع أشجارها وأباد خضرائها"(xlv).

ويقول عن حصار تلمسان وبيعة أهالي ندرومة وضواحيها للسلطان المريني من هول ما رأوا من حملات استتراف :" تقدم لنا أن السلطان يوسف لما رجع من محاصرة تلمسان سنة ثمانين وتسعين وستمائة مرّ في طريقه بوجدة فأنزل بها الحامية من بني عسكر إلى نظر أخيه الأمير أبي بكر وأمره بشنّ الغارات على أعمال بني زيان ،فامتثل أبو بكر وألح على النواحي بالغارات وإفساد السّابلة ،فضاق أهل ندرومة بذلك ذرعا وأوفدوا منهم على الامير أبي بكر يسألونه الأمان لهم ولمن ورائهم من قومهم على أن يمكنوه من قياد بلدهم ويدينوا بطاعة السلطان يوسف، فبذل لهم من ذلك على أهل تاونت فأوفد الامير أبو بكر جماعة من أهل البلدين على أخيه السلطان يوسف، فقدموا عليه منتصف رجب من سنة ثمان وتسعين فأدوا طاعتهم فقبلها ورغبوا إليه في الحركة ليريحهم من ملكة عدوه وعدوهم عثمان بن يغمراسن ،ووصفوا له من عسفه وجوره وضعفه عن الحماية ما أكد عزمه على النهوض.. إلى تلمسان"(xlvi).

فكل هذه أحداث عجلت بسقوط المدينة الصّارخ رغم قوة حكام بني يلّول لكن الحركات المذهبية وصراعاتها في فترة متقدمة من العصر الوسيط كانت أقوى وأعنف مما أدى إلى خضوع المنطقة شيئا فشيئا فلذلك ومن خلال النصوص السابقة وبالرغم من استتباب الأوضاع العقائدية والمذهبية تحت راية المذهب المالكي إلا أن صراع بني زيان ومرين حول مراكز النفوذ والمجالات الحيوية عجّل بمحو آثار الحضارة في المنطقة.

7- الجانب الاقتصادي لترنانة في العصور الوسطى :

إن النصوص التي تعرضنا إليها سابقا تعطينا لمحة عامة عن اقتصاديات مدينة ترنانة وضواحيها تحت حكم بني يلّول أو حكم السليمانيين أو حتى ما بعد تلك الفترة ولعلنا نحاول الرجوع إليها لكي

نأخذ فكرة عامة ننطلق منها للتحليل، فيقول ابن حوقل عنها:".. مدينة عليها سور وأنهار مطردة وفواكه واسعة عظيمة وكروم جسيمة" ويقول الادريسي:" ولها سوق عامرة وبها مياه كثيرة ولها جنّات وكروم.." ويقول البكري:" ولها سوق ...وبساتين كثيرة" ويقول صاحب الاستبصار:" كانت مدينة كبيرة مشهورة على ساحل البحر، وكانت محطّا للسفن ومقصدا لقوافل سجلماسة وغيرها" فالنصوص تعطينا صورة واضحة عن كثرة الماء بكثرة الأنهار والوديان فهذه المؤهلات تعطي فرصا أكبر لنمو الزراعة والفلاحة خاصة مع انتعاش عملية السقي والري هذا بالإضافة إلى التربة الخصبة الصالحة للزراعة التي ساعدت على تكوين مساحات هائلة من البساتين والمزارع والضّيعات التي كانت تنتج منتجات متنوعة وكثيرة على رأسها الكروم[xlvii] والتي تعد من أهم منتجات ترنانة إلى يومنا هذا كما يعتبر عنبها أحسن وأجود العنب في ولاية تلمسان والغرب الجزائري[xlviii] كما انتعشت بها عملية غرس القمح والزيتون ولعل الطاحونة الكبيرة التي عثرنا عليها بالمنطقة لخير دليل على ذلك[xlix] . فهذه الخيرات والمؤهلات جعلت سوقها سوقا كبيرة عامرة تكفي الاستهلاك المحلي وتزيد، هذا بالإضافة إلى المنتوجات والمواد والسلع والبضائع التي كانت تأتيها من الصحراء وسجلماسة ومن البحر أيضا، ولعل صاحب الاستبصار الذي جعل حدود ترنانة حتى البحر قد جعل المدينة أكثر قوة ونفوذا وسلطة مما رأته النصوص الجغرافية الأخرى فالمحاصيل التي كانت تجنى بترنانة وضواحيها كانت تصدر إلى الخارج في أوروبا عن طريق البحر وإلى الموانئ والمراسي في المراكز التجارية الساحلية الأخرى كوهران وتنس وبجاية...[l] ، كما ان تحكمها في الواجهة البحرية يعني تحكمها في الموارد السمكية والملاحة والثروات البحرية التي كانت تجني للخزينة أموالا باهضة وهذا ما يفسر لنا ثراء بني يلّول وكثرة أموالهم وكنوزهم التي اضطروا لدفنها خشية استيلاء الاعداء عليها، ولعل عذا قد ساعد ترنانة على أن تعيش في رخاء ورفاهية تامّين رغم الاضطرابات الحاصلة آنذاك كما يجب ان نذكر أن طرق ادارة اقتصاد المدينة ونواحيها كان له الأثر الإيجابي في نموه وازدهاره وهو ما اكده صاحب الاستبصار الذي قال:" وكان سكّانها من قبائل البربر ومطّغرة وهم أعدل من هناك من البربر" فالعدل أساس الحكم والنمو والتطور في كل الميادين والذي ساهم تشكيل دورة اقتصادية لا بأس بها في ترنانة خاصة مع القرون الأولى لإسلام البربر وتشبثهم بمبادئه وأسسه وقواعده ونستدل برأي الحسن الوزان في هذا الصدد الذي يقول عن المنطقة في القرن 17م:"يكوّن معظم مملكة تلمسان أقاليم جافة قاحلة، لاسيما في جزئها الجنوبي لكن السهول القريبة من الساحل منتجة جدا نظرا لخصبها...وبقيت في



ضواحي ندرومة بعض انقاض بناءات قديمة والبادية منتجة إلى أقصى حد، فتشاهد حول ندرومة بساتين عديدة وأرض مغروسة بأشجار الخروب التي يأكل السكان ثمارها بكثرة سوآءا في المدن أو في باقي المنطقة ،كما يتغذون بالعسل الموجود بها بوفرة.."[li].

8- الحياة اليومية والعادات والتقاليد في ترنانة وضواحيها:

تعيش غالبية الساكنة في ترنانة وضواحيها على ما تقتاته من أراضيها إلى يومنا هذا وقد ذكرت لنا النصوص الجغرافية والتاريخية الخيرات التي كانت تزخر بها والتي تعرضنا لها سابقا، وإلى جانب ذلك فإن الإنسان الترناني الجبلي متعود على الأعمال الشاقة، ينهض باكرا، صفته صفة الأمازيغي الطيب الخجول والعنيد والتواق إلى الحرية، وقد ذكر صاحب الاستبصار قائلا أن سكان ترنانة من أعدل البربر وهذا ما يفسر لنا طيبة المجتمع خاصة بعد دخول الإسلام.

يرتدي السكان في ترنانة وجبالة عموما الجلابة التي تصنع من الصوف الأسود تصل إلى منتصف الساق، عرضها حوالي ذراع التي تنسجها النسوة بالمنسج التقليدي الخشبي، ويضعون على رؤوسهم العمائم الصفراء كما يضيفون قبعات مزركشة مصنوعة بالدوم يصطلح عليها في المنطقة "بالمضّل" والتي تقيهم من أشعة الشمس الحارة خاصة في مواسم الحصاد ،وهناك من يضيف أيضا فوق الجلابة البرنوس وهو لباس بني يلّول في جبالة[lii] وأمازيغ زناتة عموما، أما غذائهم هو خبز الشعير وزيت الزيتون والتين المجفف، وتملك العائلات المتوسطة عنزة أو عنزتين يشربون حليبها، كما يقومون ببيعها عادة هي والدواجن والبيض واللفت والأعشاب الطبية في الأسواق الأسبوعية بالمدن المجاورة، والأمازيغ عموما لا يأكلون اللحم أو الدجاج ولا يذبحونها إلا عندما يزورهم ضيف لأن قانون الضيافة مقدس عندهم، ويقدم اللحم مع الكسكسي عادة[liii]،وهم تقريبا لا يملكون أي نوع من الأثاث الفاخر فتجد عندهم مطحنة صغيرة لطحن الحب وكذلك كمية من دقيق الشعير، وترى عندهم أيضا تينا مجففا في كيس وبعض الاواني الخشبية أو الفخارية وقربة ماء معلقة على الدوام[liv]،وتروي الروايات الشفوية أن أحد سلاطين ترنانة أقام عرسا كبيرا لأحد أبنائه وقام بجلب الماء من قرية الطّرارس بأن شق بالمحراث مجرى طويلا يأتي منه الماء إلى ترنانة وقد سبب ذلك بينه وبين الطرارس مشكلة، إلا اننا نشك في صحة هذه الرواية لأن ترنانة فيها مياه كثيرة وجنات وخيرات أكثر مما هي عليه في الطّرارس فلماذا يكلف السلطان عناء نفسه ذلك؟، وربما صيغت تلك الرواية فقط لتعظيم شأن السلطان وبنيه وقوته ووسائله المادية القادرة على فعل

المعجزات، فكثيرة هي الخرافات التي كانت تطغى على المنطقة وبلاد المغرب والتي تعتبر الكثير منها قصص تاريخية حقيقية كتخويف الأطفال بالسلطان الأسود والذي هو حقيقة السلطان أبو الحسن المريني الذي زرع الرعب في المنطقة أثناء غزوه لتلمسان ولكنها تتخذ طابعا شعبويّا اسطوريا فيما بعد، ولهذا ربما تربط غالبية الشخصيات او الأشياء المخيفة بالسواد مثل الجن الأسود الذي يقال انه متواجد في قوّيرة أو مطمورة كبيرة في ترنانة يمنع على الأشخاص الاقتراب منها(lv).

خاتمة:

في الأخير ومن خلال الدراسة التي قمنا بها والتي حسب ما نعتقد اول دراسة تعنى بهذه المدينة المنسية نخلص لما يلي:

- لعبت منطقة جبالة بصفة عامة وترنانة بصفة خاصة تحت حكم بني يلّول البربر دورا محوريا وجوهريا في ربط الصلات بين المغربين الأوسط والأقصى حتى ماقبل الاسلام، وهذا بأن تربعت جبالة على مساحة جد شاسعة تعد اليوم الأكبر في ولاية تلمسان ،فكان بنو يلّول وبصفتهم أسياد مسيردة وندرومة وترارة قد ساهموا بشكل كبير في تأمين مرور القوافل التجارية وكذا خوض الحروب لفرض الوجود والبقاء.

- ساهم دخول الاسلام وحكم الأدارسة والسليمانيين بعدهم في تعزيز ريادة تلك المنطقة خاصة في القرون الأولى من اسلام البربر، فازدهرت الفلاحة والتجارة وابتكرت طرق ادارة جديدة على ضوء الشرع الإسلامي كان الأمويون قد خطوا أسسها الأولى فنظمت بذلك الهياكل القاعدية لطرق التعامل الجديد فيما يخص الحياة اليومية للساكنة الترنانية والتي وكما يبدو تأثرت بشكل كبير بحكم آل البيت في المنطقة، فكانت ولازالت أفراحها وعاداتها وتقاليدها تمجد النسب الشريف وتفتخر بالانتساب إليه بالرغم من عدم تأكد غالبية الساكنة رسميا من اتصال نسبها البربري بالنسب القرشي الشريف.

- برزت ترنانة كقاعدة لها مكانتها في المنطقة فضاهت عديد المدن الريفية الأخرى وهي التي كانت لها مواردها ومنتوجاتها ونظمها الخاصة وإن دليل تطورها ما قاله الجغرافيون والرحالة والمؤرخون فالأسس التي تحدثوا عنها وهي: السور، والسوق، والمسجد الجامع إنما هي علامات تطور وازدهار المدينة الحقيقي .

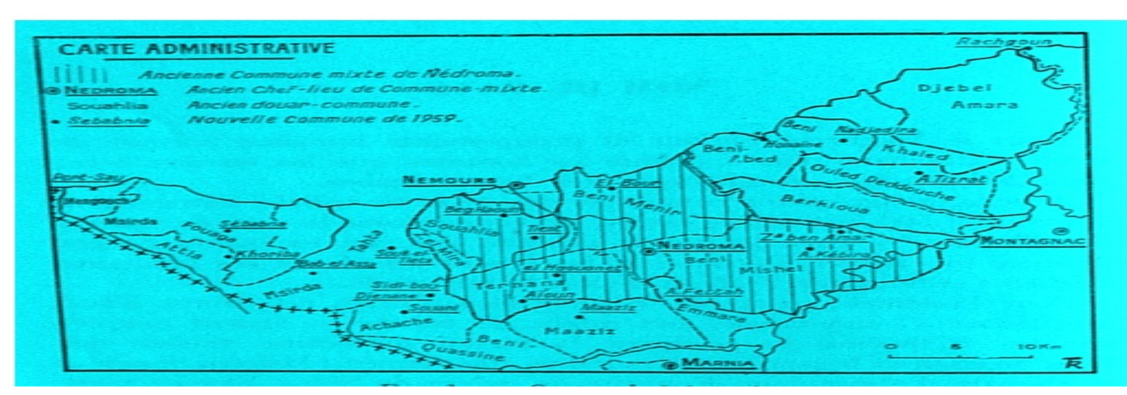
- إن بروز دولة الموحدين بقدر ما أعطى للمنطقة دفعا قويا باعتبار ترنانة ومسيفة من كومية فقد جعلها على الهامش نسبيا ، فقد تجاهلها المرابطون قبلهم، وربما الحروب الكثيرة التي جعلت

الموحدين يحملون أهليهم وأمتعتهم إلى ساحات المعارك قد استنزفت النسيج الاجتماعي بالمنطقة هذا إضافة عن تحدث المصادر عن كثير من الكوميين من الاعراش المختلفة لحقوا بعبد المؤمن بن علي بمراكش وأعمال المرغب الأقصى فاستعملهم عليها وولى كثيرا من رجال كومية على الأقاليم، فطبيعي أن رحل غالبية رؤساء القبائل والعروش والشخصيات البارزة إلى المغرب وبلاد الاندلس وهذا ما جعل المنطقة تعيش صراعات محتدمة فيما بعد.

- لعل ما جعل الحضارة والعمران على الأقل يندثر من منطقة جبالة عموما وترنانة خصوصا هو الصراع الزياني المريني الذي دام لقرون والذي أتى على الأخضر واليابس فكثيرة هي المنشآت الادريسية والسليمانية التي ذهبت فقط بفعل العوامل الطبيعية فما بالك بالحروب التي كانت أقاليم جبالة مسرحا لها في أكثر من مناسبة، خاصة بعد دخول المحتل الفرنسي ومبايعة قبيلة جبالة للأمير عبد القادر وخوض المعارك معه على غرار معركة سيدي ابراهيم التي لا تبعد عن ترنانة إلا بحوالي 6كلم فلا غرو إذا قلنا أن الوعاء السكاني قد تأثر بعمليات المد والجزر التي وقعت عبر التاريخ، فلم تسمح البيئة الغير آمنة لبروز مدينة أخرى بحجم ترنانة في المنطقة منذ ذلك العهد.

الملاحق:

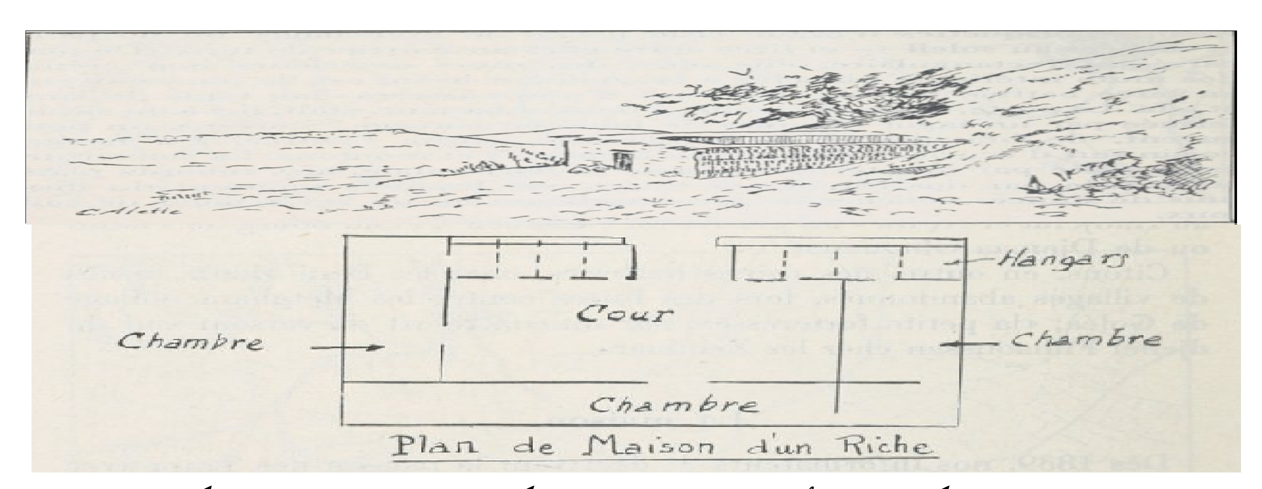
الملحق رقم 01:



- خريطة لسنة توضح موقع المحاور الكبرى لجبالة وهي:ترنانة (مسيفة)، العيون، الحوانت (ماتيلة)

أنظر: Robert tinthoin ,les trara,p21

الملحق رقم 02:



-رسم لمسكن جبلي أوتراري وهو نموذج لكل الامازيغ في المغرب الكبير تقريبا

Tintoine ,p25

الملحق رقم 03:



- صورة توضح الجدار الذي وجد في مسجد ترنانة وهو مبني بالطابية سنة2015

الملحق رقم 04:



- صورة لمصباح زيتي وجد أثناء عملية ترميم مسجد ترنانة 2014،موجود بمتحف أبي الحسن التنسي، تلمسان+ بقايا أواني فخارية مجهولة الفترة وجدها الباحث بترنانة.

<u>الملحق رقم 05:</u>



- صور توضح محاصيل الكروم بترنانة وضواحيها كحدادن، الغرايمة، بلحميرات. صورة مأخوذة من طرف الباحث 15ماي2015

الملحق رقم06:




- صورة توضح الطاحونة التي عثر عليها أحد سكان ترنانة (قرية حدادن تحديدا) وتمثل الصورة على اليمين جزئها السفلي والصورة على الشمال جزئها العلوي ويركب في طرفيها قضيب حديدي تملأ بالشعير أو الزيتون وتقوم الدابة بتدوير الطاحونة .صورة مأخوذة من طرف الباحث في15ماي2015

الملحق رقم07:



صورة لرسام أوروبي توضح سوق ندرومة وفيه يظهر لباس أمازيغ جبالة(ترنانة) بالجلابة السوداء المزركشة والعمامة والقبعة(المضل)،المصدر: من صور الجمعية الموحدية، ندرومة.

قضايا التاريخ البحري





السفر البحري بالمغرب إلى بداية القرن العشرين



عمر عمالكي

باحث في التاريخ المعاصر

توطئة:

يكتسي السفر والرحلة أهمية بالنسبة للمؤرخ لكونه أحد مضان المعرفة، ومنبرا ذا طابع متميز لأخبار ومصدرا معلوماتيا لمن يروم بعث حقيقة تاريخية و لمن يصبوا لبناء واقعية اجتماعية والاحاطة بالمناخ النفسي السائد، وللمقاربة الإثنولوجية والتاريخانية. فالرحلة تحمل صورا غير مرصودة ولا مبحوث عنها مسبقا. لهذا فأخبار الرحالة مضان ومكمن البحث التاريخي الذي يعطي أوصافا مرئية وصورا ومشاهد مغايرة للسرد والمتن التاريخي الذي تكتبه الفئة الغالبة

والمنتصرة عادة، كما ترصد الرحلة الأحوال السياسية والعلمية والمذهبية تتعدد أماكنها الملتقطة من خلال تعبيرات وخلجات نفسية للعين الشاهدة والأصوات المسموعة، الناشئة إبان الرحلة أو التي سارت بها الركبان وكذا تلك التي صارت ممتزجة في اليومي وتبدت لنا اليوم كشكل من الفلكلور. ولم يقصد منها غير الإخبار والتحذير أو التشويق واتخاذ العبر والتحفيز. وإن ارتباط الرحلة بطابع العفوية الباعثة من الذات الفاعلة حينا أو المفعول بها أحيانا أخرى. ورغم كلما ينتاب هذه الرحلات من حمولات اخلاقية ومذهبية والتصوير الغرائبي والمواقف القيمية. فتبقى هي تلك الشاهدة التي تحرك الذاتي والموضوعي وتدفعه لنشر واحاديث تسري زمكانيا في عوالم مختلفة ثقافيا.

فالذات الراحلة تلتقط صورا مميزة عن المألوف أو حوادث اشرت في المسير والمسار والمبررة للعديد من التساؤلات المفترضة، وراصدة للعيوب والخوارق لإمتاع المتلقي والمرسل إليه؛ وتقوية الجانب النفسي أو الفئة المذهبية والنخبة السياسية والطرق الدينية والاجتماعية. ومناصرة واعية للطهرانية أو متبرئة من الشناعة المرئية.

ولن انزاح في هذه المقالة إلى رصد الجوانب الغرائبية فيها بل سأقف على معطيات تاريخية وظواهر اجتماعية مرتبطة بالمجال البحري توارثتها أجيال السواحل وتفاعلت معها حتى غذت جزءا من اليومي، أو طقسا يناسب الفئات الاجتماعية وينظمها تنظيما تراتبيا وروحيا بل وظيفيا. وقد عملت عين الرحلة على التقاطها وتدوين ما استطاعت جمعه، ورصدت أقلامهم كثير من الحوادث والمعاملات التي عملت على ذكرها. ومن خلال الرحلة والاسفار التي تمت في أزمنة متقاربة ساعدتنا على استخراج كثير من المعلومات بما حوت الكراريس من اخبارا جمة، مما جعلها عنصرا مسهما في التنوير التاريخي وبعثا للمعرفة الجالبة للحقيقة والواقع المعاش، كوصف راصد. ومن خلال مسار تلك الرحلات المغربية سنقف عند كثير من الظواهر والاحداث والتدابير والمعاملات والرؤى، وسنقوم بمحاولة مقارنة مشاهدها بالمجال المتوسطي خلال حقب متتالية إلى بدايات القرن العشرين، باستنطاق عدة رحلات انطلقت من المغرب ورجعت إليه، وفي مقدمتها رحلتي السودي عبد القادر الفاسي. ورحلة الفونتي أبو بكر يوسف

السوداني ورحلة سيدي احمد سكيرج الطنجي[374] ثم رحلة الفقيه الحيوني[375]. ثم ابراهيم التادلي. واستقصاء بعض الاخبار التي اشار إليها كتاب واصحاب العقود، أو أشارت لها الكتابات المغربية والاوربية بين الفينة والاخرى.

دواعي الرحلة و مناسبة الخبر

ارتبط السفر - منذ مدة ليست بالطويلة- للمغاربة نحو الأفاق البعيدة من الطرق البرية الصحراوية بواسطة القافلة في تخوم الحدود جنوبية والشرقية إلى البحر، لهذه البلاد الواطئة في الغرب الإسلامي الإفريقي. ولئن اقتصر العمل الذي نبحث فيه على تصوير المجال الجغرافي الذي تعبره الطرق البحرية وتشملها أسفارها. فإن ذلك التحول يحمل إشارات تحديثية وتطويرية مهمة بالنسبة للمسألة التاريخية. ومعظم هذه الرحلات التي بين ايدينا ونستنطقها تكاد تتفق على كون السفر البحري جاء عرضا وعوضا عن الطريق البرية لصعوبات واكراهات تتنوع مسبباتها والجهات التي تفق وراءها، وإن كانت الرغبة في أداء فريضة الحج وزيارة بلاد المشرق مقصدا وباعثا على الرحلة من الاساس. فإن السفر عبر السبيل البحري، وبسفن يسيرها غير المسلمين في بحار للمغرب يعد نقلة نوعية بالنسبة للمغاربة، الذين قبلوا هذا التغيير.

وتكمن أهمية الرحلة البحرية للمؤرخ، في إبراز كيفيات السفر وأهميتها وأبعادها، ودور البحر في الأسفار التجارية والجهادية، والانسانية ثم الدينية، كما تبرز أهميته في التغذية والنقل والاستشفاء ولكل وجهة هو موليها فيه، غير أن البحرية وانشطتها وانتاجات المشتغلين بالبحر والراكبون في مطاياه الكاتبون بسمر المداد خاصة قد أمدوا التاريخ المغربي بمعارف لا يستهان بها، وعكست كتاباتهم ما يقع على متن السفن من أحداث اجتماعية ونفسية واقتصادية أو طقوسية قل نظيرها[376]. ولما حبت الطبيعة هذا البلد بموقع على شكل ملتقى تيارات المتوسط والأطلنتي، ارتبطوا بها دينيا وفكريا وتقنيا وعسكريا ثم سياسيا. فإن أحوال المغرب تستدعي أكثر من بحث في مجالات متنوعة قصد الوقوف عند مصادر الخطر ومعرفة التدبيرات المعرفية لهذه المراحل كلها.

[374]) رحلة معاصرة تمت سنة 19016 من طنجة إلى وهران " الرحلة الحبيبية الوهرانية الجامعة للطائف العرفانية" توفي بمراكش سنة 1944. انظر مجلة دار النيابة عدد1986،9 مقال للاستاذ عبد العزيز التمسماني خلوق.

[375]) محمد الحنفي بن ابي بكر الحيوني الدرعي، تمت هذه الرحلة خلال القرن 19م(1847)

[376]) تحدث الفقيه الحيوني، ص5. عن الازدحام وهيئة حشر المسافرين في اقبية السفن ومعاناتهم "لأن مطرحي فوق برميل ماء على هيئة الطير في القفص...من قوة شدة نفس الانسان والصهد"

وقد رافق السفر البحري بالمغرب اهتمام خاص بالمواكب والقوافل التجارية والبعثات الدبلوماسية، مما جعل من المحطات البحرية - المراسي/الموانئ- أهمية كبرى، وفي مستهل الاهتمام المخزني بالمردودية الاقتصادية فعمل على إعادة تسيير أمورها بما يتوافق مع تطلعات الساسة والفئات التجارية المتحكمة. ويمكن القول أن تنظيم النشاط البحري بالسواحل والمراسي المفتوحة للتجارة الخارجية، يعد مجال الوقيعة بين الانا المغربية والاخر الاوربي الضاغط على السلطة المركزية بفاس ومراكش، لتنظيم وتوسيع دائرة الانشطة واختصاصات الوكلاء والتجار والدبلوماسيين وازمعوا على فرض آراء وتشريعات يروها قمينة بتأسيس قوانين بحرية ترضي الاطراف والمخالطين (أولى خطوات الاهتمام الأوربي بالمغرب). فجاءت كل القرارات الرامية لتقنينه كمحصلة تراكم عدة أوفاق خارجية. وقعها المخزن وما صاحبها من تشريعات مخزنيه، خاصة في النصف الثاني من القرن 19م[lvi]. فولد النشاط البحري محكوم بتوافقات دولية، الاتفاقيات والتشريعات انتهت مجتمعة إلى تقعيد انفتاح السواحل والمراسي المغربية، في إطار الوصاية الأجنبية بشكل غير قابل للتراجع[lvii]. وستعرف ولادة تنظيم نشاط في إطارات التلاقي والتواصل المبرر تجاريا وعسكريا، وحمولاته ذات البعد الثقافي والحضاري. بالمجال المتناقض من حيث الطقوس والديانات وأساليب العيش والعقلية المتحكمة، علاوة على القصور التقني والمبادرة التي تعوز البحري المغربي، وعدم طلاقة اليد للاغتناء والنمو، وأما من جهة أخرى رأينا بالبحر المتوسط عناصر جديدة وحتميات حولت المغرب إلى مفعول به يمكن تصورها بمنظار تاريخي " للعلم أن منطقة البحر الأبيض المتوسط وضفتيها المتباينتين كانت تعيش على إيقاع حروب ومصادمات، وأزمات خانقة. مما حتم البحث عن أماكن جديدة و فضاءات بكر قصد التزود والانفتاح .فكانت موانئ البحر المتوسط والمحيط الأطلنتي بأيبيريا والمغرب مفاتيح الرحلات الاستكشافية والتجارية نحو مناطق أبعد"[lviii]. تحدثت عن مضيق جبل طارق فحاجة البرتغال إلى الحبوب و إلى العملة الذهبية أم الفكرة بعدما جعلت من البحر مجال المغامرة وملك للجميع. مما فتح شهية المغامرين والصيادين، والتجار البرتغاليين.

تحديد الزمن المدروس

أقف هنا للحديث عن آليات المغاربة المستعملة في السفر البحري نحو المشرق وأهمية الفوارق التقنية بين المغرب والدول المجاورة الأوربية منذ القرن السابع والتاسع عشر. وعلى وجه التحديد عصر مولاي سليمان وخلفه عبد الرحمان بن هشام واللذان عاشا تناقضات السياسة الدولية والضغوط

الاجتماعية والاقتصادية في بلد تهدده الاخطار من كل حدب وصوب ،وحملا على عاتقهما مسؤولية الذود عن هذا البلد.

لقد عمدت إلى هذه الرحلات من المنظور البحري لتسجيل اخبار المغرب ومحاولة كشف الجوانب المخفية ،والجوانب الأكثر حساسية في صناعة التاريخ والحدث بالنسبة للمغرب. فقد شكل المجال البحري أول عقبة سياسية لا تقل أهمية عن الحدود الشرقية التي تباغتها فرنسا بعدما حلت بالجزائر منذ 1830م بل إن الصراع على المراسي والمدن البحرية ذات الرؤوس الاستراتيجية والتي تحاول القوى الاوربية وشركاتها التجارية، وتعبرها الأنشطة التنصيرية أو تسهم في بعث السلاح إلى المتمردين بالقبائل أو دعمهم بالأموال والاسلحة. فكل هذه الاحداث وقفت في سبيل تطوير الداخل وارخت بظلالها على قيام تنمية شاملة بالبلاد المغربية. لهذه الأسباب والاحداث/ الظواهر. عملت على الاستبصار من خلال مرآة الرحلة وتقلب الامزجة بين الكتاب المدونون لها بين مستعظم للحوادث السياسية والدينية والاجتماعية، وبين مهول من التقنية الاوربية وحديثه عن المدى والهوة بين الحضارتين، فاخترت منها اربعة نماذج متباينة الاصول وموزعة على المجال الجغرافي للإمبراطورية المغربية كما توزعت على حكم السلاطين المغاربة (من مولاي سليمان إلى مولاي يوسف) .

رحلة عبد القادر الفاسي السودي: تتميز بكونها رحلة حجية منطلقة من مراسي مغربية بواسطة سفن مستأجرة من دولة هولندية وبطاقم أوربي. فقد خطت هذه الرحلة مسار تنقلاتها عبر المحيط الأطلنتي والبحر الابيض المتوسط، وحددت الانشطة اليومية على متن السفينة ورصدت الفوارق التقنية بين الاطقم ومكانة الفئات الاجتماعية ورصد انواع المعاملات وتدبيراتها.

كما رصدت الصعوبات المجالية للرحلة والحالات النفسية للمسافر العابر. وحالات النفور والاستنفار التي تنتاب الاطقم والقيادة. واختلافها عن القيادة(الرياس) المغربية

وقد غيرت تصرفات الركاب المغاربة من نظرة الاوربي إلى الانسان المغربي وعدلت من الأحكام الجاهزة عنهم، لما يوصفون به من سمة الخوف من البحر. وحاولت التقريب بين الثقافات المتناقضة بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط.

رصدت الفوارق التنظيمية للمراسي والقوانين البحرية بين عوالم البحر المتوسط. وعقلية الملاحة في الأراضي المنخفضة. وبين مراسي العالم الاسلامي كمصر والبلقان والمغرب وبين مراسي أوربية كجنوب اسبانيا وايطاليا ومالطا. من جهة ثانية وكيفية المعاملة التركية في جهة ثالثة.

بينما رحلة الفونتي : المنطلقة من المراسي المشرقية نحو المغرب عبر سفن مغربية وأطقم إسلامية خلال العودة وزما يتركه الشوق إلى البقاع المقدسة والحرمين الشريفين وروحانية الحج في النفوس الساعية إلى الطهرانية، فهو يلاحظ ويتبرأ من المعاملة والطقوس عبر السفينة المغربية.

رحلة الحيوني، تميزت بكونها تعبر عن عقلية مغربية كان أول لقاء لها بالبحر في خضم زيارة البقاع المقدسة، وعبرت عن تصور ابن الصحراء للحياة على ظهر السفن وما تعرض له من صعوبات صحية ونفسية وأخلاقية. من قبل الركاب المغاربة وتناقضها مع البعد الروحي للمسلمين. أمام الاطقم الاوربية من المرسى العبدي باسفي إلى الاسكندرية ثم حيرته في الاستمرار في السفر بحر أو برا، حتى رأى شيخه مولاي علي الدرقاوي الذي أمره بالسفر برا من مصر إلى الحجاز.

وعلى غرارهم كتب احمد بن العياشي سكيرج عن رحلته إلى وهران، واصفا المركب وطبقاته السكنية وكانت الرحلة في منطلقها تعبير عن ولاية صوفية وزيارة منشئ الشيخ التجاني بعين ماضي قرب وهران. وملئها بالأبيات الشعرية والعواطف الجياشة الى زيارة الشيوخ.

على أن كتاب زينة النحر، الذي كتبه إبراهيم التادلي يعد عملا مخصصا للحديث عن السفينة والسير البحري بامتياز، وليس حكيا عن الرحلة وسرد تفاصيلها.

سنقف خلال هذه المقالة على عدة مميزات للرحلات[lix] كما نريد إبراز أهميتها التاريخية، انطلقت من الساحل المغربي على متن سفن اوربية وعلى الخصوص فالأولى على سفينة هولندية وبطاقم مسيحي نحو البحر المتوسط والديار المقدسة. والثانية؛ حملت حجاجا مغاربة من الحج نحو الديار بطاقم مغربي مسلم، وإما الثالثة؛ فلم يعبر صاحبها إلا عن كون الطاقم من الاوربيين دون ذكر جنسيتها، وإما الرابعة؛ فهي سفينة لارميني الفرنسية، إن مقاربة البحر من خلال هذه الرحلات تقدم معلومات كثيرة عن الرحلة والاستعداد لها في الذهاب والإياب. وما شهده المصورون وعقلية كل منهم، والفوارق التي تتجسد في السفر والطاقم والحياة على السفن .

لماذا الرحلة والسفر مصدر تاريخي؟

الرحلة بما هي انتقال من مكان لمكان بفعل إرادي أو اضطراري، ولدوافع مختلفة والغايات. وهي مرآة تعكس صورا وتسترجع الماضي وتصف ما كان كما كان، أو كما رآه المصور، ونحاول نحن اقتفاء الاثار المادية وما يختلج في مكنونات النفوس وتنطوي عليه العادات وتبرزه الطقوس وما تناقلته الامم من ثقافات و تمثلات وتصورات استعصت على الاندثار. ولما كانت الرحلة بهذا الشأن فإنها بالنسبة للمؤرخ الذي يرصد الظواهر الاجتماعية والسلوكيات البشرية وتفاعلاتها السياسية والثقافية و الاقتصادية. كما تصور هي نفسها ردة فعل الرحال أو الملتقط لمنتقياته ومنتخباته التي استرعت انتباهه، وأخذ يسردها بعجائبية، المتسمة بنفحة الاستغراب أو النفور أو المبينة للفوارق. وحين يستثمرها المؤرخ والجغرافي والأديب، كمصدر معبر عن تعقيدات الحياة والمجتمعات المار منها، وما لقيه خلال مسار الرحلة. كما تعد الرحلة صورة حية ملتقطة في أوانها بمشاركة الذات الواصفة التي تقدم مشاهد متنوعة بأسلوب يزاوج بين الحكي. والاقناع بالحجج أو يسوق لها المتحدث شواهد بتواريخ ويضمها احداث واخبار قد تصل لدرجة المقارنة بين النماذج السياسية والمكانية. وبين السلوكات والبشرية واختلاف الحضارات، والممتلكات والتقنيات والصناعة والتطور المستمر للإنسانية . لذلك استحقت أن تكون مصدرا للأخبار في وقت وجيز.

ميكانيزمات السفر

شكلت الإقامة والقوام البحري موضوعا وعنوانا ركز عليه بعض المؤرخين[lx] المهتمون بالشأن البحري المغربي عبر التاريخ كنقطة ذات أهمية قصوى، ومحط النزاع بين البحري والتجار وبين الساسة ورجال الدين. وتراوحت درجت تسريحها بين الحرمة بين الشريعتين الاسلامية والمسيحية وبين الحلية والمداهنة كما استعملت في الدبلوماسية على شكل هدايا.

كما اقتضى الحال التوفر على أدوات ومعارف علمية وطاقم مدرب على السفر البحري وإدارة لتسهيل هذه العمليات. غير أن ارتباط الشأن الاداري وسلطات المرسى أو الميناء بمح التراخيص والجوازات[lxi]، أو البراءة من الامراض التي يسلمها طبيب مختص.

يقول التادلي: "أعلم أن أصحاب السفينة نوعان، أحدهما يكون صاحب علم فقط يقال له الريس وهو العالم بعلوم الرياح وبتقطيعه، وبطرق البحر وسموتها...والكتابة والحساب. والأخر، صاحب عمل فقط "البحري" وهو الذي سافر في البحر مرارا، ومارس خدمة السفينة، ويكون

عالما بآلاتها كلها من حبال وأعواد، ولا علم عنده."[lxii] ونحن هنا أمام تقسيم تقني للأدوار بين الطاقم حيث تحدد لكل بحري وظيفة ورتبة وتعين مقام كل طرف وحدوده، والمسؤولية المفوضة لكل منصب وتخصص لها بالتراتب مجموعة من الانعامات السلطانية أو تأتي على حسبها قيمة العوائد والحصص في الغنائم التي توزع بنوع من التمايز المادي والمعنوي والصفة والمكانة بين طاقم البحرية ومجتمع السفينة[lxiii].

وللثقافة والقراءة دور في سلامة الرحلة البحرية لما تجلبه من خبرات وتوسع مهارات وإمكانات الطاقم الذي يقود السفينة المغربية وهو من اختصاص الرياس والربابنة المفروض فيهم مواكبة مستجدات التقنية البحرية ولزم الرياس التمرن على العوائص والصعاب، وإعمال الذهن في حل جل مشكلاته. ولن تكتفي اليات السفر على تحديد الرتب والولاية بين المسيرين، بل يتم الاستعداد بتوفير عدة وسائل كالخرائط والقلوع والمواد الغذائية والأدوية الساعات والبوصلة والاسطرلاب وغيرها. وقد أدلى القبطان البحري والملاح المغربي عبد الله ميكاني الرباطي في كتابه لواقح الأسرار في حديث السفر والبحر[lxiv]،بما يفيد هذا الجانب ليكون البحار والرياس من جيله والاجيال من بعده على بينة وعلم . وقعّد لهم طرق وقوانين علمية في هذا السفر المطرز بخط يده[lxv] لستبين المشتغلون بالنقل البحري أن السفر في السواحل المغربية والربط مع أوربا يكون بعلم وعن معرفة المواقيت والاوقات الملائمة لامتطاء ظهر السفن والمراكب واحترام أوقات وفترات الإبحار،والعلم بساعات علو الأمواج واضطراب البحر، كما يرشد البحري إلى ضرورة معرفة الفرق والفروق في استعمال آلة البوصل والكارط في الساحل المغربي خاصة بعدوة طنجة وبالقرب من برتغال "خليج بشكاية" ويعزز نصائحه بأمثالة حيث يشير أن "الفرق بين الآلتين هو 18. ومنها إلى قاب لاروك 19. ومن لاروك إلى سيند(جزيرة)20.ومنها إلى البحر الصغير[377] 22،30 ومن أشقار إلى رأس كنطيل 22،30 ومن كنطيل للصويرة18 ومن الصويرة لجزر كناريس 16".

هذا عن معرفة الفوارق بين الرؤوس البحرية والمواضع الجغرافية ومواقعها لخطوط واحداثيات القطب المغناطيسي. ويجلي للخبراء أن البحر يخضع لجاذبية تنجم عنها مطبات وتعلوها تيارات. أو

[377]) يقصد به البحر الابيض المتوسط

ما يطلق عليه اليوم التيارات البحرية الناتجة عن جاذبية القمر(تيارات بحرية وأمواج) وخصص لها فصلا وبابا في طرته. يقول

" المطلوب هو ما يعرفون به المارية في غاية التطبال في القمر جديد وحين يكمل وذلك في سوايع العاشية. بالبغاز في جبل طارق11،30 رأس اطرفكان 11،45.برية قالص في الثانية بعد النهار.سلوك في 2،30.برية وكرطاى في 11،30.سانت مارية 11،45. قاب سيند3" . والعامل البحري لا يستغني عن طلب العلم والمعارف البحرية لتحسين منصبه ومقامه الاجتماعي مما يدفع به نحو البحث والاستقصاء والتكوين المستمر،لإكساب مزيد من الخبرة والالمام بصنعة البحارة والنجارة لما يحتاج لها كثيرا[lxvi]. والمعرفة بأعشاب التطبيب كما يحتاج رئيس السفينة إلى ثلاثة أمور منها: آلة ارتفاع الشمس كالقوس والكامل وغيرها :

معرفة الجغرافية، والبوصلة والاسطرلاب والخرائط، علم الحساب، واللوغريتم[lxvii] واليقظة الدائمة .

أهمية البحرية في الركب الحجي

الحج بما ركن من العبادات الدينية عند المسلمين لمن استطاع إليه سبيلا، إلا أن المغاربة بطبعهم جعلوه رمز الوجاهة والنبل، ويعبر سلوكهم وحرصهم هذا عن المناخ السائد في تلك الحقب[378]، وقد رسخت الأسفار الحجية سلوكا سياسيا مغربيا حيث تخرج مواكب وقوافل الحجاج ميممين الكعبة بمكة المكرمة، يقودهم رئيس الموكب[lxviii]، المنصب من قبل الزاوية التي تحظى بشرف اختيار السلطان المغربي، من مراكش أو فاس. وما يحيط بها من هيبة وما تعمل عليه من تركيز دور السلطة الشرعية. ومن جهة أخرى تحظى القافلة والموكب الحجي بأهمية قصوى في تاريخ المغرب من عدة جوانب؛ مادية ومعنوية. انطلاقا من هذه الرحلات الثلاثة(السودي والحيوني ثم الفونتي)[379] نستشف أن اختيار الطريق البحري جاء لعدة دواعي. كسلامة الطرق البحرية من قطاع الطرق والاوبئة والثورات التي تشهدها البلاد العربية في شمال إفريقيا، أو لأمر مباشر من سلطان أو شيخ زاوية، أو لرؤيا وإشارة غيبية. علما انها بعضها سجل موقفه الشخصي فقط أو اراد تبيان احجم المخالفات الشرعية على ظهر السفينة[lxix]، أو سجل انطباعا للخوارق والكرامات التي عرضت لهم في الرحلة البحرية[lxx]،وربما حملت المعاملات والعجائب الفقيه الحيوني على

[378]) بمفهوم العصر البعثة الرسمية التي تحمل معها هدايا لبلدان المرور كسوة المغاربة للكعبة أو مساهمتهم فيها
[379]) استثنينا رحلة احمد سكيرج لأنها توجهت فقط إلى الطائفة التجانية بوهراني الجزائرية.

تسجيل كل طرائف الرحلة البحرية سواء من باب المباهات أوالحكي، أو من باب ذكر التوفيق الذي رافق هذا الفقيه والعناية الربانية به[lxxi]

يقدم السودي[lxxii] نصائح كلما رغبوا في مهاجرة البر وركوب السفينة بالساحل المغربي، ويقدم خاصة حكمه على مرآئيه بميناء طنجة من هذه النصائح:" ليتم استقبالك بوجه حسن، وتمنح مقاما عليك أن تصحب بعض الهدايا للرياس وأن تتحفهم كل مرة ببعض التحف والأعطيات، وتقدم لهم مأكولات أو نقودا" إشارة إلى سيادة سلطة الرياس، إذ هو المنفرد في المراكب بالقرار ويكون معظم الركاب منعزلين ويتم إعداد الوجبات والإطعام بشكل فردي، وليس هناك مطاعم تابعة للسفينة وتقدم واجبات، كما يضيف إلى منطق الرشوة للحصول على المكان الملائم والناعم.

مشاهد الغرابة البحرية

حبلت الرحلات السالفة الذكر بمشاهد مثيرة حملت من العجائبية والغرائبية ما شكل معظم مادتها السردية، فهي العنصر الذي أثار إعجاب الحاكي أو أثر في بعض الربابنة منا هو مثبت عند السودي الفاسي الذي يقول: "ثم نهضنا منها وحلنا بلاد الإسكندرية ولما رسونا بمرساها،جاءنا رئيس بواخرها على قاعدة تفتيشهم فنزلنا إليها[...] وبمجرد نزولنا إليها ذهبنا إلى الحمام مع إخواننا الحاضرين معنا في ذلك المقام وهذه المدينة هي ميناء مصر الخطير على البحر"[lxxiii]. المتوسط

وأما الرحلة التي هي عبارة عن رسالة ناصح غيور على الدين، من عبث البحارة وأرباب السفن بالمراسي والسواحل المغربية، فقد أوضح ابن القاضي بن ابي بكر بن يوسف الفونتي السوداني، للسلطان[lxxiv] المغربي تجاوزات أهل البحر ومخالفة عقائدهم لما عليه أهل الاسلام، فقد بين أن أهل المراكب هم أصحاب موبقات ومخالفات شرعية[lxxv]. وهي تبين جانبا من النظرة المحلية وتعبيرا دينيا أخلاقيا واصفا الرياس بالجهل الديني وملاحظا على الطقوس الدينية البحرية الممارسة بالمغرب وسواحله، ملاحظات قدحية لغياب التعلق الحقيقي بالقواعد الدينية واليقين. مما يشكل في نظرنا نوعا من التأريخ لحياة البحارة على السفن والهيئة العامة لمجتمع المراسي، وعوائدهم ومواجهة الطبيعة. كتبه بدافع النهي عن المنكر والأمر بالمعروف، أيام السلطان مولاي سليمان. وألح الفوتي السوداني في نصيحته إلى المولى سليمان على إجبار الرياس الذين ينقلون ويعملون في البحرية

المغربية على توفير الجو الديني، والسماح للركاب من قراءة القرآن فوق المراكب. وأما رحلة الفاسي السودي عبد القادر الحجية: وغرائبية التعامل مع البحر، المثير بسلوكه، وشجاعتهم لنظر الربان الهولندي بين ميناء طنجة وقادس وموانئ المتوسط حتى الترول بالإسكندرية، حيث اعتراف الهولنديون بالفضل للمغاربة وتعجبوا لرباطة جأشهم في المخاطر.

فهذان الأخيران يمثلان جانبا معرفيا فريدا من نوعه إذ علقا على رحلتهما الحجية على ظهر السفينة ما بين الإسكندرية وتونس و العدوتين، الأول(السوداني) والثاني السودي الفاسي. بينما اختار الفقيه سكيرج النظر إلى البحر وجماله واتساع فضاءه وكثرة عجائبه، باعتبار مجال التفكر والتدبر في آيات الله" و لم أر أبهى من منظر زرقة لونه المرونق المرصع...ركض البابور في اللون الابيض على الازرق مع اتساع البحر وصفائه المظلل بظل سمائه...لا تسأل عن بهاء الشمس المنثور ضياؤها على بساطه الواسع الفضاء"[lxxvi]

إفادات تاريخية من السفر البحري

أعتقد أن البحث والعمل التاريخي المرتبط بالبحر، أضفيا صورا وأحكاما ونسجت كما نتصور ونحب أن تكون عليها مراسينا وبحريتنا، لكن تصويب الفكرة يقتضي النظر فيما كان عليه الحال عند الفاعلين كل من جهته وما يشكله البحر عندهم وتحديد وجهة نظر كل فئة إليه سواء العامة ومنهم البحارة على وجه العموم وعامة الناس من المغرب أو فئة العلماء أصحاب الابرام والفصل ومنهم الرياس ونخب المرسى، والفئة الثالثة ونقصد بها الحكام ومن لهم المسؤولية .وحينما نقارب البحر عندهم نكون قد قطعنا شوطا في فهم تاريخ البحرية والعوامل والوظائف ثم نستخلص النتائج ونسهم في الفهم التاريخي ونزيل بعضا من الجهل والغموض عن العلاقة بين البحر والاقتصاد والمجتمع بالمغرب.

البحر عند العامة صورة عجائبية تخضع لأولياء الساحل وللقوى الخارقة، حيث ترتبط الذهنية الساحلية بمجموعة من الطقوس والمعتقدات الموروثة عن المراحل القروسطية في كثير من مرجعياتها ومصادرها. وتعد في عمقها كمتنفس غيبي يلتجئ إليه البحري لاستمداد الفرج أو النصر أو التبرك. وقد يفعلها لإرضاء العيون المحدقة والحريصة على تذويب كل فوارق المتعاملين في مناخ وظيفي لمعظم القيميين على الزوايا والاضرحة المحيطة بالمراسي والسواحل.

إن هذه الرحلات في مجملها انطلقت من الذات، ومن العقل الجمعي للمسلم المغربي، كما انطلقت من تمثلات دينية نمطية اصطدمت بواقع مغاير، من حيث النظم والتقنية والمذاهب الدينية، ومخالف في كليته من حيث المعاملة المبنية في مجتمع السفينة على وسائل مادية وقوانين لا أعراف أو الوجاهة(ما عدا ما عاشه سكيرج) بل على مفهوم أخر. طعى عليها القانون التقني الاوربي. وهذا ما تحاول دراستنا ابرازه. فقد استشف من كلام الرحالة أن هناك فوارق تنظيمية في المراسي والموانئ الاجنبية، ما بين المراسي المغربية؛ فقد ذكروا أن مراسي اسبانيا يسود بها نظام محكم وعناية طبية ونظام التزود وتقنيات الدخول والخروج والمراقبة التقنية للسفن والحمولة، إلى جانب انفراد القباطنة وأمراء البحر بأمر السفن وسيادة نظامهم التراتبي، وليس فوق كلمة الرايس/القبطان قانون يسير وينظم أمر السير في عرض البحر. "القبطان يرغم الحجاج ليلا على النزول إلى البردوز(القبو) رغما على انفسهم"[lxxvii] وذكر التادلي[lxxviii] أن اتحاف الرياس ببعض الهدايا يسمح للراكب بالحصول على مكان ملائم، وعليك تقديم "الهدايا للرياس وأن تتحفهم كل مرة ببعض التحف والأعطيات، وتقدم لهم مأكولات أو نقودا"[lxxix]

ولم تلتقط الصورة المغربية هذه الاحداث والمواقف فحسب بل وضخمت منها في إطار الصراع بين المتدين وغير المتدين، بل إن شواهد الوافدين على مراسينا من الاجانب تؤكد على ذلك فالطبيب الفلندي فاستر مارك[380] يسجل أنه ينظر إلى البحر من المنظور المغربي كمتمرد على الله، لذلك فهو يهيج إذا رتل القرآن[lxxx]. ولعظمة البحر عند البحارة اعتبروه ملك وسلطان، والمراكب بيت الله[...] وقالوا إن المركب والبحر والريح لا يحب القرآن والآذان والصلاة وتمنع المراكب من السير ويفور البحر ويمتنع الريح أن يجيء من وراء المركب لفعل تلك الأمور. ويدافع رياس المراكب عن هذه النظم والقواعد التدبيرية الطقسية في المراكب الشيء الذي أغضب مناوئيه من المخالفين وأطلقوا على بعضهم ألقابا وتسميات كثيرة :

" وما رأيت أحدا أشد كفرا وظلما من أهل المراكب مثل مركب كلب العقود،فرعون هذه الأمة رئيس كليب الطرابلسي"[381] هذا نموذج من مواقف تافقيه المسافر من ربان [رياس] بحريين مغاربة تعبر بالكامل عن تعاطي الذهنية والثقافة المغربية من البحرية والملاحة البحرية، إذ نجد حالة

---

[380] (E .wester mark) عالم فلندي زار المغرب ووقف عند ملاحظات الموانئ بالبلد في بداية القرن 20.

[381]) يوسف الطرابلسي قائد سفينة بمرسى سلا ،أصله من طرابلس كان رئيسا لسفينة على عهد سيدي محمد بن عبد الله، يحمل 14 مدفعا حسب القنصل شيني الفرنسي، و12 مدفعا 120بحارا كما هو عند الضعيف في تاريخه،سنة1789.ص196/195. انظر شكاية الدين للفونتي السوداني، مصدر مذكور ،ص 107

وموقف مخالف من فقيه مغربي من ربابنة هولنديين عملوا في نقل الحجاج المغاربة بحرا إلى الاسكندرية مرورا بمالقة ومرورا باسبانيا و إزمير وحدثت فيها معيقات وأمواج لم يسطع معها الرياس فعل أي شيء، مما يبين أن الملاحة وتسيير البحر ينسحب على فعل العقلية المحلية ومزاجها، ولنترك أحد ركابها يخبرنا بالحدث:

" نهضنا من ثغر طنجة على باخرة هولندية وسرنا في البحر محاذيا لبر الأندلس إلى أن وصلنا لمالقة أعادها الله دار الإسلام بجاه النبي عليه الصلاة والسلام ،وما رأينا من ثغر طنجة إلى هنا عطب ولا حصل لنا وصب... ثم نهضنا منها بحرا قاصدين بلد مالطة،..ثم نهضنا منها بحرا قاصدين بلد أزمير فرأينا من البحر عجبا وصارت الأمواج تموج في وسط المركب كالجبال وحصل للجميع ما أوجبت وصبا.

لا أركب البحر أخشى علـــــي منـــه المعاطـــب

طين أنا وهو مـــــــــــاء والطين في الماء دائب.

فتكلمت مع الريس فقال لي لابد من تسع ساعات من هذا العذاب البائس لأنه بحر جو الكبريت حقا . فلابد من ميل جميع البواخر فيه صدقا.فاستعنت بالله بأذكار، وقرأت ألفا من قل هو الله أحد بالبسملة وفرقتها على جماعتي بلا إنكار، فالهد البحر الهدادا كليا وشاهدنا كرامة لهذه الأذكار جليا قبل فوات التسع ساعات بكثير فتعجب رئيس الباخرة وحصل لنا شفاعة البشير النذير، ومن اتفاقات هذا الرئيس أني كنت فتحت مع أصحابي مناسك الحج وابن عاشر فكنت مهما فتحت القراءة و إلا فيأتي يستمع ويصير يبكي قهرا ويتشهد بالإشارة ويقول لي مع ترجمانه هذا هو الدين الحنفي الذي ليس بعده دين ظاهر وصار من جملة خدمنا ونحن المتحكمون فيه بعطفة نبينا..ودخلنا أزمير التي كانت عثمان أيام محمد رشاد خان "[lxxxi]

لكن يمكن عموما استنتاج عدة فوائد من الرحلات البحرية المغربية الاربع، على وجه الخصوص، ومن زينة النحر بعلوم البحر. حيث أبرزت اختلاف التقنية المغربية والإقامة البحرية المتوفرة وكذلك طريقة ولوج الفضاءات البحرية وتعامل الإدارة والربابنة مع المسافرين، كما تبين البون الشاسع بين الاليات المغربية والاوربية، من جهة، ومن جهة أخرى، تحيط الرحلة بالقضية البحرية من عدة جوانب، ترافق الذهنية القارية للمغربي في عرض البحر، وتصورها للأمواج

وترصد أنواع السفن والقطع، واشغال الصيانة والاعتناء بالسير البحري، إلى قضايا أكثر شمولية من قبيل الاعداد الضخمة التي اختارت السير عبر الطرق البحرية بدل القوافل البحرية. غير أنها حملت مواقف متناقضة ومتباينة - بين النماذج المذكورة - من رحالة إلى أخرى، وأماطت اللثام المواقف والتحولات العميقة للمجتمع، وأبانت عن المناخ العام السائد حول السفر البحري ما بين القرنين التاسع عشر و بداية العشرين.

المواقف من تدبيرات المغاربة

نظر الإنسان إلى البحر مند القديم نظرة ممزوجة بين ما هو ديني غيبي وخرافي أسطوري فلم يستطع الفصل بينهما، وجعل من البحر مجال التناقض المستمر. إذ يبدو كعنصر وبنية متغيرة ومتذبذبة يجب الحذر معها. لقد جعل من البحر حسب الذهنيات قديما حاجزا وحدودا طبيعية، بين عالم الحضارات وعالم البرابرة[382]، وصاغت الذهنية أحداثا تبنتها جميع الحضارات. سواء منها الأوربية أو العربية خاصة بالبحر الأبيض المتوسط[383] الذي تتجاور فيه حضارات لها خصائص مشتركة وذهنية تتقاسمها نفس الأحاسيس والمواقف نحو البحر، سواء في الاستجابة أو الخوف والرهبة من المجهول الذي لا يمكن التبوء به، واستحالة لسيطرة على قواه أو خوض عبابه في تحد ي للمخاطر التي نصبتها الذهنية([lxxxii]) سواء من قصص خيالية وعاطفية[384].

فعلاوة على كون البحر عنصرا مهما لا غنى عنه سواء في التغذية والطاقة أو الاستشفاء وفي انتشار الثقافات بين البشر في مناطق متباعدة يحاول السفر البحري التقريب بينها جميعا. وهذا الغنى وهذه الاهمية تدفعنا إلى الانتقال للحديث عن اليومي بالنسبة للبحارة وذويهم وما يتعلقه، وتسجيل أهم المواقف النفسية والنظر في معتقدات أهلها وكيف يتعاملون مع محيطهم المائي. لقد أطلق القدماء تسميات عظمائهم على البحار و المجالات المائية بل هناك من خصص بحرا أو نهرا بإله

---

[382] Daniel, Amaldi, L'océan et la mer Dans le monde arabe, in, **frontières et zone de contacte dans la méditerranée du 1[er] Au XIX[éme] siècle.** Tanger 1998 actes du IV[éme] séminaire Maroco. Italien Cordonnier par M. kaddouri. OMNIA RABAT. P 44.

[383]) تقول الأسطورة بأن هرقل صاحب الأعمدة المشهورة المتوسط وصلته شكاية من ساكنة الأندلس حول عبث البرابرة بأراضيهم و طلبوا منه أن يجعل بينهما سدا يرد عليهم غزوات فأمر بحفر البحر الأبيض و إغراقه بماء المحيط و فصل بين عالمين. أنظر **البحر المتوسط**, إميل لودفيغ. ترجمة عادل زعيتر. مصر دار المعارف 1952 ص 36.

[384]) على سبيل المثال نورد موقف الفقيه سكيرج من البحر"إن الدهش يستولي على كل من خاض لجج البحر،وكل من لم يركبه إذا رأى موجه وثبجه حتى قيل في أمثال العامة:راكبه مفقود وخارده كأنه مولود،غير أنه يهون على راكبه إن كان لاثبات القلب من عبوره بمراكبه.." ص 8.

معين، يستمدون منها قوتهم و يستعينون بها في شتى تلك المجالات[385] و درء صعوباتها. إنها تتوفر كسند معنوي في المقابل نجد كتابات تحذر من مجاهل المحيط. و تؤكد زعما أن نواحيه غير مناسبة للعيش[386]. وتقودنا محاولة الكشف عن علاقة الإنسان بالبحر إلى الأسطورة و الخرافة كما يدفعنا إستكناه الموروث الديني- الشرائع السماوية كلها- ودرجة تحكمه في ارتياد البحر؟ وإلى أي حد انتشرت الأسطورة بين الأمم البحرية ؟

" فالمحيط ذاك البحر العظيم الذي لا نعرف له حدود، تياراته شديدة الهيجان أمواجه ضخمة، فهو أحيانا يغمر السواحل و أحيانا أخرى يتراجع كثيرا([lxxxiii])" كما حاولت العقلية الخلط بين ما هو ملاحي محض و ديني، أي التقرب من الآلهة في الحضارات القديمة وجعلت للموانئ و البحار آلهة خلدتها في شكل تماثيل([lxxxiv])

وإما موقف فئة العلماء ومثقفي المراسي والمراكبية فهو على الشكل التالي:

البحر عنصر طبيعي متقلب يأخذ جزاف ويعطي جزافا ومصدر الخيرات وفيه بأس شديد، من أحسن تدبيره أخذ بقسط وافر وحظ كبير. ولهذا فالعرب أبناء الصحراء لا تحسن إن ركوب الجمال وتيسير القافلة ويظهر هذا في الرسالة الشهيرة للمولى إسماعيل سلطان المغرب إلى مطالبي عرش انجلترا. وفي زمن المولى سليمان رفع الحجاج رسالة نكير على البحارة مطالبين برفع هذا المنكر وبينوه.

"إذا عرفت هذا علمت أنه يجب عليك وجوبا فرضا حتما أن تأمر أهل مراكبك أن يتوبوا من هذا العمل إن كان عندهم،وأن تأمرهم بالأذان والصلاة عند كل وقت، وأن يقرؤوا ما تيسر من القرآن في مراكبهم...وأن يأمروا أهل مراكبهم بالتوبة وترك كل ما ذكرت من أفعالهم[lxxxv].

يبدوا أن إنكار الفقهاء أفعال الرياس جاء من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما يبدو أنه إيمان منهم بدور الصناعة والكفاءة لا اعتمادا على الأحكام المسبقة.

ومما يسترعي الانتباه في هذه الثورة التي حدثت في المواصلات البحرية أنها جاءت قبل ظهور المراكب البخارية بعدة عقود. ومما لاشك فيه أن الثورة التي شهدتها المواصلات البحرية خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر قد دفعت عددا كبيرا من الحجاج السودانيين لاختيار طريق

---

[385]) يقول أفلاطون إن نعت المحيط بالأطلسي هي نسبة للملك أطلس الذي أطلق اسمه أيضا على جزر و جبال. أما هيرودوت فيرى أن الأطلسيين ينتسبون لجبل أطارت، أنظر البحر في المغرب القديم محمد مجذوب في "**البحر في تاريخ المغرب** تنسيق رقية بلمقدم م. كلية الآداب المحمية سلسلة ندوات رقم 7. المحمدية 1999 ص147.

[386]) ملاحظة الإغريقي سترابون نقلا عن محمد مجذوب نفسه. ص 158.

البحر وبالتالي التعويض عن البرية والصحراء، وهذا التنقل يفتق أعينهم على معطيات جديدة وثقافة بديلة.

ما يطرح التساؤل هو هذا الاتفاق بين عدة ثقافات حول نظرهم إلى البحر مما جعل الكثير من علماء الأنتروبولوجيا في مقارناتهم لهذه الثقافات ذات الملامح المتطابقة، يتساءلون هل هو انتشار ثقافي أم هو تطور مستقل؟[387] حتى إن جميع شعوب المتوسط تتقاسمها ملامح أسطورية مشتركة منها الرهبة و الخوف من البحر و تعظيم جانبه و ذلك من خلال النظرة إلى ثقافات مختلفة على الرغم من الاختلاف في الإبداع الإنساني في الزمان و المكان، نجد أن القاسم المشترك هو الرهبة من المستحيل فكيف سيكون رد فعل الشعوب البحرية؟ على الرغم من الوفرة الطبيعية للمواد الخام و المواد الغذائية و موارد اقتصادية معادن و أحجار ثمينة و أيضا الأمان النسبي باعتبار البحر حاجز طبيعي من الأعداء[lxxxvi].

فهل يمكن افتراض و جود خبرات موحدة لدى هذه الحضارات التي تنتشر فيها هذه الأساطير؟ أم أن الأمر لا يعدو أن يكون مجموعة من الأساطير تم ترويجها للإنفراد بالسيطرة و إبعاد المنافسين؟ أم أن البحر مهيئ لتلك الأساطير نظرا لصعوبة الارتياد. فالبحر كما يوفر عناصر إيجابية فإنه معرض لأخطار تنمو مع كثافة استغلال البحارة والصيادين و التجار هذا في التفكير الملحمي الأسطوري القديم. فماذا عن النظرة الدينية الغيبية عن البحر؟ على الرغم من كون البحرية أو الملاحة القديمة تحت عنوان الحظ[388] كما يصفها بروديل([lxxxvii])، نظرا لوجود إكراهات مادية كالتقنية الخفيفة أو عوامل السرقة والقرصنة والرياح والعواصف و غيرها من الأمور التي تجبر السفن على التعطل والتوقف أو الإفلاس المباشر للقطع البحرية.

كما أن الجغرافيين العرب يصفون السواحل والبحار وأعطوا لها أوصافا من قبيل الظلمات. مما يزيد من كراهة البحر في اللاوعي المغربي، وربط الاشتغال فيه بوضعية الاسترقاق. ولكون مهنة البحر غير مصنفة من المهن الشريفة وغير الشريفة. لم يتطرق ابن خلدون[lxxxviii] إلى مهنة السماكة لا ضمن الحرف والمهن الشريفة و لا غيرها، وهو ما زاد من هذه الصورة النمطية؛ صور مرتبة

---

[387]) يقول إليشا ليندر: "نحتاج لمعرفة أوضاع الخلفية التاريخية للاعتقادات الدينية و الممارسات الطقوسية و الأنماط الاجتماعية للسلوك التي تتيح لها مثل ذلك التقبل و يتعين علينا أيضا أن نكتشف إن كانت هناك مسافة مكانية قصوى بين المرسل و المستقبل تسمح بمثل هذا الانتقال و أي حيز زمني تتم فيه عملية الانتشار؟ أنظر، رهبة البحر لدى البشر في، البحر و التاريخ ، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، أبريل 2005 عدد 314 ص 40.

[388]) يقول برودل: "إذا نظرنا إلى الملاحة القديمة، وجدناها تعج بالمتغيرات الإضافية و الطارئة: عنوان الحظ في البحر يشمل قائمة الكوارث العديدة التي لا يحصيها العد"

الدونية التي يوصف بها السماكون لكون أغلبيتهم من العجم. حتى قيل أن من يسكن السواحل يتصف بالخفة والطيش، والفقر وهم أشبه بخلق السودان[lxxxix]. لقد انقلب هذا المجال بعد السيطرة العربية فجعلوا منه معبرا نحو الضفة الأخرى، واستخدموا فيه الأعاجم وهي من أعمال الخدم. يقول عنها أحد الأعراب: " يكنسون طرقنا ويخرزون خفافنا ويحكون ثيابا"[xc]. بالرغم من غنى منتوج البحر من الناحية الاقتصادية (الغنيمة/التغذية) فهل استبعد لاختصاصه بفئة الخدم والعجم الذين يرتبون في هامش المجتمع، وينظر إليهم على أنهم أصحاب فتن "صارت أمم العجم خولا لهم أي عبيد وموالي لهم". أما الرحالة ابن بطوطة فيقول عن البحارة فقراء سود يتحكم فيهم العرب الذين يقطنون في البر[xci].

إن العمليات البحرية ليست سهلة وميسرة فتتطلب خبرة وتؤدة دائمة حيث نجد البعض يتحدث عن مفارقة في تكتيكات الحرب البحرية والبرية، فصورهما كلعبتين.

"المعركة البرية تشبه لعبة الشطرنج بينما المعركة البحرية تشبه لعبة النرد حيث يضع اللعب قطعة في الأماكن المختارة، ثم ينتظر ما يأتي به الزهر الذي قد يأتي بشيء لا يتفق مع خطته. و بالتالي تصبح تلك الخطة بلا فائدة، ويصبح من غير المجدي وضع الخطط. فهذا ما يحدث في المعركة البحرية. حيث حركتا الرياح والبحر في تغير دائم"[xcii].

رصد بعض بين الطقوس البحرية بالبحر الأبيض المتوسط

يمكن تجسيد الجانب الفلكلوري أو الاحتفالي المتمثل في مجموعة من الطقوس في الامور التالية:

طقوس مواجهة الاخطار:

ويبدو أن القراءة والمطالعة بالبحر عند المغاربة ليست على نفس المستوى وليست بالسهولة بمكان، هناك من يرفض القراءة إذا كانت من الناحية الدينية نظرا لذريعة الزحام كما هو مثبت في نوازل الونشريسي. وحتى لمن يستطيع منهم القراءة وتوفرت له شروط المطالعة فإن العتاب عليه والممانعة لظروف ومنطلقات عرفية، وطقوس البحارة الواجب السلوك عليها في البواخر. ومنهم فريق يلح على القراءة وهم الرياس البحريين الكبار، ومن يوجهون المراكب والسفن وسبق أن قدمنا نصائح من جرب البحر وتوصياته لهم بالمطالعة وقبول كل جديد. إلى جانب هذا الفريق نجد المبحرين يلحون على القراءة وتنفيذ الأوراد ومنها حزب البحر الشاذلي، وحزب من القرآن صباحا ومساء، ومن أخبار نجاة السفن ما قدمه عبد القادر الفاسي السودي في رحلته إلى الحج على متن

سفينة هولندية انطلاقا من طنجة وتعجب الربابنة الاجانب من كرامة وفضل الادعية التي قاموا بها كما مر بنا أعلاه.في حين أن قراءة سور القرآن جرت به العادة عند المغاربة منذ القديم وهنا نسجل اقدام مجموعة من المبحرين عليها سورة الاخلاص[xciii] وقراءة توسلات الشاذلي المعروفة بحزب البحر، أو الاستخارة قبل السفر إلى الحج، والتوسل بأقطاب الطرق الصوفية "ولما ازمعت على السفر [...] صرت أنظر في الطريقة التي اتمشى عليها[...] فأعددت كراء البابور ذهابا وإيابا[...]وقدمت همة الشيخ التجاني في بلوغ الأماني"[xciv] كما يشتغل معظم الركاب بقراءة اللطيف عند كل خطر والتوسل الانبياء والرسل والاقدام على قراءة القرآن إلا ما كان من نهي في بعض السفن كما مر بنا مع الفونتي .أو الاستصراخ والتضرع والعويل "وامام هذا الخطر الداهم شرعت النساء يصحن والرجال يودع بعضهم بعضا، وكأن الكل يعتقد أن المركب سيغرق لا محالة"([xcv])

طقوس الوداع والاستقبال :

عادة تقوم سلطات المرسى بإعداد وتهيئة أجواء تسفير الركب الحجي، كما يحرص معظم العوائل المغربية على مرافقة وتوديع المسافر "يرافقونه إلى المرسى وإلى أن يركب البابور"[xcvi] ويكون هذا لمن علت مكانته في قومه. أو كان أهله حاضري المدينة المينائية. وكما هو الحال في التوديع، فإن الاستقبال لا يقل أهمية في مثل هذه الطقوس التي ذكرنا نتفا نمها حرصا على الاختصار. وتحظى الوفود الدولية والبعثات السفارية المتوجهة إلى المغرب، بمجموعة من الطقوس كالقيام بمشاهد فلكلورية والتمييز بسباق الخيل وطلقات المدافع، إظهار للشجاعة المغربية "بألعاب الفروسية الفوضوية والعنيفة التي تجري على الشاطئ تشريفا لهم"[xcvii] على حسب شهادة لويس دو شينيي الذي رافق البعثة الديبلوماسية الفرنسية إلى المغرب للتفاوض حول الاسرى، واورد طريقة الاستقبال الخاص بالدبلوماسيين الاجانب "ولما حل مبعوثو الملك لويس الخامس عشر بميناء مدينة أسفي على متن ثلاث بواخر حربية كبيرة. وكانت البعثة[389] قد حظيت باستقبال من طراز رفيع عند نزولها على اليابسة، غير أن انطباعهم لم يكن طيبا عند رؤيته تلك الأراضي الجرداء، كما أنهم لم يعجبوا بألعاب الفروسية الفوضوية والعنيفة التي تجري على الشاطئ تشريفا لهم، لافتقارها للدقة والانتظام وتعاطفهم مع الفرسان ذوي الألبسة الفاقعة والحركات الصاخبة([xcviii]).

---

[389]) الفرنسية التي تضمّ عددا كبيرا من الأعضاء جرى انتقاؤهم بعناية.

طقوس افتداء الاسرى :

يشكل وقع القرصنة على الاسر والمجتمع حدثا يجمع بين ما هو نفسي ومادي وديني وسياسي واقتصادي. فقضية افتكاك اسرى مسلمين بين يدي النصارى، حيث تقوم بعض النساء بالتوسلات واللوذ بحرم الاضرحة والصوم فيها واخذ النذور من نقباء هذه المزارات إن تم تسريح زوج أو أخ أو ابن واب. حتى أن هذه التوسلات استطاعت الحصول على تعاطف مشوب بعاطفة دينية، حيث يتعاضد له الكل، من أجل الاستخلاص ورفع الاسترقاق عبر الفداء(xcix) هذا الاعتصام المدر للعاطفة وللأخوة الإسلامية، أبرزت لنا جانبا من اليومي بل إنها صورت ما يتعلق بالحياة الاجتماعية؛ كمحاولة اشهاد العامة وحملهم على الاعتراف بابن الاسير وبزوجته الاولى، وإمكانية أن تطلب زوجة الاسير الطلاق إذا مضت بعض السنون مثلا(c) وتوالت العادات والطقوس ببعض الأسر إلى كون مسؤولية ابناءهم الاسرى مسؤولية ملقاة على عاتق جماعة المسلمين، وحتى يستعان ببيت مال المسلمين لفدائهم(ci).أو يلتمس الناس من السلاطين مقايضة الأسرى المسيحيين بالمسلمين لتخفيف تكلفة الافتكاك مقابل المال أو اعتبار ما يقوم به الاسير بمثابة اجرة تحسب لافتكاكه(cii). كما كانت تنظم جمع التبرعات في المساجد(ciii).

بالإضافة إلى هذه الوسائل المادية التي أتينا على ذكرها كانت هناك طرق روحانية مختلفة، يتبناها الاسير أو قبيلته وعشيرته، حيث يلتجئ أهله إلى ضريح ولي من أولياء الساحل التماسا لشفاعة الأولياء والصالحين الذين تنسب لهم كفاءات خاصة. من جهة ثانية، كان هناك أولياء استمروا بعد وفاتهم في حل مثل هذه الوسائل، التي لم تكن عرضية في حياتهم فقط بل كان في استطاعتهم تحقيق افتداء الأسرى إلى جانب القيام بإجراءات وقائية لتلافي سقوط المسافرين من المغاربة في قبضة النصارى. وكان لهؤلاء الأولياء، دعوات وتوسلات توجه إليهم. إن تقديس الأولياء والحديث عن معجزاتهم كانت بالنسبة للأسير وكذا عائلته بمثابة عزاء وتسلية بحيث يجعلهم ذلك يفكرون على الأقل في إمكانية حدوث معجزة الخلاص[390]. إن أقدم مثل معروف لدينا حول هذا التدخل المعجز يتعلق بأحد أكابر العلماء القرطبيين، ألا وهو المحدث والمفسر المشهور بقي بن مخلد[391]. يقال إن امرأة لجأت إليه بعد ان يئست من جمع كلفة افتداء ابنها الأسير عند النصارى، لكن بعدئذ حكى

---

[390] لا تقتصر مكانة هؤلاء السادة في الافتكاك بل إنهم يلعبون دور الأطباء النفسانيين أيضا.

[391] توفي سنة 889.

الأسير قائلا إن السلاسل الحديدية في كعبيه سرعان ما كسرت بحيث لم يستطع حتى القساوسة إعادة القيد إليه. وأدركوا أنه يحظى بروحانية ربانية خاصة تركوه حرا ورافقوه إلى بلاد المغرب (civ)

إن مثل هذه المعجزات تنسب إلى صلحاء العصور اللاحقة. كالزاهد الأندلسي الشرفي من القرن الثاني عشر، الذي عرف عنه أنه يرخي الأغلال عن رقبته[392]، واشتهر بقطع المسافات الطويلة في وقت وجيز(cv). مما يحكى أيضا أن الشاطبي، وهو من الصلحاء الأندلسيين من نفس المرحلة، صد مائة من الفرسان المسيحيين الذين راموا القبض عليه. وفي واقعة أخرى عرف كيف يغير اتجاه الرياح بكيفية جعلت سفينة مسيحية محملة بالأسرى المسلمين تتكسر في اليابسة بحيث تحرر الأسرى المسلمون ولقي المسيحيون ما يستحقونه من جزاء (cvi). كما كان الولي الأندلسي الشستري ينادي على الأسرى بأسمائهم وكل من نادى عليه يتمكن من العودة والتحرر في اليوم القادم(cvii) ومن بين الأولياء المشهورين في مدينة سبتة "ريحان الأسود"[393]. يقال إن زوجة ملاح أسر من طرف المسيحيين طلبت منه التدخل لافتداء زوجها. ولم يمر وقت طويل على دعاء الولي حتى عاد البحار عند زوجته سالما. هكذا كان ريحان الأسود يعتبر الولي والحامي الأول للملاحين والمسافرين. من ثم أصبح قبره من أهم القبور التي يتعبد فيها في سبتة كما يعدون الدفن بجواره شرفا عظيما(cviii).وفي فاس حوالي منتصف القرن السادس عشر، كان يعيش الولي الصالح رضوان الجنوي نجل أحد الجنويين[cix]. إن الكرامات التي تنسب إليه تتعلق ببركته في الاستشفاء وفي افتداء الأسرى والعثور على المواد الضائعة أو المسروقة أو العبيد الهاربين[394] وكذا الاحتماء من العديد من الكوارث الطبيعية كالحريق وانحطام المنازل(cx). إن الروايات التي تشاع حول دور كل هؤلاء في فداء الأسرى تعبر عن التأثير الذي لعبته هذه الظاهرة في حياة البحارة وهموم الناس.

392) فقد تمكن برفقة صديق لـه من قطع مسافة، استغرق قطعها يوما كاملا خلال أخذهما أسيرين في البلاد المسيحية، قطعها في ساعات قليلة عائدا إلى بلاده

393) لقد كان هذا الشخص مقدسا خلال القرون الوسطى لدى الخاصة والعامة. كان اسمه في الحقيقة بمثابة رمز: ريحان الذي يعني الحبق و كثيرا ما يطلق على العبيد، كما أن لفظة الأسود تدل على نفس المعنى.

394) عمل رضوان الجنوي، جهده قصد تحرير أسرى الحرب بعد معركة وادي المخازن التي دارت بين المغرب والبرتغال. لقد أدان حينئذ السلطان احمد المنصور عندما اختار تحرير الأسارى المسيحيين بالمال بدل استبدالهم بالأسرى المسلمين عند البرتغال.

طقوس تأليه القوة البحرية:

يقول السوداني أن أرباب المركب" يقولون إن أبا العباس هو الذي ينجي المراكب في البحر، وقلت لهم اتقوا الله ولا ينجي في البحر ولا في البر أحد إلا الله "[cxi] ويجابهون الاخطار المحدقة بهم ب" رمي الفلوس أو الزيت أو الكبش المذبوح في البحر لأبي العباس السبتي، وندائهم ب يا أبا العباس ثلاث مرات وقت هيجان الريح"[cxii]كما يمتنعون عن ممارسة الشعائر الدينية في المراكب المغربية لأنهم يؤمنون أن المركب تهلك بقراءة القرآن، وذلك ظاهر لأن القرآن هو أعظم المعجزات والصنم لا يثبت مع أعظم المعجزات الذي هو القرآن"[cxiii] ومن الطقوس المعمول بها في البحر الابيض المتوسط القطع والايمان بوجود أماكن محروسة في ميناء جزيرة لامبادوز ومناعة كنيستها المعدة كملجأ للسفن حيث يقف الجميع عاجزون عن فهم ما يجري في ذلك الميناء، خاصة الرهبان والربان وجميع المسافرين([cxiv]). وتفرض على طواقم السفن النصرانية حمل المبشرين في الرحلات التجارية وغيرها و أيضا الموجهين والمرشدين الذين يعملون كمهنيين نفسانيين و يعالجون الحالات المستعصية في ظهر السفن عند اشتداد الأهوال و عواصف البحر.

"يقوم الكاردينال برمي خاتم ذهبي ثقيل قديم مرصع بحجارة ثمينة و يمسكه عاليا ليرى التماعه كل واحد على نور الشمس و هنالك يخفض ذراعه و يصرح قائلا أيها البحر نتزوجك بهذا الخاتم. ثم يقذف بالخاتم بين الأمواج تلك هي أعراس البندقية بالبحر الأدرياني"([cxv])

هذا نموذج من الطقوس الممارسة عند شعوب البحر الابيض المتوسط ،قبلها من قبلها وذمها من ذمها من الرحالة، ولكنها صارت عملا وطقسا ممارسا عند مواجهة أهوال البحر و معالجة حالات الخوف و الهلع التي تصيب البحارة.

وكخلاصة لهذا العمل الذي يبين اختلاف اراء اصحابه باختلاف مرجعياتهم الفكرية، حيث نرصد عند التادلي حديثا عن السفينة وأنواعها والمأكولات والأشرعة وكيفية السير بينما الفونتي، قام بجرد المنكرات والبدع بين البحارة (الطقس اليومي)الرياح، البوب، الإله، حال المرأة على السفينة، القراءة الممنوعة[395]، النجدة، تسمية الرايس والسفينة، ومجال الإبحار. بينما نجد كلا من السودي وسكيرج بحديث مخالف إذ ابرزا أهوالا البحر وصعوبات الابحار بالبحر الابيض المتوسط وكيفية

[395]) لو نظرنا ما قدمه عبد القادر السودي ،في رحلته الكبرى، طبعة الشراطين فاس الحجرية.لقلنا أن النمط الذي تحدث عنه الفونتي مخالف لما قام به الرياس الهولنديون معهم.

تلافي الاخطار بالالتزام بترديد بعض الاوراد والتوسلات. ولكن الفقيه الحيوني الذي اتى من عمق المغرب انشغل بالخلاص الفردي وتشخيص مجتمع السفينة وأهم المعاملات التي تحدث بين الرياس والركاب وعن العلاقات واللقاءات البحرية وكيفية ولوج مراسي الدول وموانئها وتحدث عن الاختلافات بين السفن المغربية ونظيراتها الاجنبية ،كما وصفها أيضا ابراهيم التادلي وتوحدا في المنطلق بالحرص على سلامة وتكوين ربابنة محليين "الهدف والنتيجة".ومن البديهي أن تبادل الأسرى كان فيه عزاء وتسلية لأولئك الذين لم يساقوا بعد إلى أسواق النخاسة. لبعض المحظوظين الذين كانوا يوضعون بعد عملية تصفية أولية، تحت تصرف الملوك قصد استخدامهم والمتاجرة فيهم. في حين أن الأغلبية العظمى من الأسرى كان يتم توزيعها خفية بأسرع ما يمكن، حول أسواق، حيث يتم التوزيع على الصعيد المغاربي[cxvi].إلى جانب الاهتمام الرسمي، كانت هناك مبادرات فردية أدت إلى إحداث وظيفة خاصة عرفت "بالفكاك". وغالبا ما يكون تاجرا وصاحب علاقات دولية يسهر على افتداء الأسرى خلال رحلاته التجارية. وكان يعقد العقود مع المالكين الأحرار لأجل افتداء أسرى معينين من البلاد المسيحية مقابل مبلغ مالي محدد.

مناهج التاريخ





علم الببليوغرافيا وأهميته في حقل الدراسات التاريخية

وليد موحن
باحث في التاريخ

- مفهوم الببليوغرافيا Bibliographie

إن الثورة المعلوماتية التي عرفها العالم إبان القرن الماضي ، لم تقتصر على مجال دون غيره، بل مست جميع ميادين الحياة الإنسانية، و لم ينج الوعاء المعرفي/الكتاب، من أثر هذه الثورة ، بل أصبح هو نفسه، مُنافَـــــساً من قبل حوامل أخرى للمعرفة أكثر دقة وأخف حملا وأكبر سعة . إلا أن ذلك لم ينقص من شأنه، بقدر ما كان خادما طيعا له، ساهم في التأريخ له وتوثيقه والتعريف به على أوسع نطاق، فازدهرت العلوم التي تتخذه موضوعا لها وتشعبت. لأن من أولى شروط الإبداع العلمي، معرفة السابق بتجميعه ونشره، "حفظا للطاقات والأموال والأوقات" ، وهذا ما يدخل في صميم العمل البيبليوغرافي.

ففي الوقت الذي عرفت فيه أوروبا انتشارا وذيوعا لعلم الببليوغرافيا منذ عصر النهضة والأنوار .لازال هذا المصطلح إلى حدود يومنا هذا في عالمنا العربي والمغرب جزء منه مبهما وغامضا،تختلف دلالاتها من مفكر إلى أخر ،ومن علم إلى أخر.فهل ذلك راجع إلى أن كلمة ببليوغرافيا لم ترد في المعاجم العربية، أم أن العرب لا يهتمون بالجوانب الشكلية والأمور التنظيمية. وتوجد كلمات في المعاجم العربية قريبة إلى معنى ودلالات الببليوغرافيا ،كالفهارس وهي أيضا كلمة فارسية معربة معناها الكتاب الذي تجمع فيه أسماء الكتب، وتطلق أيضاً على قائمة محتويات الكتاب.كما تطلق على هذه الببليوغرافيات أسماء قوائم ،أو أوعية[396]. وقد اقترح بعض الببليوغرافيين العرب اسم "الوراقة"كبديل لمصطلح الببليوغرافيا الأجنبي ،غير أن هذا المصطلح لم يلق رواجا وشيوعا في منطقتنا العربية .

ببليوغرافيا : وتسمى باللغة الفرنسية Bibliographie ويقبلها في الانجليزية كلمة Bibliography أما في الاسبانية Bibliographia وهي من المفاهيم والكلمات والمصطلحات الدخيلة على اللغة العربية ،فهي مشتقة من الكلمة الاغريقية BiblionGraphiaويمكن تقسيمها الى قسمين Biblionومعناه كتيب صغير ،و Graphia وتعني الكتابة أو النسخ ،وكان معناها يتركب من هاتين الكلمتين فكانت تدل على "كتابة الكتب أو نسخ الكتب[397]".والتعريف الشائع لببليوغرافيا هو قائمة الكتب أو غيرها من الإنتاج الفكري،وبالتالي فهي علم القوائم وقوائم الانتاج الفكري بعامة .. ويمكن أيضا تعرف الببليوغرافيا بكونها قائمة من المراجع مرتبة وفقا لتصنيف معين قصد السماح لجمهرة القراء معرفة الإنتاج المعرفي في حقل معين ،ومجال محدد[398] وقد عرفت منظمة اليونسكو سنة 1950الببليوغرافيا بكونها ذلك الجزء من علم الكتب ،الذي يعالج الفهرس ،وينوه بوسائل الحصول على المعلومات حول المصادر ،وبصورة عامة ،يمكن القول ،إن الببليوغرافيا تشكل جزءا من علم الكتاب،وإنها تستند إلى البحث ،والدلالة والوصف،والتنظيم ،بهدف تكوين فهارس للمؤلفات قصد التعريف بها تعريفا منظما لتسهيل عملية البحث العلمي .

[396]عاطف مظهر ،نشأة علم الببليوغرافيا عند المسلمين : محاولات مبكرة سبقت ابن النديم ومهدت لفهرسته،جريدة الحياة،العدد13132،1999/2/19،الموافق1419/11/3،ص18

[397]ليلى عبد الواحد فرحان،الببليوغرافيا تطورها انواعها أساليب أعدادها،الجامعة المستنصرية كلية الاداب،بغداد 1992،ص 11

[398] BOULOGNE, Arlette. Comment rédiger une bibliographie. Paris : Nathan, 2002. p. 5

وحسب قاموس المعاني وهو من القواميس العربية الحديثة نسبيا ،فمعنى البلبليوغرافيا يدل على وصف الكتب والمخطوطات او التعريف بها؛ المراجع؛ المَصَادِر؛ بيان بمؤلفات كاتب او بمطبوعات دار الناشر؛ ؛ فهرس؛ فهرسة الكتب؛ مسرد نقدي بالكتب المتصلة بموضوع أو حقبه أو مؤلف ما. اما حسب القاموس الانجليزي oxford Word power فتعني قائمة من الكتب والمقالات التي يستعين بها الكاتب عندما يكون بصدد كتابة بحث ما.[399]

ويمكن إيراد مجموعة من التعاريف التي تتسع وتضيق طبقا لعاملي المكان والزمان، ومنها:

أ- " هو علم وصف الكتب والتعريف بها ضمن حدود وقواعد معينة «...

ب- " يدل على علم مستقل يعتبر من أهم الفروع لعلوم المكتبات والمعلومات ، حيث تغطي البيبليوغرافيا بدراستها وممارساتها شبكة متداخلة من الموضوعات ، ومجموعة معقدة من الأساليب والمعالجات لأنها تتناول الإنتاج الفكري للإنسان في إطاره الذي يتسع كل يوم ".

ج- " دراسة الكتب (بوصفها) موضوعات مادية بعيدا عن موضوعها أو فحواها الأدبي"

وعموما : فإن البيبليوغرافيا علم مستقل، مجاله الإنتاج الفكري المكتوب ، حصرا وتحقيقا وجمعا وتأريخا وتصنيفا وتوثيقا ووصفا، له قواعده وفلسفته ، وضرورته لا محيد عنها في زماننا أكثر من أي وقت مضى ، للتدفق والانفجار الذي تعرفه مجالات المعلومات والمعرفة الإنسانية والوسائل المعلوماتية، وهو العلم الوحيد القادر على ضبط هذا التدفق وهذا الانفجار المعلوماتي.

وفي الحقيقة يصعب تحديد مفهوم محدد ومضبوط لعلم البلبليوغرافيا،ذلك أن قلة من البلبليوجرافيين فقط هم من اهتموا بتاريخ البيبليوغرافيا[400]. برغم من أن مختلف العلوم والتخصصات والمشارب تشترك في الحاجة الي "البيبليوغرافيات" لكونها غير محصورة في العلوم الإنسانية أو الطبيعية.وتنهل منها مجالات وحقول المعرفة والعلم.

ومعلوم أن الباحث والدارس يصعب عليه الاطلاع على مختلف ما دون حول ميدان تخصصه ،من كتب ودراسات وأبحاث خاصة مع الطفرة التكنولوجية ،والديناميكية المعلوماتية ،وأساليب البحث المتطورة .التي تلزم عليه الاطلاع على ما جاد من أبحاث ومقالات لمسيرة مسار العلم والثقافة والعولمة.وفي ضوء هذا الواقع،أصبح الباحث بحاجة قبل كل شيء إلى مؤلفات تعرفه بما نشر وينشر تباعا في المعارف العامة والمتخصصة،حتى يعرف بوجودها،ويهتدي إليها ،وهو العمل الذي تقوم به

[399]Joanna ;Turnbulle,OXFORD Word power ;Oxford University Presse, Second edition,china 2000,p67"a list of the books and articles that a writer used when he/she was writing a particular book

[400]رودلف بلوم ،البلبليوجرافيا بحث في تعريفها ودلالتها،ترجمة شعبان عبد العزيز خليفة،الدار المصرية اللبنانية،أسوان ط 1،مصر 1996،ص14

البيليوغرافيا بأنواعها المتعددة،وخدماتها المتنوعة .فأهمية البيليوغرافيا تنبع من أهمية المعلومات ذاتها،لأنها الوسيلة الأولى،والأداة الأقوى للسيطرة على هذه المعلومات من خلال تنظيمها ،وتحليلها والتعريف بها .[401]

في السنوات الماضية كان يصعب على الباحث كتابة هوامش ،وإحالات،وتنظيم البيليوغرافيا ،إلا بجهد جهيد ومضني،لكن في وقتنا هذا أصبح كتابة نص البحث متنا وهوامش حسب الطريقة التي يفضلها الباحث وتغييرها بسرعة فائقة حسبا ما تقتضيه رغبته من تعديلات وإضافات،وترتيب البيليوغرافيا حسب الحروف الأبجدية بنقرة واحدة على الفأرة بعد أن كانت هذه العملية تأخذ حيزا هاما من وقت المؤرخ،فضلا عما كان ينجم عند بعض الباحثين من أخطاء في ترتيب المراجع رغم حرصهم على تجنبها.[402] ورغم ذلك هذه البيلليوغرافيات تظل قليلة في عالمنا العربي مقارنة بالدول الأوربية والولايات المتحدة الأميركية.

والتاريخ بكونه مجموعة من الأحداث التي وقعت في الماضي وتشكل أساس الحاضر،ومرآة المستقبل ،من التخصصات التي بحاجة خاصة إلى إنتاج وإخراج "بيبليوغرافيات" نظرا لما يعرفه من حركية وتغييرات مستمرة ،واتجاهات مختلفة ،يصعب معها مسك خيوطه وسبر أغواره سوى بتوفر رصيد بيبليوغرافي وزاد معرفي توفره البيليوغرافيات بمختلف أنواعها وأشكالها.

1- البيليوغرافيا وأنواعها .

يمكن تشبيه البيبليوغرافيا بشجرة، يمتص جذعها بواسطة الجذور من كل المعارف، ثم تتفرع منه الفروع وتتشابك ، وكل فرع يتفرع إلى فروع أخرى وهكذا دواليك ، إلى درجة أصبحت معها الأنواع غير قابلة للتحديد ، لكن مع ذلك يمكن تجميعها في نوعين رئيسيين منهما تتفرع باقي الأنواع أو تندرج ضمنهما وهما:

تنقسم البيليوغرافيا من حيت أشكالها وأنواعها إلى قسمين أساسيان هما البيليوغرافيات العامة والبيليوغرافيات الخاصة ،وتتفرع من كل واحدة منهما الى فروع وأنواع :

أ- البيليوغرافيات العامة

وهي بيبليوجرافيا عامة تشمل مختلف العلوم ،وتبحث في مجمل الحقول ،بكل اللغات ،وتشمل جميع أنواع الإنتاج الفكري من كتب ودوريات،كما تشمل جميع موضوعات المعرفة الإنسانية

[401] عبداللطيف صوفي،مدخل الى علم البيبليوغرافيا والآعمال البيبليوغرافية،دار المريخ للنشر،الرياض، ط1،1995 ، ،ص17

[402] ابراهيم القادري بوتشيش،مستقبل الكتابة التاريخية في عصر العولمة والانترنيت،منشورات زمان،مطبعة النجاح،الدار البيضاء،2001،ص52

،واللغات البشرية،فهي لا تخضع لآية حدود أو قيود موضوعية أو لغوية أو نوعية.[403] وتنقسم هي الأخرى إلى مجموعة من الأقسام والأنواع ، منها الببليوغرافيات العالمية وهي تهتم بكل أنواع الإنتاج المعرفي في الكرة الأرضية ، وهو بدون شك عمل شاق ومستحيل نظرا لما يعرفه العالم من حركية ،وهناك محاولات جادة في هذا المضمار ونذكر على سبيل المثال بيبليوغرافيا مكتبة الكونغرس الأميركية ،ومكتبة باريس الوطنية . وهناك أيضا الببليوغرافيات الوطنية وهي تقوم برصد مجمل ما تم إصداره في بلد معين من كتب ودراسات ، ونذكر منها الببليوغرافية الوطنية المغربية التي تصدرها المكتبة الوطنية سنويا . وذلك حسب ما ينص القانون المنظم للمكتبة الوطنية الصادر بالجريدة الرسمية عدد 5171 بتاريخ 22 دجنبر 2003 (ظهير شريف رقم 1.03. صادر في 11 نونبر 2003 الذي ينص في مادته الثانية على إعداد البيبليوغرافيا الوطنية التي تضم كل ما يصدر بالتراب الوطني من كتب ودوريات.

و ابتداء من سنة 2007، والبليوغرافيا الوطنية المغربية متوفرة في نسخة جديدة الكترونية وديناميكية، تشمل مختلف الحوامل : كتب مطبوعة، دوريات، خرائطية، ووسائط سمعية بصرية.

كما نذكر على سبيل المثال فهرس منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط ،أو فهرس منشورات المعرض الدولي للكتاب الدار البيضاء .وبيبليوغرافيات مؤسسة الملك عبد العزيز.[404]

ب- الببليوغرافيات الخاصة أو المحددة :

وهي الببليوجرافيات المحددة بإطار جغرافي محدد، ومكان معين، وزمان محصور، وموضوع وتخصص مضبوط.وتتميز الببليوغرافيات المتخصصة عن العامة في كون كل نوع منها موجه إلى شريحة معينة من القراء،وفئة خاصة من المستفيدين،وذلك انطلاقا من طابعها المتخصص،والنوع المحدد لكل منها.[405]

[403] عبد اللطيف صوفي،مرجع سابق ، ص 42.

[404] فتحت مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية أبوابها أمام العموم في 11 يوليوز سنة 1985.وقد أنشئت المؤسسة بموجب القانون المغربي على شكل جمعية تتوفر على الشخصية المعنوية، وهي حاصلة على صفة المؤسسة ذات النفع العام، يديرها مجلس إدارة يتكون من شخصيات تنتمي إلى المؤسسات الجامعية والأكاديمية وإلى القطاعين العمومي والخاص. وهي بذلك تتوجه بالأساس لخدمة الباحثين والأساتذة وطلبة المؤسسات الجامعية والمدارس العليا المرتبطة بمجالات تخصصها: العلوم الإنسانية والاجتماعية. وهكذا صارت مكتبة المؤسسة وجهة الأكاديميين ومحج الباحثين الراغبين في الإطلاع على ما كتب ويكتب عن الفضاء المغاربي والغرب الإسلامي وعن العالم العربي- الإسلامي وكذا على آخر المستجدات النظرية والمنهجية في العلوم الإنسانية والاجتماعية. للمزيد من التفاصيل انظر الموقع الالكتروني للمؤسسة www.fondation.org.ma

405 عبد اللطيف صوفي،مرجع سابق ،ص 44.

ومن أشهرها البيليوغرافيات الموضوعية وهي التي تختص في موضوع واحد كأن نقول بيبليوغرافية القصة ،الشعر،الآداب ،الفلسفة ،التاريخ ،وقد تشمل علوم وحقول متقاربة ومتجانسة ،كببليوغرافيا العلوم الاجتماعية أو الإنسانية أو الطبيعية .وعلى سبيل المثال نذكر :

البيليوغرافيا العالمية في مجال العلوم الاجتماعية

"الدراسات الأدبية المغربية الحديثة- مداخل بيبليوغرافية" للباحث عبد الواحد المرابط

بيبليوغرافيا الرواية المغربية للباحث محمد قاسمي .

تافيلالت الكبرى ، مقاربة بيبليوغرافية للباحث سعيد واحيحي .

قائمة بيبليوغرافية عن المرأة (كتب ومؤتمرات وأطروحات) إعداد الباحث حميد بالشعد.

المخطوطات والخزانات بالمغرب محاولة بيبليوغرافية للباحث محمد المغراوي ،منشورة بمجلة دعوة الحق العدد 404 صفر1434ه/ يناير 2013م.

الرحلات المغربية إلى أوروبا، مدخل بيبليوغرافيا، عبد النبي ذاكر،منشورة ضمن مجلة المناهل العدد 55

INTERNATIONEL BIBLIOGRPHY OF THE SOCIAL SCIENCES .
CENIVAL (Pierre de). Bibliographie d'histoire coloniale, 1900-1930.

ومن البيليوغرافيات المنتشرة نذكر بيبليوغرافيات الأفراد أي التي تقوم بالتعريف بمجموع الإنتاج الفكري والمعرفي لشخصيات من الشخصيات الأدبية أو التاريخية .... ومن أمثال بيبليوغرافيات الأفراد نذكر

محمد معن ،عبد الله العروي بيبليوغرافيا بأعماله وما كتب عنه في المصادر الغربية والعربية والمغربية1964-2011،منشورات كلية الاداب والعلوم الانسانية بنمسيك ،الدار البيضاء.2012

محمد بن شريفة406،سيرة وببليوغرافيا ،إعداد عبد العزيز الساوري، منشورات جامعة محمد الأول ، وجدة .

دراسة في حياة ومؤلفات الآستاذ عبد الهادي التازي=Etude bibliographique، للباحث عبد الفتاح الزين ،منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي.1991

406باحث مغربي مهتم بتراجم أعلام الغرب الإسلامي، وهو أستاذ جامعي بعدة جامعات ومحافظ بالخزانة العامة بالرباط.له عدة مؤلفات ، وحقق مجموعة من المخطوطات منها الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي، وترتيب المدارك للقاضي عياض، وديوان ابن مركون.

إن العمل البيبليوغرافي يستند إلى عدة خطوات أساسية وهي : جمع الوثائق والمصادر والمراجع سواء أكانت ورقية أم رقمية، وتحديد موضوع البيبليوغرافيا، وملاحقة المادة وملاحظتها، وقراءة المعطيات الوثائقية، وتحديد منهجية الترتيب والتصنيف وذلك بالاعتماد إما على التحقيب الدياكروني وإما الاعتماد على المعطى الوصفي.

ج- طرق تنظيم الببليوغرافيا

لا شك أن التنظيم الببليوغرافي في الهوامش والإحالات وقوائم الببليوغرافيات يطرح جملة من الإشكالات ، لتعدد الطرق والمناهج المتبعة من طرف الباحثين في تنظيمها وآليات ترتيبها ،وتنوع المدارس المنتمين إليها.ورغم هذا التنوع فأن الهدف من كل هذا وذاك هو التوثيق والأمانة العلمية و لتعزيز مصداقية وعلمية البحث أو الدراسة أو المشروع.ويمكن ترتيب الببليوغرافيا كالآتي.

بالنسبة للكتب

اسم المؤلف، عنوان الكتاب.، المترجم.، الطبعة. ، الجهة المكلفة بالنشر ،مكان النشر، سنة النشر،عدد الصفحات

على سبيل المثال أ.   في حالة وجود مؤلف واحد:

عبد الرحيم برادة،اسبانيا والمنطقة الشمالية المغربية 1931-1956، ط 1، افريقيا الشرق،الدار البيضاء، 2007م

مصطفى نشاط،السجن والسجناء،نماذج من تاريخ المغرب الوسيط،منشورات المجلس الوطني لحقوق الإنسان،الرباط،2002، عدد الصفحات 127.

أما في حالة وجود مجموعة من الكتب لنفس الكاتب ،فنكتفي في لائحة البيبليوغرافيا نترك فراغا __________لدلالة على أن الكتاب للمؤلف نفسه.

اما في حالة وجود مجموعة من المؤلفين ،فنكتب الاسم الأول الذي ورد لأحد المؤلفين ونعقبه بعبارة "وآخرون" بالنسبة للغة الضاد، أو et al للكتب باللغة الأجنبية.

المقالات والدوريات

بخصوص المقالات والدوريات فلها تنظيم ببليوغرافيا خاصا على الشاكلة التالية

مؤلف المقالة. " عنوان المقالة ". اسم الدورية، العدد : صفحات المقالة

مثال

حمان،عبد الحفيظ،صورة فاس في مطلع القرن التاسع عشر من خلال رحلة على باي العباسي(دومينجو باديا)،ضمن كتاب المغرب والأندلس دراسات في التاريخ والاركيولوجيا،تنسيق محمد حبيبي، العدد 3،منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية،تطوان، 2009،ص 85- 70

أم أن كان المقال منشورة في أحد الصحف نسير على الطريقة التالية:

اسم الكاتب،عنوان المقال،اسم الجريدة، العدد،التاريخ،العمود.

محمد الحبيب الخراز،تشجيع المغاربة على الانخراط في صفوف الجيش الاسباني،جريدة "الشمال"العدد318، 18ابريل 2006.

وعلى نفس النهج نسير في اللغات الاجنبية .

أما بخصوص ترتيب الببليوغرافيا بصفة نهائيا في نهاية البحث فتكون حسب العرف الجاري به العمل هجائيا وأبجديا ، أو حسب نوعية الكتب والمستندات.407 وهنالك من المدارس من تعتمد ترتيبا كرونولوجيا حسب تواريخ وسنوات صدور الكتب والدراسات من الحديثة الى القديمة والعكس صحيح. تظل هذه الطرق نسبيا ،ولا يلتزم بها الى قلة قليلة من الباحثين .

د- أهمية الببليوغرافيا في ميدان البحث العلمي.

لا مراء أن البحث الببليوغرافي يكتسي أهمية قصوى في ميادين العلم والمعرفة . فلا يمكن لأي باحث أن يخوض غمار بحثه دون الإلمام بما نشر في مضماره، وأهم العناوين التي لامست من بعيد أو قريب مجال تخصصه لتسهيل عملية البحث بمختلف أصنافه خاصة مع الطفرة المعلوماتية الهائلة التي تعيش عليها البشرية كما أسلفنا الذكر.فكما للبحار أن لا يبحر بدون بوصلة وللجغرافي أن يشتغل بدون خريطة وللحياة أن تستمر بدون ماء . لا يمكن للباحث أن ينقب ويشتغل دون بيبليوغرافية ومن هنا تأتي أهميتها القصوى في بحر البحث لعلمي الرصين والممنهج.

ويمكن أن نجمل أهميتها في النقط التالية :

الإسهام في التقدم العلمي والحضاري والثقافي للمجتمعات عن طريق حصر الإنتاج الفكري القديم والحديث وتسجيله، وحفظ معلومات عنه، والتعريف المنظم بسجل البشري من الأفكار ،الوطني منه والعالمي.

[407] Isabelle Perez‹La Bibliographie : Règles et Présentation‹Centre de documentation P. Bartoli.2012 ;P 4 « Une bibliographie est une liste de références bibliographiques ; Plusieurs types de plans de classement sont possibles (alphabétique, chronologique, type de document…).

تسهيل عملية البحث والمعرفة سواء كانت تاريخية أو في ميادين أخرى . ومساعدة جمهرة القراء على معرفة الإنتاج العلمي في منطقة وتخصص معين .

مواكبة ومجاراة التطورات التي يشهدها الميدان العلمي ومحاولة حصر كل الدراسات من أجل الاستفادة منها.

ربط جسور التواصل من خلال هذه الببليوغرافيات في أفق الاستفادة منها والتعريف بها والنهل منها لإعادة كتابة تاريخ منطقة معينة أو التعريف بشخصيات محددة .

-تظل الببليوغرافيا أسس العمل العلمي الرصين والجاد ،فبدونها يفقد العمل أو المشروع قيمته وبغناها يكتسي العمل بعد علميا وثوتيقيا يضفي عليه قيمة أكاديمية أكيدة .

- تسهيل مأمورية البحث خدمة للبحث العلمي.وإيجاد ذاكرة للاستمرارية وان يجد القارئ المهتم في تضاعفيه استعراضا لجملة من المصنفات و الكتب والمقالات التي ألفها وحررها علماء- فقهاء - كتاب أدباء - باحثون - رحالة - ضباط عسكريون - وصحفيون...ينتسبون إلى جنسيات مختلفة حول الإقليم مقدمين أهم ما يميزه سواء من الناحية الاقتصادية - الاجتماعية - الدينية - الفنية - الأدبية - العلمية والعمرانية ..408.

-تهييء المادة وتيسير طرق الوصول إليها ، والتعريف بأماكن المطبوعات ومضامينها وطبعاتها...إلخ .

-توفير المادة الأساسية للقيام بالدراسات.

-حفظ الإنتاج الفكري وتصنيفه وتوثيقه والتعريف به.

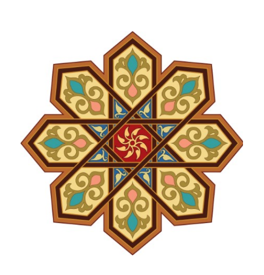
-التمكين من التعرف على مظاهر تطور ثقافة مجتمع ما.

[408] سعيد واحيحي ،تافيلالت الكبرى مقاربة بيبليوغرافية،منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس- 2011،ص 22
[408] السويسي،

تاريخ المغارب







اللصوصية في إيالة الجزائر والمغرب الاقصى خلال القرنين 17/18م قراءة في المصادر المحلية.

حفيان رشيد:
باحث دكتوراه في التاريخ
جامعة الأمير عبد القادر
قسنطينة.الجزائر

تعتبر اللصوصية ظاهرة اجتماعية انتشرت في بلاد المغارب خاصة في المحطات التي كانت تعتبر مناطق عبور لجموع القوافل التجارية أو مواكب الحج الآتية من المغرب باتجاه المشرق لتأدية فريضة الحج،مرورا بالجزائر الى تونس وطرابلس الغرب وصولا إلى مكة المكرمة،وقد تناقلت لنا كتب الرحلة بمختلف أنواعها باعتبارها من المصادر المحلية معلومات قيمة حول هذه الظاهرة فكانت بذلك شهادات حية خصوصا إذا علمنا أنها كانت بلسان وقلم مغاربي عن أحداث تاريخية شهدتها هذه الأقطار ،فما هي أهم هذه المصادر ؟ وكيف تم التصدي لهذه الظاهرة؟

لقدكانت القوافل المغاربية في تجارتها تعاني من ظاهرة اللصوصية أو قطاع الطرق هذه الظاهرة التي تحدث عنها الكثير من الرحالة الذين لم يسلم ركبهم منها حتى انه تم الحديث عنها بايسهاب علما

أن هذه الظاهرة لم تكن جديدة في البلدان المغاربية خلال القرنين(18/17م)، وتواصلت حتى دخول بلدان المغرب العربي تحت الهيمنة الاستعمارية القرن 19م[409]، وقد حاولنا في هذا المقال حصر بعض المقتطفات من نصوص الرحلات حول وصفها لهذا الظاهرة، ، متسائلين كيف كان رد فعل تجار القوافل حول هذه الاعتداءات وماهي الإجراءات المتخذة من أجل حماية قوافلهم وأموالهم من ذلك ؟.

اذا ما تتبعنا ظاهرة اللصوصية في الطرق بين ايالة الجزائر والمغرب الاقصى فهي تعود الى القرن السادس عشرميلادي، حسب مأكده لنا الحسن الوزان في وصفه للطريق المؤدية من فاس إلى تلمسان قائلا:"قلما ينجو التجار من شرهم لاسيما في فصل الشتاء"[410]، وحتى ركب الحجاج لم يسلم من ذلك رغم القدسية والهيبة التي يحملها، فقد ورد في رحلة أبي مدين الدرعي الحجازية لأحمد السوسي وصفه لمحطة فجيج كمحطة من محطات الطريق لأن الحجاج كثيرا ، ما يتعرضون للصوصية في الطريق قائلا:"وهذه أول بلاد اللصوص، لما صلينا العشاء تداعت علينا اللصوص تداعي الذئاب وتختطف اختطاف الثعالب، فلم نزل معهم بالبارود والصياح إلى الصباح، وما رأينا قبلهم أقل حياء وأجسر منهم..."[411]، حتى أن هذه الظاهرة تثير الرعب في أوساط الحجاج قول العياشي في ذلك"حصلت للركب روعة لخبر أخبروه أن بازائهم قوم من العرب يريدون الاغارة، فشمر الناس للقتال، وأخرجوا عدهم للحرب، وهيئوا آلة حربهم فلم يلقوا كيدا، وتبين بعد ذلك أن الخبر لا أصل له"[412]، وفي الرحلة الناصرية وصف صاحبها الدرعي محطة ام الحران في طريقه الى الجزائر بقوله:"والمحل معلوم بالسرقة الاختلاس"[413].

ومن الجزائر إلى تونس لم تسلم القوافل أيضا من ذلك، بل تفاقمت أكثر كونها مناطق عبور خاصة لقوافل الحجيج، وقد مارست هذه الظاهرة بأكثر خاصة في المناطق الصحراوية اذ كانت تجارتها تعترضها هجمات اللصوص، وقطاع الطرق سواءا كانوا من البدو الرحل، أو الطوارق

الملثمين[414]، أو مجموعة من القبائل التي تتزعم الصحاري كقبيلة ورغمة التى كانت تقوم بأعمال قطع الطريق على الأراضي التونسية[415].

وقد اشتهرت بعض المحطات بهذه الظاهرة خاصة توزر التي ورد ذكرها في العديد من نصوص الرحلة فقد وصفها الدرعي بقوله"وتوزر فانها اكثر بلاد الله سرقة" [416]، أما الورثيلاني فعبر عن ذلك إلى حد التنبيه بقوله:"وتوزر وقابس محطة الخطفة، بل توزر أعظم فكل من غفل عن حاجة في يده إلا خطفوها فإياك والغفلة فيها....."[417].

آما فيما يخص الرحلات الحجازية المغربية فقد وردت فيها نصوص تؤكد خطورة الطريق جراء انعدام الأمن، فقد امتاز الرحالون بمعرفة الطرق معرفة شاملة بما تحتويه عليه من ظواهر طبيعية واجتماعية فدونوا مراحلها تدوينا يحتوي على جميع المعلومات المفيدة للمسافر فكانت بمثابة دليل أو خريطة تصويرية من منطقة الانطلاق إلى الوصول لبلاد الحرمين الشريفين خاصة على الطريق البري باعتبار الجزائر والمغرب الأقصى على هذه الطرق سواءا الطريق الشمالية التلية من فاس إلى تلمسان إلى الجزائر ثم قسنطينة وتونس إلى أن تتصل بالطريق الساحلية أو الطريق الجنوبي أو مايطلق عليه باسم طريق الواحات المغربية،الجزائرية والتونسية مرورا بفكيك وتوات وورقلة والزاب والجريد وقابس إلى طرابلس [418] .

حتى إن بعض المواضع كان لها وقع إعلامي عند الحجاج فكانت معروفة لديهم بأعمال النهب والسرقة ونورد من ذلك أمثلة مقتطفة ونصوص من بعض الرحلات حول بايلك الشرق مايلي:

-رحلة أحمد الهشتوكي خلال القرن 17م:أحمد بن محمد بن داود الجزولي (ت1127هـ): وهي مخطوط موجود بالخزانة العامة بالرباط رقم 147 ورقة ص 36 في حديثه عن بسكرة باعتبارها مقاطعة في بايلك الشرق بقوله"نسأله تعالى أن يحفظ إبلنا ويحفظ ركبنا من السرقة فإنها هنا ببسكرة كثيرة".

وأما عن سيدي خالد فيضيف بقوله "وأما أهل وادي نبي الله خالد على نبينا وعليه السلام فقد كثرت السرقة بينهم على عادتهم خصوصا أعراب السلالمة لا سلمهم الله"[419] .

و الرحلة الحجازية للحضيكي خلال القرن 18م.ورد اسم لمحطة سيدي خالد ،فبعد ان سار الركب غير بعيد فذا بمجموعة متسلحة تركض نحو الركب وتأهب الناس لقتالهم فرجعوا خاسئين صاغرين على حد قول الرحالة[420].

أما فيما يخص الإجراءات المتخذة لحماية القوافل من مخاطر الطريق:

فقد كان أمن القوافل في الطرق من بين الأمور المحسوب لها من طرف التجار لذا فقد كانوا دوما يتخذون مجموعة من الاحتياطات والتدابير اللازمة التي يواجهون بها أي خطر أو طارئ قد يحدق بهم وبأملاكهم ومن ذلك إسناد مهمة حراسة القوافل وتأمينها الى القبائل ذات النفوذ، وأهم هذه القبائل قبيلة الشعامبة في الجنوب الجزائري[421]،يقوم تجار القوافل بتزويد قوافلهم بالسلاح، من أجل الدفاع عن أموالهم، والتصدي لهجمات اللصوص[422]، فقد ذكر العياشي في الركب المرافق له أنه"...شمر الناس للقتال، وأخرجوا عدتهم، وهيئوا ألة حربهم..." [423] .

إضافة إلى تزويد القافلة بالحراس وعادة ما تكون أصول هؤلاء مختلفة الانتماءات القبلية لتكثر عصبيتهم تكون مهمتها حماية القافلة[424]، وتنظيم استعلامات مهمتها إعلام القافلة بأي خطر مسبق للاحتياط، أو الاستعداد للمواجهة، خاصة على الطرق الصحراوية، وقد اطلق عليها اسم شرطة الصحراء[425].

وان اشتد الخطر فان القافلة تقوم في بعض الاحيان بتغيير الطريق الى مسلك ثاني ان وجد أو التوقف ريثما زال الخطر كحل لتفادي قطاع الطرق .

)

لقد كانت هذه من بين الاجراءات المتخذة من طرف التجار لحماية قوافلهم، إلا أنها لم تكن في مأمن تام من اللصوصية وقطاع الطرق، كما أن تكاليف الحماية من دفع مبالغ للحراس أو لقبائل الطريق كانت على عاتق التجار ، فكلما زادت نقصت فوائد الربح فقد كان عامل الأمن أكبر هاجس للتجار لما ينتج عنه من انعكاسات، وقد أكد ذلك ابن خلدون بقوله: "أن حدوث العدوان على الناس في أموالهم يذهب الآمال، والتحصيل والاكتساب لما يرون أن غايتها ومصيرها(مصير الأموال)، انتهى من أيديهم وبالتالي كان السعي وراءها مستحيل[426]

الهوامش:

[1] تونس، الارشيف الوطني، قسم السلسلة التاريخية ، الحافظة 212، الملف 237، ،تاريخ1856-1868م، الوثائق15-2-6-17-29،(وقد أشار الباحث حماش خليفة الى هذه الوثائق وما تضمنته في كتابه:كشاف تاريخ الجزائر في الأرشيف الوطني التونسي، منشورات جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الاسلامية- قسنطينة،سلسلة أدوات البحث والبيبليوغرافيا،2013 ،ص ص117-131.

[2] الوزان الزياني (الحسن بن محمد المدعو ليون الافريقي، ت 1548م)، وصف افريقيا، ترجمة:محمد حجي ومحمد الاخضر، ط2، بيروت، دار الغرب الاسلامي ، ،1983.ج2، ص11

[3] القاضي، المرجع السابق، ص51.

[4] العياشي (أبو سالم عبدالله بن محمد، ت1090ه/1679م)، الرحلة العياشية ،تحقيق سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، مج1، مج2، الامارات العربية، دار السويدي للنشر والتوزيع، 2006.، مج1، ص 112.

[5] حساني (مختار) ،الأحوال الثقافية والسياسية للجنوب الجزائري من خلال رحلة الدرعي، ضمن أعمال طريق القوافل، المركز الوطني للبحوث في عصور ماقبل التاريخ وعلم الانسان والتاريخ ، الجزائر،2001 .، ص28.

[6] بوعزيز(يحي)، طرق القوافل والأسواق التجارية كما وجدها الاوربيون بالصحراء الكبرى، خلال القرن التاسع عشر، مجلة الثقافة، الجزائر، ع1980/59.، ص132.

[7] الأغواطي، رحلة الاغواطي الحاج ابن الدين في شمال افريقيا والسودان و الدرعية، ترجمة و تحقيق أبو القاسم سع الله ،طبعة خاصة، الجزائر، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، 2011 .ص102.

(8)الدرعي (أحمد بن محمد،ت 1129ه)، الرحلة الناصرية 1709 -1710م، تحقيق عبد الحفيظ مملوكي، الامارات العربية، دار السويدي للنشر والتوزيع ، 2011.ج1، ص54-55.

(9)الورثيلاني (الحسن بن محمد، ت1193-1194 ه/1779-1780م)، نزهة الانظار في فضل علم التاريخ والأخبار (الرحلة الورثيلانية)، الجزائر، مطبعة بيير فونتانا الشرقية، 1908.مج1، ص128.

(10): ماكامان(محمد)،الرحلات المغربية ق 11-12ه/17-18م،مطبعة الامنية الرباط،ط20141،ص146.

(11):ماكامان (محمد)،المرجع السابق،ص151.

(12) : الحضيكي (ابي عبد الله محمد بن أحمد)، الرحلة الحجازية ، ضبط وتعليق عبد العالي لمدبر، الرباط (المغرب)، مركز الدراسات و الأبحاث و احياء التراث، 2011،ص85.

(13) Carette, du commerce de l'Algérie avec l'Afrique centrale et les états barbaresques, Paris, 1844, p25.

(14)الحضيري (محمد المدني)، الطريق من طرابلس الى فزان، مجلة البحوث التاريخية، مركز بحوث ودراسات الجهاد الليبي، ع1/جانفي1979.، ص99.

(15) ، بوعزيز، المرجع السابق،...طرق القوافل والأسواق ص133.

(16) الرحلة العياشية ، مج1، المصدر السابق، ص 112.

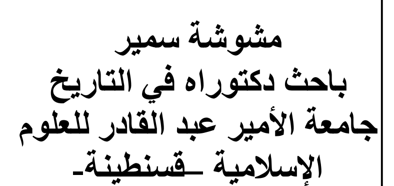
(17)الزبيري (محمد العربي)، التجارة الخارجية للشرق الجزائري في الفترة مابين 1792-1830، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984.، ص112-113؛ بوعزيز، المرجع السابق، ص133.

(18) ابن خلدون (عبد الرحمن) ،تاريخ ابن خلدون (العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) ،طبعة مصححة اعتنى بها أبوصيب الكرمي، الرياض (السعودية)، بيت الافكار الدولي،ص144.

مناهج التاريخ



أوجه من العلاقات الجزائرية –التونسية في بدايات التواجد العثماني



مشوشة سمير
باحث دكتوراه في التاريخ
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة-

مقدمة:

لم يكن الاهتمام بدراسة العلاقات بين الجزائر ودول المغرب الكبير خلال العهد العثماني بجديد في ساحة البحث التاريخي، فقد برز العديد من الباحثين في تاريخ الجزائر العثمانية، وهذا من خلال مصادرها ومراجعها، والتي أوضحت جليا بوجود علاقات فعلية، خاصة بين الجزائر – باعتبارها دولة محورية ببلاد المغرب- وجيرانها، ومن الدارسين الذين اهتموا بدراسة جوانب من

العلاقات بين دول المغارب نذكر: عمار بن خروف[427]، المنور مروش[428]، ناصر الدين سعيدوني[429]،

الشيخ المهدي البوعبدلي[430]، عبد الجليل التميمي[431]، يمينة درياس[432]، عائشة غطاس[433]، أبو القاسم سعد الله[434]، خليفة حماش[435]،محمد العربي الزبيري[436] وهذا دون إغفال ما جاءت به كتب الرحلات الأوروبية ومنهم فونتير دو بارادي (Venture de Paradis)[437]، كل هؤلاء وآخرون قدموا مساهمة كبيرة لا يمكن تجاوزها لكل من يرغب في البحث عن جانب من العلاقات الجزائرية - التونسية .

([427])/ **العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين الجزائر والمغرب في القرن 10ه/16م**، ج2، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2008 .

([428])/ **دراسات عن الجزائر في العهد العثماني، العملة، الأسعار والمداخيل**، ج1، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2009 .

([429])/ من بين دراساته أذكر :

- **النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني (1792 – 1830)**، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985 .

- **ورقات جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني**، ط2، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2008 .

- **قانون أسواق مدينة الجزائر (1107-1117ه/1695-1705م)**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2006 .

([430])/ **الجزائر في التاريخ، العهد العثماني**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984 .

([431])/ **La Marine et les routes commerciales Ottomanes**, *Actes des symposiums sur les provinces Arabe à l'Epoque Ottomane, N° 12, Série* **1 (A)**, Publications de la fondation Temimi pour la Recherche Scientifique et L'Information, Zaghouan, 2000 .

- ***المجلة التاريخية المغربية*** : الأعداد (37-38)،(39-40)،(71-72) .

([432])/ **السكة الجزائرية في العهد العثماني**، دار الحضارة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007 .

([433])/ **الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر (1700-1830)**، المكتبة الوطنية الجزائرية، الجزائر، 2007 .

([434])/ **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990 .

([435])/ منها: **كشاف وثائق تاريخ الجزائر في العهد العثماني بالمكتبتين الوطنيتين الجزائرية والتونسية**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2010، وكذلك : **كشاف وثائق تاريخ الجزائر في العهد العثماني وأحمد باي والأمير عبد القادر في الأرشيف الوطني التونسي**، منشورات جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، د.ت.

([436])/ أذكر منها : **التجارة الخارجية للشرق الجزائري في الفترة مابين 1792و1830**، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984 .

([437])/ Venture de Paradis, ***Alger au 18e siécle***, ,Imprimeur libraire éditeur, Paris, 1998 .

I- الصراع السياسي والعسكري بين الإيالتين :

أ-/ التواجد العثماني في الجزائر وتونس :

عرفت بلاد المغرب بعد الموحدين تفككا سياسيا وجغرافيا فظهرت ثلاث دويلات بالمغارب الثلاث[438] فأهم ما ميز علاقاتها هو الصراع السياسي والعسكري بهدف توسيع مجالها الجغرافي على حساب بعضها، وإذا ما تمعنا النظر في الوحدة السياسية للمغرب الواحد فنجدها هي الأخرى مقسمة إلى إمارات صغيرة متناحرة فيما بينها وهذا ما نجده مثلا في الجزائر من خلال إمارات: كوكو بمنطقة القبائل والحفصية بإقليم قسنطينة وبني جلاب بتقرت ووادي ريغ والثعالبة بجزائر بني مزغنة، وهو ما جعل قدراتها الدفاعية ضعيفة و جعلها مستهدفة من طرف الحملات الصليبية الأوروبية خاصة الإسبانية والبرتغالية، فبعد سقوط غرناطة سنة 897ه/1492م نقل الإسبان حروبهم ضد المسلمين إلى شمال إفريقيا-حروب الإسترداد- فتم خلاله إحتلال أغلب سواحل المغرب الأوسط[439]، فاحتلوا المرسى الكبير سنة 911ه/1505م ووهران عام 914ه/1509م وبجاية سنة 915ه/1510م ووجهوا حملاتهم بعد ذلك إلى مدينة الجزائر وجيجل ودلس واحتلوها سنة 916ه/1511م[440] .

وقد عرفت تونس هي الأخرى أوضاعا مشابهة للجزائر وهذا من منطلق الموقع الجغرافي الإستراتيجي الذي تتمتع به، فقد تم احتلال أغلب سواحلها سنة 940ه/1535م، وبعدها تم استرجاعها من قبل حاكم الجزائر سنة 976ه/1569م، ولكن الإسبان لم ييأسوا فعاودوا احتلالهم لتونس سنة 980ه/1573م، وبالمقابل عرفت سيطرة القبائل على مختلف المناطق

([438])/ علي محمد محمد الصلابي، **صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي (دولة الموحدين)**، دار البيارق للنشر، دائرة المكتبة الوطنية، عمان، 1998، ص-ص. 235-378 .

([439])/ H.D.De Gramment, ***Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830)***, Editeur Ernest Leroux, Paris, 1887, p-p. 1-4 .

([440])/ خليفة حماش، **العلاقة بين إيالة الجزائر والباب العالي (1798-1830)**، رسالة ماجيستر، إشراف : خليل عبد الحميد عبد العال، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، 1988، ص. 23 .

التونسية وزادت من نفوذها فيها[441]، وأمام هذه الأوضاع التي كانت القاسم المشترك بين الجزائر وتونس، قام أهالي الجزائر سنة 925ه/1519م بالاستنجاد بالسلطان العثماني سليم الأول[442].

وبالمقابل لكل هذه الأحداث التي عرفتها بلاد المغرب وخاصة الجزائر، برز الأخوين عروج وخير الدين بربروس[443] المشهورين بالجهاد البحري ضد القراصنة الأوروبيين وهذا انطلاقا من قاعدتهما العسكرية بجزيرة جربة التونسية، فبعد خلافات كبيرة مع السلطان الحفصي بتونس تم تحويلها إلى جيجل[444] والتي اعتبرت بمثابة قاعدة انطلاق لتحرير سواحل الجزائر من الإسبان، فتم ذلك لأغلب سواحلها[445]، وكان هذا كله خلال سنتي (920ه/1514م)-(925ه/1519م)، وآخرها المرسى الكبير سنة 1206ه/1792م[446] وأعلن بعدها أهالي الجزائر رغبتهم في الانضمام إلى الدولة العثمانية، فأرسلوا وفدا لطلب ذلك وكان رد فعل السلطان العثماني إعلان القبول، وبداية من سنة 926ه/1520م أصبحت الجزائر إيالة عثمانية[447] وعين خير الدين بربروس بايلربايا لها، وبعدها تحققت الوحدة الإقليمية والسياسية للجزائر ودخلت فيما بعد مرحلة جديدة من تاريخها العثماني[448]، وفي المقابل عقدت السلطة العثمانية عزمها لتحرير تونس من

([441])/ محمد الهادي الشريف، **تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال**، تر: محمد الشاوش ومحمد عجينة، ط3، دار سراس للنشر، تونس، 1993، ص-ص. 65-66 .

([442])/ للمزيد عن الرسالة التي وجهها أهالي الجزائر إلى السلطان العثماني ينظر : عبد الجليل التميمي، "رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان العثماني سنة 1519م"، ***المجلة التاريخية المغربية***، 6(1976)، ص-ص. 116-120 .

([443])/ للمزيد أكثر حول الأخوين بربروس ينظر : خير الدين بربروس، **مذكرات خير الدين بربروس**، تر : محمد دراج، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010 .وكذلك :

- Roy (J.J.E), ***Histoire de L'Algérie depuis les temps les plus anciens jusqu'a nos jours***, Alfred Mame et Fils-Editeurs, Tours, 1880, p-p. 91-107.
- F.D.Haédo, ***Histoire des Rois D'Alger***, traduite :Grammont, Adolphe Jourdan Libraire-Editeur, Alger, 1881, p-p, 3-61 .

([444])/ للمزيد حول الصراع الحفصي العثماني ينظر : ابن قنفذ القسنطيني، **الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية**، تح : محمد الشاذلي النيفر و عبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968. وكذلك : هنري دونان، **الإيالة التونسية**، تر : محمد فريد الشريف، المطبعة العصرية، تونس، 2012، ص-ص. 17-18 ، وكذلك : بوعزيز، مرجع سابق، ج2، ص-ص. 10-11 .

([445])/ Grammont, ***Histoire D'Alger***..., op.cit, p-p. 22-25 .

([446])/ دلندة الأرقش وآخرون، **المغرب العربي الحديث من خلال المصادر**، مركز النشر الجامعي ميديا كوم، تونس، 2003، ص-ص. 38-39.

([447])/ عبد الجليل التميمي، **دراسات في التاريخ العثماني المغاربي ...**، مرجع سابق، ص-ص. 18-20 ، وكذلك : آرجمنت كوران، **السياسة العثمانية تجاه الإحتلال الفرنسي للجزائر**، تر : عبد الجليل التميمي، منشورات الجامعة التونسية، تونس، 1970، ص. 21 .

([448])/ Haédo, ***Histoire des Rois***.....,op.cit, p-p. 35-37 .

الإسبان فتم توجيه حملة عسكرية لتحرير سواحلها ودارت معارك كبيرة بينهما وعلى محاور عديدة، انتهت باسترجاع تونس سنة 981ه/1574م فأصبحت هي الأخرى تحمل لقب إيالة عثمانية[(449)]، فدخلت هي الأخرى مرحلة جديدة من تاريخها الحديث[(450)]. ومن منطلق ما قام به العثمانيون في بلاد المغرب تكون مجال جغرافي عثماني واسع ويبقى أن الفرق الملاحظ هو الإختلاف في درجة الحضور الجغرافي والزماني في هذه الإيالات وتباينت معها درجات عثمنتها[(451)] .

ب / الصراعات والخلافات بين الإيالتين :

بعد انتصاب الحكم العثماني بالجزائر وتونس تباعا، حاول سلاطين آل عثمان تكوين تكتل سياسي وجغرافي واحد ببلاد المغرب[(452)] يكون بمثابة امتداد لمشروع الإمبراطورية العثمانية وتوسيع نفوذها فيه، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك فاصطدموا بواقع آخر أساسه التوتر والخلافات والصراعات، وقد بدأت ملامح الصراع بين الإيالتين في بدايات القرن 10ه/16م خاصة في ظل حكم الحفصيين لتونس والذين عجزوا عن مواجهة الأطماع الإسبانية، وكان من الطبيعي أن يتجه تفكير خير الدين بربروس -حاكم الجزائر- إلى تحريرها وضمها إلى الممتلكات العثمانية، فكان رد فعله تجاه ما يجري في تونس الإستيلاء عليها وقام بضمها إلى إيالة الجزائر سنة 940ه/1534م، لكن ذلك لم يدم طويلا فتم استرجاعها من طرف الإسبان سنة 941ه/1535م بعد تآمر الملك الحفصي معهم[(453)]، وأمام هذه الظروف أعدت حملة عسكرية ضخمة بقيادة حاكم الجزائر العلج علي وحاكم طرابلس سنان باشا قائد الأسطول البحري العثماني[(454)] وتم خلالها القضاء على الوجود الإسباني والحفصي بتونس سنة 981ه/1574م وإخضاعها من جديد للحكم

([449])/ أحمد قاسم، **إيالة تونس العثمانية على ضوء فتاوى ابن عظوم (1574-1600م)**، تقديم : عبد الجليل التميمي، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، 2004، ص-ص. 62 -66 .

([450])/ Sadek Boubaker, ***La Régence de Tunis aux XIIé siécle : ses relations commerciales avec les ports de L'Europe méditerranéenne, Merseille et Livourne***, publications de .la R.H.M et de C.E.R.O.M.A, Zaghouan,1987, p. 38 .

([451])/ للمزيد أكثر ينظر تقديم : **العثمانيون في المغارب من خلال الأرشيفات المحلية والمتوسطية**، تنسيق : عبد الرحمن المودن وعبد الرحيم بنحادة، *سلسلة ندوات ومناظرات رقم 123*، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2005، ص. 7 .

([452])/ إسماعيل أحمد ياغي، **الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث**، مكتبة العبيكان، الرياض، 1995، ص. 238 .

([453])/ عبد الرحيم بنحادة، **المغرب والباب العالي من منتصف القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر**، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، 1998، ص-ص. 30-33 .

([454])/ محمد بيرم الخامس التونسي، **صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار والأقطار**، المطبعة الإعلامية، القاهرة، 1884، ص-ص. 133-135 .

العثماني[455] فأصبحت أمورها الإدارية والسياسية مرتبطة بالجزائر والدولة العثمانية[456]، وقد كان الداي عثمان هو أهم داياتها من خلال ممارسة سيادته المطلقة على البلاد التونسية[457]، وانتهجت بعد هذا الانتقال السياسي الهام منهج توسيع مجالها الجغرافي حتى وإن كان على حساب الدول المجاورة لها، ونفس السياسة اتبعتها الجزائر بعد الإعلان عن عثمنتها، ومن هذا المنطلق لاحت مشكلة في الأفق تمثلت أساسا في الصراعات الحدودية بين الإيالتين وهذا في ظل الظروف السائدة خلال هذه الفترة والتي تميزت جغرافيا بعدم وضوح معالم الحدود السياسية بينهما سواء كانت برية أو بحرية[458]، وقد كانت القبائل الحدودية هي السبب الرئيسي في ذلك، وهنا طرح الأستاذ أحمد قاسم إشكالية مفادها "هل كانت الجزائر هي التي تتحرش بتونس أم العكس؟. وقد علل وأجاب عن ذلك من خلال ما جاء في إحدى الوثائق التي وردت عند ابن عظوم من طرف الجيش التونسي سنة 998ه/1589م أن عسكر تونس كان يهدف إلى اتقاء عسكر الجزائر ويعمل على تفادي الاصطدام معه وأن دوره –الجيش التونسي- يكمن في المحافظة على العلاقات الحسنة وهذا عكس عسكر الجزائر الذي إن شهد على واقعة يكون أحد أطرافها تونسيين فسيقابلها بالتقتيل والتعذيب"[459] لكن التساؤل الذي يطرح نفسه في كل هذا: هل أن هذا المؤرخ - ابن عظوم- بهذا الموقف كان حياديا في سرد هذه الأحداث التاريخية؟ .

المصادر التاريخية تذكر عكس ذلك فالحروب التي قامت بين الإيالتين جاءت بسبب القبائل الحدودية المتمردة على نظام الحكم السائد وأبرزها قبيلة الحنانشة[460] التي كان يمثلها "حنانشة تونس (أولاد شنوف) وحنانشة الجزائر كله بسبب أراضي الرعي بالإضافة إلى عامل

([455])/ محمد الهادي الشريف، **تاريخ تونس .....**، مرجع سابق، ص-ص. 64-66 ، وكذلك ينظر: أندريه بيسونال، **الرحلة إلى تونس**، تر : محمد العربي السنوسي، مركز النشر الجامعي، تونس، 2003، ص. 117 .

([456])/عزيز سامح ألتر، **الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية**، تر: محمد علي عامر، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1989، ص. 237.

([457])/ رشاد الامام، **سياسة حمودة باشا في تونس(1782-1814)**، رسالة دكتوراة، دائرة التاريخ، الجامعة الأمريكية، بيروت، دت، ص-ص. 44-47.

([458])/ Berbrugger (A), "Des frontiéres de L'Algérie", **R.A, Vol nº4**, Alger, 1860, p-p. 401-438.

([459])/ للمزيد أكثر ينظر: أحمد قاسم، **إيالة تونس العثمانية على ضوء فتاوى ابن عظوم...**، مرجع سابق، ص. 120 .

([460])/تنسب إلى الجد حناش من قبيلة هوارة البربرية، للمزيد أكثر ينظر: عبد الرحمن بن خلدون، **العبر وديوان المبتدأ والخبر**، ج6، ط3، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1983، ص. 405 . وكذلك :

-Féraud (Ch), "Les Harars Seigneurs Des Hanancha"**, R.A, Vol.nº 18**, Alger, 1874, p-p.11-32 .

هروب بعض المطلوبين من إيالة اتجاه الأخرى ورفض تسليمهم من الطرفين" فكان نفوذها قوي داخل تخوم الإيالتين، بالإضافة إلى قبيلة النمامشة هي الأخرى من القبائل التي كان لها نفوذ كبير في شرق الجزائر[461]، وبعد كل الخلافات التي عرفتها إيالتي الجزائر وتونس توصلوا سنة 1023ه/1614م إلى اتفاق يقضي برسم الحدود بينهما[462]، لكن هذا التقارب لم يستمر طويلا وعادت العلاقات إلى حالة التأزم من خلال خرق التونسيين لبنود المعاهدة المبرمة بينهما بعد قيام جيش مراد باي تونس شن حملة عسكرية ضد الجزائر سنة 1037ه/1628م ووقعت معركة كبيرة بينهما قرب مدينة الكاف التونسية[463] انتهت بهزيمة التونسيين لكن هذا لم يكن عائقا أمام ابرام معاهدة صلح جديدة بين الإيالتين سنة 1037ه/1628م، فقد جاء في "منشور الهداية" أن المكان الذي عقد فيه الصلح هو "قصر أو مترل جابر وعن أعضاء الوفد التونسي الذين حضروا منهم : محمد العامري، علي الشرقي، محمد الأندلسي، الحاج عون الله و إبراهيم الغرياني وبالمقابل لم يذكر من حضر من الوفد الجزائري إلا أحمد بن الحاجة" وتم فيه رسم الحدود بين البلدين[464]، وفي نهاية القرن 11ه/17م أصبحت الإيالة التونسية تملك نفوذا مستقلا في تسيير أمورها بنفسها بعيدة عن أوامر الباب العالي وخلاله عرفت أيضا صراعات كبيرة على الحكم[465]، وقد عرفت الجزائر أيضا تدهورا لأوضاعها السياسية الداخلية خاصة ظاهرة اغتيالات البايات والدايات وعلى رأسهم الداي مصطفى الذي خسر حربه ضد تونس عام 1117ه/1705م[466]،

(461)/ أحمد قاسم، المرجع السابق، ص. 121 .

(462)/ أرزقي شويتام، **المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني (926-1246ه/1519-1830م)**، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الجزائر، 2009، ص. 19 .

(463)/ محمد الباجي المسعودي، **الخلاصة النقية في أمراء إفريقية**، ط2، مطبعة بيكار وشركائه، تونس، 1915، ص. 92 .

(464)/ عبد الكريم الفكون، **منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية**، تح: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987، ص-ص. 216-217 . وينظر أيضا :

-.Monchicourt (Ch**),**"La Frontiére Algéro-Tunisienne dans le Tell et dans la Steppe", **R.A, Vol.nº82**, 1938, p-p .31-59 .

(465)/ جون ب.وولف، **الجزائر وأروبا (1500-1830)**، ترجمة وتعليق: أبو القاسم سعد الله، دار الرائد، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص-ص. 373-374 .

(466)/ محمد بن ميمون الجزائري، **التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية**، تقديم وتحقيق: محمد بن عبد الكريم، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1981، ص. 124 .

ومن هذا كله يتضح لنا أن أوضاع الإيالتين في بدايات التواجد العثماني خاصة في شقيه السياسي والعسكري كانت من أهم العوامل التي أدت إلى زيادة التباعد والتنافر بينهما(467)، مما جعلها تؤثر وبطريقة سلبية على اقتصاد البلدين وتواصلهما التجاري(468) .

(467)/ محمد الصالح العنتري، **فريدة منيسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانهما أو تاريخ قسنطينة**، تقديم ومراجعة: يحي بوعزيز، الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، 2005، ص-ص. 75-76 ، وكذلك ينظر: حسين بن رجب شاوش بن المفتي، **تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها**، تح: فارس كعوان، بيت الحكمة للنشر، الجزائر، 2009، ص. 70 وما بعدها .

(468)/ أحمد الشريف الزهار، **مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، نقيب أشراف الجزائر**، تقديم وتعليق: أحمد توفيق المدني، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1974، ص-ص. 96-97 .

تتمة هوامش مقال عمر عمالكي، السفر البحري بالمغرب إلى بداية القرن العشرين

(i) الميل عند العرب ألف ذراع وعند الرومان ألف خطوة، وهوّ يساوي نحو 1,340متر

(ii) أبو القاسم النّصيبي (ابن حوقل)،صورة الأرض (المسالك والممالك، والمفاوز والمهالك)، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 199، ص 88 يقال أن ابن حوقل قد اضطلع على كتاب "المسالك والممالك" لأبي اسحاق الفارسي المعروف بالإصطخري فكتبه من جديد، محتفظا بعنوانه ونسبه إليه أنظر: نفس المصدر، مقدمة الناشر، ص06.

(iii) أبو عبد الله الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق: مجموعة باحثين أوروبيين المجلّد الأول، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، مصر،(د.ت) ،ص248.ونوجد في هذه النسخة المحققة لفظة "برقانة " وليس "ترنانة" وربما هو خطا ارتكبه المحققون الذين أخطأوا في قراءة الكلمة بشكل جيد.

(iv) أبو عبيد الله البكري، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب(من كتاب المسالك والممالك)،دار الكتاب الإسلامي، القاهرة،(د.ت)،ص80.

(v) كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار(وصف مكة والمدينة ، ومصر، وبلاد المغرب)،لكاتب مراكشي مجهول من كتاب القرن 6هـــ/12م،نشر وتعليق: سعد زغلول عبد المجيد ،دار الشؤون الثقافية العامة،بغداد،العراق،1986،ص136.

(vi) محمّد مقديش ، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والاخبار، تحقيق: علي الزواوي ومحمد محفوظ ،المجلد الأول، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1998،ص75.نشير إلى ان المحققان حاولا ان يصححا لفظة "ترنانة" فذكروها "برقانة" كما ذكرها المحققون الاوروبيون لكتاب الإدريسي، لكنهم اخطأوا فمحمّد مقديش قد ذكر اللفظ سليما وذلك لحسن قراءته للنص الأصلي للإدريسي، فلو اعتمد المحققان على مصادر اخرى كالبكري وابن حوقل مثلا لاكتشفوا أن مقديش لم يخطأ بل هو خطأ المحققين الأوروبيين أنظر: نفس المرجع :الهامش رقم 210،ص75.

(vii)cf.j .canal, monographie de l'arrandissent de tlemcen,bultin de la société d'archeologie d'oran ,t 7,1887 ,pp 166,167.

(viii) rené basset , nedroma et les traras , ernest lerousc editeur,paris,1901,p51.

(ix) لا زال لحد الساعة الموروث الشعبي في جبالة يستذكر قبيلة كومية ، وذلك بقرى دار الناصر، زورانة، ترنانة، الحدادش، العجائجة..فيستغل الأطفال الصغار مناسبة وقوف عرفة قي عيد الأضحى المبارك ويجتمعون في فرق صغيرة ويجوبون المداشر والقرى الجبلية ليحتفلوا بهذه الأيام المباركة السعيدة، فتستقبلهم العائلات بفرح وسرور فيقومون بإنشاد أنشودة بالدارجة المحلية هي كالآتي:**" عَارْفَة مْبَاركَةْ مِيمُونَةْ عَارْفَة مْبَاركَةْ مِيمُونَةْ، تَعْطِينِي شي وَلاَّ نَمْشِي نَعْطِيكْ اطْفِيرْ مخَانِي برْكَةْ مَنْ جْدُودِي كُومِيّةْ"** بعد ذلك تعطيهم ربة المنزل قيلا من الدقيق أو الشعير أو حبات من البيض أو قطعا من النقود.

(x) عبد الرحمن ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشّأن الأكبر، ضبط: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار،الجزء6،دار الفكر للطباعة والنشر،لبنان،2000،ص ص165،166.

(xi) rene basset, opcit,p47,et canal,monographie de l'arrandissent de tlemcen,bultin de la société d'archeologie d'oran ,t 7,1887 ,pp 166,167.

(xii) حوار مع الشيخ :يونس آيت سالم إمام بدار الحديث تلمسان،13أفريل2015.

(xiii) أنظر : ابن خلدون، المصدر السابق، ج7،ص290.

(xiv) حوار مع السيد: السي أحمد، إمام بجامع اولاد العباس،الحوانت،مارس2015

(xv) Rene basset ,opcit,p 51

(xvi) Renet basset,opcit,p48.

(xvii) عبد الحميد حاجيّات، تطور مدينة ندرومة في عهد بني زيان، أشغال الملتقى الوطني الرابع حول: تاريخ ندرومة ونواحيها: أعلام، أقطاب وشخصيات، تنظيم الجمعية الموحّدية، قصر الثقافة، الجزائر العاصمة،أيام:25،26،27جوان 2003،دار الكتاب العربي،الجزائر،2005،ص96.

(xviii) القوّيرة : هي سور من الصخر على شكل دائري يحاط بالقبر لئلا تدخل إليه الحيوانات والزواحف، ثم لأن صاحب القبر له مكانة خاصة في نظر الأهالي فهو إما الجد الأكبر للقبيلة، أو إمامها وقاضيها، أو ولي صالح من صلحائها، أو ربما لا شيئ مدفون فيه سوى ضريح تدخله النساء عادة لطلب البركة، وشفاء الأطفال وتزويج البنات وطرد الشرور والحسد، وكثيرة هي في منطقة جبالة، بدأت تندثر تدريجيا مع حركة الصحوة فترة نشاط جمعية العلماء وفترة ما بعد الثورة.

(xix) الشخص يسمى موفق الحبيب ويسكن حاليا بقرية زورانة ،بلدية جبالة. حوار معه يوم:18ديسمبر2015.

(xx) ابن خلدون ، المصدر السابق، ج6،ص155.

(xxi) الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي، وصف إفريقيا،الجزء2،ترجمة عن الفرنسية :محمد حجي ومحمد الأخضر،ط2،دار الغرب الإسلامي،لبنان،1983،ص14.

(xxii) نفسه، ص44.

(xxiii) في حديثه عن مطّغرة يقول أيضا :"..من أوفر هذه الشعوب، كانوا خصاصين آهلين وكان جمهورهم بالمغرب منذ عهد الاسلام نشبوا في نشر الردة وضروا بها، وكان لهم فيها مقامات، ولما استوسق الاسلام في البرابر أجازوا الى فتح الإسلام وأجازت منهم أمم واستقروا هنالك. ".ابن خلدون، المصدر السابق،ج6،ص155.

(xxiv) لم نعثر على ترجمة لهذا الاسم أو حتى مفهوم واضح له، فهناك من يقول بيرين تعني "بئرين"، وصحيح ان المنطقة فيها بئر هناك ليس ببعيد عن المقبرة، وهناك من يقول انه اسم يهودي يعود لأحد الحاخامات قبل الإسلام، وهناك من يقول انها خدعة فرنسية ليس إلا ولكننا لا نرجح الرأي الأخير لأن المنطقة بعيدة عن ثكناتهم والفرنسيين لم يكونوا يذهبون إليها ولا أشك انهم كانوا قد فكروا في تلك الفكرة خاصة في ظل عديد الأضرحة والمرابطين والزوايا.

(xxv) ribert tinthoin ,les trara,etude dune region musulmane d'algerie ,bulletin de la section de geographie,tome155111,anneé1960,comité des travaux historiques et scientifiques ,paris ,imprimerie nationale,1961,p249

(xxvi) تروي السيدة قوال فاطنة المدعوة معزوزة عن أبيها انه لما هم ببناء بيت لهم بالحجارة والطين في دشرة حماد(قرية زورانة حاليا) وجد بعض السيوف لقوم بني يلّول وهي ذات أشكال غريبة ومميزة. لكن نحن كباحثين لا نعلم بالضبط كيف كانت أشكالها = وما تركنا حائرين هو كيف عرف الأب أن السيوف لبني يلول هل كانت منقوشة بكتابات؟ ام كانت فيها علامات تميز سيوفهم عن الأسلحة الاخرى. حوار معها في بيتها،ديسمبر2014.

(xxvii) تروي المرحومة حماد خديجة أن أحد الخمّاسين عندهم وجد وهو يقوم بعملية الرعي قدر مملوءة باللويز (حبيبات براقة ثمينة) في مكان ليس ببعيد عن المكان الذي تحدثنا عنه سابقا (دشرة حماد) ،ونرجح ان المكان كان يحوي قصرا بربريا يعود لفترتهم ودليل ذلك السيوف والكنز الموجود ثم إنّ إحدى مقابر بني يلول ليست ببعيدة عن ذلك المكان.

(xxviii) تروي الروايات في قرية زورانة ان أهل سوس (السّواسة) من المغرب كانوا دائما في بحث مستمر عن كنوز بني يلول في منطقة العقبة ، فهم يستعملون المشعوذين والسحرة لكي يتحصلوا على الكنز فيأتون بالقرابين من الأضاحي والكباش لكن سرعان ما تموت تلك الأضاحي وهم في طريقهم إلى الحجرة الطويلة، وتحكي الروايات أيضا انهم قد حاولوا سرقة احد أبناء المنطقة ليقطعوا يده لأن يده زهرية (=فيها خط يقسم كف يده إلى قسمين) قربانا لحارس تلك الكنوز المدفونة ولكن لحسن الحظ انقذته أمه من بين أيديهم.

(xxix) سعد زغلول عبد الحميد ،تاريخ المغرب العربي،ج2،تاريخ الأغالبة و الرّستميين وبني مدرار والأدارسة حتى قيام الفاطميين، المعارف، الاسكندرية 1993،ص434.

(xxx) ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب،ج1، تحقيق ومراجعة :ج.س.كولان و إ. ليفي بروفنصال، دار الثقافة،ط3 ،بيروت، لبنان، 1983،ص ص83،84.

(xxxi) قمنا بزيارة ميدانية لبادية حدادن، والتي لا زالت الذاكرة الشفوية فيها تروي ذاك الحديث عن أسلافها، وكذلك لعديد المغارات والمعامل والمعادن التي وجدت بالمنطقة في فترات مختلفة.

(xxxii) محمد بن مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث،ج2،تقديم وتصحيح: محمد الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ص 99.

(xxxiii) محمد بن عمرو الطمّار، تلمسان عبر العصور ودورها في سياسة وحضارة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب،1984 ، ص29 .

(xxxiv) الميلي ،المرجع السابق،ص107.

(xxxv) سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، مرجع سابق، ص441.

(xxxvi) عبد العزيز فيلالي، العلاقات السياسية بين الدولة الاموية في الأندلس ودول المغرب، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة، ط2،القاهرة،1999،ص145.

(xxxvii) ribert tinthoin ,les trara,p241,242

(xxxviii) أنظر الملحق رقم02

(xxxix) انظر في هذا الصدد عملية المسح والدراسة التي قام بها المناضل عثمان بن حمدان خوجة للمجتمع الجزائري مبرزا خصائصه وطرق عيشه في كتابه "المرآة"، تقديم وتعريب وتحقيق: محمد العربي الزبيري،ط2،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر،1982،ص ص62-67.

(xl) انظر الملحق رقم03

tinthoin,opcit,p249. (xli)

(xlii) عبيد بوداود، تلمسان في مواجهة الحملات الحفصية المرينية، مجلة عصور،عدد6،7،جوان-ديسمبر2005،مخبر البحث التاريخي: مصادر وتراجم، جامعة وهران، ص203

(xliii) ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة،الرباط،1972،ص100.

(xliv) نفسه،ص112.

(xlv) أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدولة المرينية،الجزء3،تحقيق وتعليق ولدي المؤلف: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء،1954،ص69.

(xlvi) نفسه ، ص79.

(xlvii) أنظر الملحق رقم 05

(xlviii) أنظر الملحق رقم05

(xlix) أنظر الملحق رقم06

(l)أنظر في هذا الصدد العلاقات بين المدن التجارية الكبرى في المغرب الاسلامي والتي عرفت حراكا تجاريا منذ القدم :سامية مصطفى مسعد، العلاقات بين المغرب والاندلس في عصر الخلافة الاموية(300-399هـ/912-1002م)،عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية،ط1،مصر، 2000،ص146،147.

(li) الحسن الوزان، المصدر السابق،ص10،11.

(lii) يروي السيد أشراط السي الذهبي وهو مغربي الأصل أنه عندما دخل إلى الجزائر في الستينات وجاء ليعمل كإمام في جبالة وجد غالبية السكان يرتدون هذا اللباس وهو ليس ببعيد عن اللباس الجبلي في شفشاون(اقليم جبالة) في المغرب الأقصى. حوار معه في مسجد زورانة، أفريل 2014 .أنظر الملحق رقم07

(liii) حمدان بن عثمان خوجة، المصدر السابق،ص62.

(liv) نفسه،ص66.

(lv) شهادة حية مع السيد برابح محمد ببيته بترنانة يوم10أفريل2016.

[lvi]) خلاصة وجيزة لما توصلت إليه في أطروحة " ميناء طنجة " من جامعة محمد الخامس كلية الأداب الرباط

[lvii])وردت سياسة العمل البحري بالمغرب في بحث خاص سميته العمل البحري بالمغرب، وهو عمل ينتظر النشر لاحقا. وضمنته خلاصة الاتفاقيات البحرية المغربية خلال التاريخ الحديث والمعاصر.

[lviii])عبد المجيد القدوري، المغرب وأوروبا ما بين القرنين 15و18 مسألة التجاوز، ط مركز الفكر العربي البيضاء 2000.

[lix]) الرحلة الأولى لعبد القادر السودي الفاسي" الرحلة الكبرى في أخبار هذا العالم بحرا وبرا، طبعة فاس. والثانية " ابو بكر يوسف الفونتي السوداني" شكاية الذين المحمدي" مخطوطة خ م و ر، وتم تحقيقها من قبل الأستاذ محمد المنصور،طبع مركز الدراسات الإفريقية.الرباط المغرب.

[v]) اعتبر محمد حجي انعدام الخشب مصدر إزعاج للبحرية المغربية، كما تحدث حسن أملي عن نوعية الخشب المغربي الذي لا يصلح إلا للهياكل الكبيرة، بينما اعتبر الأستاذ عبد الإله الدحاني التجهيزات المغربية والاقامة موضوع السفاريات المغربية الدبلوماسية نحو أوربا.

[lxi]) سيدي أحمد سكيرج، الرحلة الحبيبية الوهرانية الجامعة للطائف العرفانية، ص 9.

[lxii]) التادلي م س ، آخر ورقة من المخطوط.

[lxiii]) انظرعمر عمالكي في أطروحة "ميناء طنجة" مرجع مرقون ص201.

[lxiv])عبد الله ميكاني الرباطي، الباب السادس، والثامن. معرفة الجغرافيا وحالات المد والتيار.مخطوط لواقح الاسرار في حديث البحر والسفر، سلا.

[lxv]) عمر عمالكي مقال شاركت به في ندوة "المصادر التاريخية للبحري بالمغرب" المنعقدة برحاب كلية الاداب والعلوم الانسانية بنمسيك سيدي عثمان ،الدار البيضاء. بمقال عرفت فيه بأهم المصادر المغربية، من خلال مخطوط عبد الله ميكاني والمجهول، من تأطير الاستاذين ليلى مزيان وخليل السعداني .من مختبر المغرب والعوالم الغربية، يوم 2007/03/28.

Quelles Sources pour Ecrire LHistoire du Maroc ? voir. http//www freeweek.com/ghmm.

[lxvi]) التادلي ابراهيم ، **زينة النحر** ، م س ، ص 24.

[lxvii]) سمي هذا العلم الرياضي بعلم كيفية سير السفن، ووضع له كتاب تحت هذا العنوان، مطبوع ويوجد، خ ح، الرباط.

[lxviii]) يتم تعيين أمير موكب الحج بالمغرب منذ زمن الموحدين وارتبط به عرفيا اسم ابي صالح الماكري من اسفي. ثم في زمن تفوق الزوايا أخذت كل زاوية تنصب أمير منطقتها للتحد الالوية في موكب يقوده أمير معين من قبل السلطة المركزية.

[lxix]) شكاية الدين المحمدي، للفوتي السوداني، م س.

[lxx]) عبد القادر السودي الفاسي، الرحلة الكبرى، م س.

[lxxi]) رحلة الفقيه الحيوني، تحقيق احمد البوزيدي، انظر ، البحر في تاريخ المغرب، تنسيق رقية بلمقدم، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية المحمدية، م س .

[lxxii])عبد القادرالسودي ، الرحلة الكبرى في هذا البحر و أخبار المعمور برا وبحرا ، م س، ص18 .

[lxxiii]) الرحلة الكبرى في أخبار هذا العالم برا وبحرا، تأليف العلامة عبد القادر السودي ،طبعة فاس الشراطين 1350ه، ص 10.

(lxxiv) في عهد المولى سليمان(1809م .

[lxxv]) سبق أن شاركت بمقالة في ندوة (يوم دراسي) حول مصادر التاريخ البحري للمغرب وبينت فيه نماذج من المصادر الدينية والتقنية والرحلية ، بجامعة الحسن الثاني كلية الآداب بنمسيك البيضاء 2006

[lxxvi]) احمد سكيرج، الرحلة الحبيبة الوهرانية الجامعة للطائف العرفانية، م س، ص 17.

[lxxvii]) رحلة الحيوني، م س، ص 6.

[lxxviii]) زينة النحر بعلوم البحر، م س.

[lxxix]) عبد القادر السودي الفاسي، الرحلة الكبرى، م س، ص18.

E.Waster mark ;ritual and belief in morocco ,university books, new york,1968vol1;p92.)[lxxx]

(lxxxi) العلامة عبد القادر السودي، الرحلة الكبرى في أخبار هذا العالم برا وبحرا، طبعة فاس الشراطين 1350هـ ، ص ص 7-8.

(lxxxii) عمر عمالكي، البحر في ذهنية فقهاء المغرب، رسالة السلك الثالث، نوقشت في وحدة المغرب واوروبا، كلية الاداب والعلوم الانسانية، جامعة محمد الخامس اكدال الرباط،2006.

.159Daniel Amaldi. L'océan et la Mer dans le monde Arabe Op.cit P)lxxxiii

(lxxxiv) نفسه ص 160.

(lxxxv) الفونتي السوداني شكاية الدين المحمدي على المتوكلين ، م مذكور،ص102.

[lxxxvi]) عمر عمالكي، البحر في ذهنية فقهاء المغرب، م س.

[lxxxvii]) فرناند بروديل، " الحضارة المادية، الاقتصاد و الرأسمالية، ج2 ، ترجمة مصطفى ماهر. القاهرة دار الفكر للدراسات و النشر و التوزيع 1993 ص 479.

[lxxxviii]) عبد الرحمان ابن خلدون المقدمة مرجع سابق ص 279

[lxxxix]) ابن خلدون المقدمة مرجع سابق ص 278.

[xc]) ابن عبد ربه، العقد الفريد ج 3 ، القاهرة دار التأليف والنشر، ص 413.

[xci]) ابن بطوطة، تحفة النظار في عجائب الأمصار والأسفار، بيروت دار الكتاب اللبناني، 1979 ج1 ، ص 168

[xcii]) ياقوت الحموي. معجم البلدان ، تحقيق محمد أمين الخانجي الكتبي. بيروت دار الكتب العلمية الطبعة الخامسة, 1960 ج 2 ص 112.

[xciii]) أحمد بن القاسم الحجري، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق، شوردفان كوننكزفلد. خيرارد فيخرز، قاسم السامرائي، المجلس الآعلى للابحاث العلمية الوكالة الاسبانية للتعاون الدولي، ص46.

[xciv]) الفقيه سكيرج ، الرحلة ، م س، ص 7.

[xcv]) الفقيه الحيوني، م س.

[xcvi]) الفقيه سكيرج،م س، ص 11.

[xcvii]) ذكر لويس دو شينيي الذي رافق البعثة الديبلوماسية الفرنسية إلى المغرب للتفاوض حول الاسرى.

[xcviii]) تاريخ المغرب، كانت هذه الرحلة في ماي 1767على عهد سيدي محمد بن عبد الله.

[xcix]) مادة فداء في الموسوعة الإسلامية. الطبعة الثانية الملحق 5-6 (لايدن 1982)

[c]) الشعبي المالقي (ت..4-11): الأحكام(رقم 879). طبعة، الحلوي ، بيروت 1992. صفحة 402و452 .
[ci]) الونشريسي ،المعيار والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقيا والأندلس والمغرب. تحقيق، محمد حجي وآخرين. (13 مجلد). الرباط 1981-1983. المجلد الثاني، ص: 161 وما بعدها .
[cii]) في بعض الأحيان كان الاسرى عند المغتربة يقدمون بديلا لافتداء الأسرى المسلمين. راجع الونشريسي ، المجلد الثاني، ص. 213 .
[ciii]) نفسه، ص: 211. هذا ما يؤكده أيضا Riccoldo de Monte di Croce في قوله: "إن المسلمين جمعوا ثروات كبيرة ووضعوها في خزينة، وبعد وقت معين فتحوها وقدموها لمسلم ثقة يذهب إلى مختلف الأقاليم يفتدي بها الأسارى والعبيد المسلمين الذين يوجدون في السجن عند المسيحيين أو دول أخرى". مقتبس عن :
N. Daniel: Islam and the West. The making of an image. Oxford 1993 (revised edition), 249.
[civ]) الحميدي (ت1095) جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس وأسماء رواة الحديث وأهل الفقه والأدب وذوي النباهة والشعر. تحقيق م. ت. الطنجي, القاهرة 1952. ص. 178-179 (رقم 334). أحمد بن يحيى الضبي (ت. 1201) بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس. مدريد 1885. ص. 231.232 (رقم 584) .
[cv]) F. Meier, Tahir as-Sadafi's vergessene westliche Heilige des 6-12 Jahrhunderts. "Der Islam" Schriftüber n°61 (1984), 14-90, p. 32.
[cvi]) Meier (1984), pp. 61-63.
[cvii])علي بن عبد الله النميري الشستري، (توفي في سوريا سنة 1211) إلا أن أصله من شستر قرية تحت إدارة مدينة وادي آش في الأندلس، لسان الدين بن الخطيب (ت. 1374) الإحاطة في تاريخ أخبار غرناطة. تحقيق م.ع. عنان. القاهرة 1977. أربع مجلدات. المجلد الرابع ص. 205-219 .
[cviii]) H. Ferhat, le Maghreb aux XIIème et XIIIème siècles: les sciences de la foi. Casablanca 1993,19.
[cix]) انظر ، كتاب المطرب في اولياء المغرب، للشيخ عبد الله التليدي، طنجة.
[cx]) بوشنتوف: صورة عالم من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، رضوان الجنوي من خلال "تحفة الإخوان ومواهب الامتنان في مناقب سيدي رضوان". مجلة أمل 4 (1994) 29-52، خاصة الصفحات 33، 34 و 38 .
[cxi]) مصلح فولاني في بلاد المغرب، نصيحة أحمد ابن القاضي التنبكتي إلى أولي الأمر بتونس والمغرب، تحقيق محمد المنصور وفاطمة الحراق، منشورات معهد الدراسات الافريقية2000،ص98.

[cxii]) نفسه ، ص96.
[cxiii]) نفسه، ص90.
[cxiv]) الأسير مويط. يورد خبرا مفاده أن هذه الجزيرة بها ميناء تأوي إليه كل السفن و فيه مخازن أحدثت للبضائع، و بها أماكن لإقامة السفن و تجهيزها، دون حارس و أن أي مركب لا يستطيع مغادرة الميناء إذا أخذ أكثر مما يلزمه من الأشياء التي صادفها إذا لم يؤدي قيمتها الحقيقية، و أن الرهبان أهل صقلية يأتون إليها و يأخذون المال و يضعون مكانه أشياء صالحة للملاحة، رحلة الأسير مويط. ترجمة محمد حجي و الأخضر غزال. ص 14.
[cxv]) إميل لود فيع، البحر المتوسط ، مرجع سابق ص 608.
[cxvi]) اشرنا إلى ذلك في مقالنا السابق، عن القرصنة المتأخرة بالمغرب، انظر العدد الثالث من مجلة ليكسوس الالكترونية.

انتهى